مفهوم
السنن الإلهية
في الفكر الإسلامي
السيد محمد رشيد رضا نموذجا

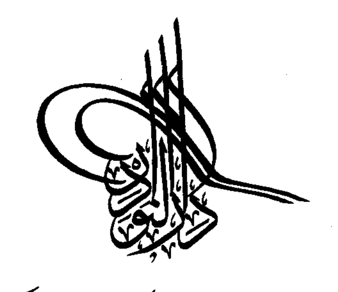
إعداد
حازم زكريا محيي الدين



مَفْهُومُ السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ
فِي الفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع
سُورِيَّة - دِمَشق - ص.ب ٣٤٣٠٦ - بَيْرُوت - لبنان - ص.ب ١٤/٥١٨٠
www.daralnawader.com

إهــداء

*** إلى والدي الحبيب**

الذي أبى عليه دينُه وعلمُه إلا أن يكونَ لي أباً ومعلماً ومربياً وصديقاً.

*** إلى والدتي الحبيبة**

التي وقفت إلى جانبي، وشَدّت من أزري وعزيمتي في كل مراحل حياتي الدراسيَّةِ.

*** إلى شهداء الأقصى ومجاهدي فلسطين**

الذين برهنوا بدمائهم الطاهرة أنَّ الحقَّ الأعزلَ أقوى وأبقى من القوَّةِ الظالمةِ.

*** إلى أبناء الأمة الإسلامية**

الذين يعملون بِجِدٍّ وإخلاصٍ حتىٰ يستعيدَ الإسلامُ دوره الحضاريّ في عالمنا المعاصر.

أهدي هذه الدراسة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول رب العالمين محمدٍ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

١ ـ أهمية الموضوع وسبب اختياره:

يُعد الشيخ محمد رشيد رضا المولود سنة (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م)، والمتوفىٰ سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) أحد رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث، فهو صاحب مدرسة فكرية لها خصوصيتها وتميزها، وهو أحد رجال الإصلاح الذين حملوا على عاتقهم ـ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين ـ عبء المساهمة في الحفاظ على الإسلام ودولته في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية على السواء، وفي الوقت نفسه عبء المساهمة في دفع الفكر الإسلامي، ومن ورائه المجتمع الإسلامي إلى آفاق جديدة، سعى من خلالها إلى تجديد حياة المسلمين، وتغيير واقعهم عن طريق تجديد فهمهم ووعيهم الحضاري بالإسلام ورسالته.

وقد قدَّم رشيد رضا ـ على هذا الصعيد ـ أعمالاً كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

ـ تأسيسه مدرسة الدعوة والإرشاد في القاهرة (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م)

لتخريج العلماء والدعاة المرشدين، وتعد هذه المدرسة من بواكير المعاهد العلمية في العالم الإسلامي التي استهدفت إعادة صياغة الشخصية العلمية الإسلامية المتكاملة علماً وسلوكاً ودعوةً حتى تكون على مستوىٰ الإسلام والعصر الذي تعيش فيه في آن معاً.

ـ تأسيسه مجلة المنار (١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م ـ ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، وهي تعد بحق أول مجلة إسلامية المضمون والهدف والصياغة في العصر الحديث، وقد كانت بالنسبة إليه منبراً إسلامياً مهماً، ساعده على طرح ونشر أفكاره الإصلاحية، والدعوة إليها في معظم أرجاء العالم الإسلامي.

ـ تفسيره الكبير للقرآن الكريم الشهير بـ«تفسير المنار»، الذي دشّن فيه منهجاً جديداً في دراسة القرآن الكريم وتفسيره.

وقد اهتم الباحثون بدراسة الشيخ رشيد رضا، وكتب عنه بعضهم عدداً من الكتب والرسائل الجامعية[1]، لكنَّ الملاحظ أن معظم هذه الكتب والدراسات قد اهتمت بشكل أوضح بالدور السياسي والاجتماعي والفكري العام الذي قام به، ولم يلتفتوا كثيراً إلى دراسة فكره الإسلامي الأصيل، وتحليل مضمون مشروعه الإصلاحي المتميز الذي اجتهد وجاهد في سبيل تحقيقه والدعوة إليه، لذلك فقد رأيت ـ وخصوصاً نحن اليوم في أشد الحاجة لاستلهام التجارب الإصلاحية لكل مفكري الإسلام؛ من أجل استئناف دورتنا الحضارية من جديد

---

(١) من هذه الدراسات: «**رشيد رضا صاحب المنار**» أحمد الشرباصي، «**رشيد رضا الإمام المجاهد**» إبراهيم العدوي، «**محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية**» أحمد الشوابكة، «**رشيد رضا: تاريخ وسيرة**» أنيس أبيض، «**السيد محمد رشيد رضا وإصلاحاته الاجتماعية والدينية**» محمد درنيقة، «**الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل**» سمير أبو حمدان.

ـ أن أتوجه في اختياري لموضوع رسالتي إلى دراسة أحد الجوانب الرئيسة في فكر ومشروع رشيد رضا؛ من خلال دراسة مفهوم السنن الإلهية، وهو المفهوم القرآني الأصيل الذي شغل حيزاً كبيراً ومهماً في خطاب رضا الإصلاحي، والذي اعتمد عليه كثيراً في تنبيه المسلمين، ودعوتهم إلى تجاوز واقعهم الحضاري المتخلّف على جميع المستويات الفكرية والسياسية والاجتماعية؛ من أجل تشييد واقع حضاري بديل، تسود فيه قيم الإسلام وأفكاره ومعانيه الحضارية بكل أبعادها.

وأما الهدف الذي جعلته نصب عيني من وراء هذه الدراسة، فهو:

ـ لفت أنظار المسلمين إلى أهمية وغنى المشروع الفكري الإسلامي الذي قدَّمه رشيد رضا من أجل الإقبال عليه، والاستفادة منه.

ـ لفت أنظار المسلمين إلى أهمية مفهوم السُّنن الإلهية، وزيادة الوعي به، حتى يتخلّصوا من الفوضىٰ الفكرية والعلمية التي يتخبطون بها الآن، وهم يواجهون واقعاً معقداً لا سبيل إلى التغلب عليه إلا بالالتزام بدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وشريعته، وإدراك سنن الله ـ تعالىٰ ـ في الكون والمجتمع والإنسان؛ تمهيداً لتسخيرها، والعمل بمقتضاها حتى يعود المسلمون من جديد خير أمة أُخرجت للناس.

٢ـ الدراسات السابقة:

يمكن أن تندرج رسالتي هذه في سياق عدد من الدراسات السابقة التي أفسحت ـ بنسب متفاوتة، ومن مواقع مختلفة ـ المجال لدراسة «تفسير المنار»، ومشروع رشيد رضا الإصلاحي، أذكر من بين هذه الدراسات ما يلي، مراعياً الترتيب التاريخي لظهورها:

١ـ دراسة الفرنسي (جاك جوميه Jacgues Jomier): «تفسير المنار

القرآني»[1]، التي يمكن أن نعدها فاتحة الدراسات التي اهتمت بتفسير المنار في العصر الحديث، وقد تناولت بشكل مبسَّط معظم مواضيع المنار من الوحي والعقل و. . . إلى السلطة وعلاقة المسلمين بغيرهم، وهذا التناول الشمولي قد أفقد هذه الدراسة القدرة على تعميق البحث حول كل هذه المواضيع المطروحة، وأوقعها في شراك التعميم الخاطىء والمستعجل، وأدى إلى تجاهلها لعددٍ من محاور التفسير المهمة، والتي يقف على رأسها مفهوم السُّنن الإلهية.

٢ـ كتاب عبد الله شحاته: «**منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم**»[2]، وقيمة هذا الكتاب تأتي من أنه ـ حسب علم الباحث ـ أول كتاب أشار إشارةً مستقلة إلى اهتمام رشيد رضا بالسُّنن الإلهية، وأشار إلى أن هذا الاهتمام هو أحد خصائص تفسير رشيد رضا الرئيسة، ولكن المؤلف لم يزد في أثناء حديثه عن السُّنن عن الإشارة الموجزة إلى أهمية هذه السُّنن عند رشيد رضا، واكتفى بنقل عناوين هذه السُّنن الواردة في فهارس تفسير المنار فقط.

٣ـ كتاب حسيب السامرائي: «**رشيد رضا المفسِّر**»[3]: ناقش المؤلف في كتابه هذا بعض القضايا العقائدية والفقهية في تفسير المنار، ولكنه لم يلتفت إطلاقاً إلى مسألة السُّنن وموقعها في «تفسير المنار» على الرغم من حضورها الكثيف في كل صفحة من صفحاته.

---

(١) قدم (جاك جومييه) هذه الدراسة لنيل درجة الدكتوراه، وقد صدرت في كتاب مستقل في باريس عام (١٩٥٤م).

(٢) هذا الكتاب في الأصل رسالة ماجستير تقدم بها الباحث إلى كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، عام (١٩٦٠م).

(٣) هذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه مقدمة لكلية أصول الدّين ـ جامعة الأزهر، عام (١٩٧٧م).

٤ـ كتاب محمد صالح المراكشي: «**تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار**» (١٨٩٨ـ ١٩٣٥)[١]، يُعد هذا الكتاب من أفضل الكتب العلمية والمنهجية التي درست فكر رشيد رضا، لكن هذا الكتاب ـ لأسباب إجرائية تعود للباحث ـ لم يُعط مساحة كافية لتفسير المنار المنشور أصلاً على صفحات مجلة المنار، ولم يقم بتحليل المفاهيم الواردة فيه، هذا بالإضافة إلى أن الباحث ـ في أثناء حديثه عن علم الاجتماع ومشاكل الأمم عند رشيد رضا ـ لم يُشر أي إشارة إلى مفهوم السنن الإلهية؛ علماً بأن مجلة المنار مليئة بالمقالات الاجتماعية التي تحدث فيها رشيد رضا بإسهاب وتوسعٍ عن السُّنن الإلهية.

٥ـ رسالة حسام جزماتي: «**الإصلاح في تفسير المنار**»[٢]، يمكن أن تعد هذه الرسالة الجامعية تطوراً في دراسة «تفسير المنار»، وذلك بسبب تركيزها على الفكر الإصلاحي في هذا التفسير فقط، وقد أحسن الباحث عندما عدَّ السُّنن الإلهية المحور الأول من محاور تفسير المنار الإصلاحية، ولكنه ـ وعلى الرغم من تعريفه للسُّنن الإلهية وتحديد خصائصها بشكل عام، وتقديمه عرضاً موجزاً لفكرة السُّننية في تفسير المنار ـ فإنه في أثناء حديثه عن السُّنن المستخرجة من تفسيرالمنار، قد اكتفى بسرد بعض هذا السُّنن دون تمييز بين أفكار عبده ورضا في هذا المجال، ودون أن يقوم بجهد ـ ولو بسيط ـ في التصنيف أو التحليل أو التقييم.

على ضوء هذه الملاحظات على هذه الدراسات ـ التي استفدت منها جميعاً

---

(١) هذا الكتاب هو في الأصل رسالة دكتوراه الدولة تقدم بها الباحث إلى كلية الآداب في جامعة تونس عام (١٩٨٣م).

(٢) قدم الباحث هذه الرسالة للحصول على درجة الماجستير إلى كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت تحت إشراف الدكتور زكريا عبدالرزاق المصري، عام (١٩٩٨م)، ولم تنشر بعد.

بطبيعة الحال ـ يصبح من المبرر علمياً اختياري لموضوع مفهوم السُّنن الإلهية وتحليله بشكل مفصَّل مُقتصراً على ماأنجزه رشيد رضا في هذا المجال في «تفسير المنار».

٣ـ أهم مصادر الدراسة:

اقتصرت في دراستي لأفكار رشيد رضا السُّننية على كتابه: **تفسير القرآن الحكيم**، المعروف **بتفسير المنار**، وهذا الاقتصار أمرٌ أملته طبيعة الدراسة، على اعتبار أن رشيد رضا قد أودع تفسيره هذا كل آرائه وأفكاره المتعلقة بالسُّنن الإلهية، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإني بعد الاطلاع الكافي على كل ما كتبه رضا في كامل مجلدات مجلته وكتبه الأخرىٰ ـ فيما يتعلق بالسُّنن ـ لم أجد فيها أكثر من تكرار لما جاء في تفسيره، أو زيادة بعض الشروح والأمثلة، الأمر الذي لا يُدخل أي تغيير أو تعديل على أفكاره المعروضة في تفسيره.

وهنا أرىٰ أنه من الواجب العلمي أن أشير إلى أني قد استعنت في الفصل الأول من رسالتي بكتب كثيرة تتحدث عن مفهوم السُّنن الإلهية في القرآن الكريم بشكل عام، ولكن أكثر كتاب استفدت منه، واعتمدت عليه، هو كتاب: «**السُّنن التاريخية في القرآن**» لمحمد باقر الصدر (ت١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)[١]

وكذلك الأمر فإني أدين بالشيء الكثير إلى كتاب محمد أمزيان: «**منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**»، إذ أنني ـ ومن خلاله ـ انتبهت إلى مدى حضور الفكر السُّنني عند بعض أعلام الإسلام، وعلى وجه الخصوص ابن

---

(١) محمد باقر الصدّر (ت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ولد في الكاظمية في العراق، وقتل في بغداد، مفكرٌ معاصر، من أهم كتبه: «فلسفتنا»، «اقتصادنا»، «دروس في علم الأصول»، انظر: «مدخل إلى رحاب الصدر» خالد العطية، في «**مجلة المنهاج**»، ٥(١٧/ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م)، ٦ـ ١٢.

تيمية (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ[١].

٤ـ منهج الدراسة:

إن اختيار منهج علمي دون غيره في عمل علمي ما، هو أمر تفرضه مادة العمل وموضوعه، ومن هنا فإني قد اخترت المنهج النصي التحليلي في رسالتي هذه، إذ أن مادة دراستي هي نصٌّ فكري مطوَّل «تفسير المنار»، وموضوعها هو تحليل مفهوم محوري من مفاهيم هذا النص، لذلك كان من الطبيعي والمنطقي اختيار المنهج النصي والتحليلي في دراستي هذه.

٥ـ صعوبات الدراسة:

لعل الصعوبة الحقيقية التي واجهتني في أثناء البحث هي وضع تصميم ومخطط يضم في داخله ـ بشكل منهجي ومتناسق ـ أفكار رشيد رضا السُّننية المتناثرة في كل صفحة من صفحات تفسيره الكبير تقريباً في وحدة متناغمة، يؤدي بعضها إلى بعض في سياق كلي متكامل، بالإضافة إلى صعوبة تركيب موقف فكري محدَّد لرشيد رضا نحو بعض القضايا الفكرية الشائكة، والتي عالجها رضا بشيء من التطويل والاستطراد، وأحياناً بشيء غير قليل من الاختلاف الظاهري، الذي اقتضى مني الكثير من التدقيق والتمحيص للوصول إلى تحديد حقيقة موقفه من القضية المدروسة، وأذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ موقفه من مسألة السُّنن الإلهية والمعجزات والكرامات.

---

(١) ستأتي ترجمتها مفصّلة في المبحثين المخصصين للحديث عن جهودهما في دراسة السنن الإلهية في الفصل الثاني.

٦ـ خطة الدّراسة:

تتألف هذه الدراسة من: مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، ويشتمل كل باب منها على تمهيد وفصلين، وهي على النحو التالي:

المقدمة: وقد وضَّحت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والغاية المتوخاة منه، وأتيت فيها على ذكر إجراءات البحث المنهجية المتَّبعة فيه؛ من منهجٍ ومصادر وصعوبات وخطة.

أما الباب الأول، فقد تحدثت في تمهيده عن المفهوم المركزي الذي خصصت له هذه الدراسة، أي: مفهوم السُّنن الإلهية، وقد حاولت من خلاله الوصول إلى تعريف دقيق ومحدَّد، بعد القيام بذكر التعريفات اللغوية والاصطلاحية السابقة، ومناقشتها وتقويمها بشكل عام.

وأما الفصل الأول، فقد تحدثت فيه عن السُّنن الإلهية في القرآن الكريم باعتباره المصدر والكتاب الإلهي الأول الذي حدّثنا الله ـ تعالىٰ ـ فيه عن سُننه في خلقه؛ من حيث المبدأ والمفهوم، ومن حيث النماذج التطبيقية، لذلك فقد جاءت مباحث هذا الفصل تتحدث عن مدى اهتمام القرآن الكريم بالسُّنن الإلهية، وبيان أساليب القرآن الكريم في عرضها، وتحدّثت عن سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في الترف كنموذج تطبيقي للسُّنن الإلهية في القرآن الكريم.

أما المبحث الأخير، فقد ذكرتُ فيه طرفاً يسيراً من أحاديث رسول الله ﷺ السُّننية التي تؤكد شمولية فهم رسول الله ﷺ لمبدأ السُّنن الإلهية الذي أشار إليه القرآن الكريم، وتؤكد أيضاً مدى حرصه ﷺ على تبصير المسلمين، وترسيخ استيعابهم لهذا المبدأ القرآني؛ من خلال بيانه النبوي الواضح.

وأما الفصل الثاني، فقد تحدثت فيه عن مدى تفاعل المسلمين مع هذا المفهوم القرآني الأصيل، وقمت بمحاولة تأريخ متواضعة وموجزة لمدىٰ حضور هذا الفهم في إنتاج العلماء المسلمين، فتبيّن لي ـ من خلال ذلك ـ أنّ

هذا المفهوم لم يتبلور ويظهر بوضوح في ساحة الفكر الإسلامي إلا على يد بعض العلماء الذين ساهموا بجد وإخلاص في تجديد الفكر الإسلامي عبر تاريخه الطويل، ومن هنا فقد قمت في هذا الفصل بالحديث عن التصور السُّنني عند ابن حزم (ت٤٥٦هـ / ١٠٦٤م)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٩٠٥م)، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)، ومحمد عبده[1](ت١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م)، باعتبارهم أكثر العلماء عبر التاريخ الإسلامي عنايةً بهذا المفهوم، وحرصاً على توضيحه نظرياً وتطبيقياً.

وأما الباب الثاني، فقد تحدثت فيه عن السُّنن الإلهية من الناحية النظرية عند رشيد رضا بشكل خاص، وعن علاقة هذه السُّنن مع بعض المفاهيم العقائدية من وجهة نظره، وقد مهّدتُ لهذا الباب بإلقاء نظرة عامة على حياة ونشاطات رشيد رضا الدينية والعلمية، وكان من الطبيعي هنا أن أُفرد فقرة خاصة للحديث عن «تفسير المنار» مادة هذه الرسالة ومصدرها الرئيسي.

وأما الفصل الثالث، فقد تحدثت في مباحثه عن تعريف رشيد رضا للسُّنن الإلهية، وحاولت تحديد خصائصها من وجهة نظره، كما حاولت الوقوف على وسائل ومصادر العلم بهذه السُّنن عنده، وختمت هذا الفصل بالحديث عن أهمية علم السُّنن، ومدى الحاجة إليه عنده.

وأما الفصل الرابع، فقد تحدثت فيه عن إسهامات رشيد رضا العلمية في رفع التناقض الظاهري بين مشيئة الله ـ تعالىٰ ـ وقدرته، والمعجزات والتوكل، وبين اطّراد السُّنن الإلهية وثباتها، كما تحدثت فيه عن أسلوب فهم رشيد رضا للشرك والتقوىٰ والدعاء في ضوء السُّنن الإلهية.

وأما الباب الثالث، فقد تحدثت فيه عن السُّنن الإلهية في شؤون الأفراد

---

(١) ستأتي ترجمة ابن خلدون ومحمد عبده مفصّلة في المبحثين المخصصين للحديث عن جهودهما في دراسة السنن الإلهية في الفصل الثاني.

والأمم عند رشيد رضا، وقد مهّدت له بالحديث عن السُّنن الإلهية في الاجتماع البشري عنده.

وأما الفصل الخامس، فقد تحدثت فيه عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ المتعلقة بالإنسان ومصيره، وبعض قضاياه الكبرىٰ، فجاءت مباحثه على النحو التالي: سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلق الإنسان مختاراً، أي: حرية الإنسان، وسُنة الله ـ تعالى ـ في أعمال البشر والجزاء عليها، أي: عمل الإنسان، ومسؤوليته عن هذا العمل، ومسؤولية الإنسان نحو أكبر قضية تُقرر مصيره وتحسمه في الدنيا والآخرة، وهي قضية الإيمان والكفر، وما يترتب عليهما من سعادة وشقاء، وسُنة الله ـ تعالىٰ ـ في اختلاف البشر، وهي تتحدث عن ظاهرة بشرية طبيعية فَطَر الله ـ تعالىٰ ـ البشر عليها، وهي ظاهرة الاختلاف والتنوع، وأخيراً سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في ابتلاء البشر، وهي قضية تناقش مسألة الشر والألم في حياة الإنسان، والحكمة من وجودهما.

وأما الفصل السادس، فقد تحدّثت فيه عن قضية كانت تؤرق رشيد رضا أرقاً شديداً، وتستقطب كثيراً من جهوده وطاقاته الفكرية والعلمية في سبيلها، وهي قضية الأمم وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في نهوضها وسقوطها، لذلك فقد تكلمت في المبحث الأول من هذا الفصل على أهمية العلم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم عند رشيد رضا، وحاولت تفسير اهتمامه الشديد بهذه السُّنن على ضوء ظروف وأحداث عصره التاريخية.

وقد حاولتُ في المبحث الثاني تحديد مفهوم الأمة عنده، ومقارنته برؤية وتصور القرآن الكريم لهذا المفهوم.

وأما المبحثان الثالث والرابع، فقد تحدثت فيهما عن عوامل وسنن سقوط ونهوض الأمم، ومبدأ تغيير أوضاعها من حالة إلى أخرىٰ، وسُبُل تجديدها وإعادة الحياة الحضارية إليها بعد انتشار عوامل السقوط فيها في ضوء استنتاجات رشيد رضا من القرآن الكريم.

وأما خاتمة الرسالة، فقد خصصتها للقيام بجولة تقييمية لمفهوم السُّنن الإلهية، ومكانته في «تفسير المنار» عند رشيد رضا حصراً، وقد حرصت فيها على تبيين مكانة، ودور رشيد رضا في هذا المجال، وفي الفكر الإسلامي المعاصر عموماً.

وقد حاولت في الخاتمة أيضاً إلقاء بعض الأضواء على الجهود الحديثة التي أتت بعد رشيد رضا وحملت لواء الدعوة إلى دراسة السُّنن الإلهية، والأخذ بها في الفكر الإسلامي المعاصر.

وقد أنهيتُ هذه الخاتمة بتقديم بعض المقترحات المتواضعة التي رأيت ضرورة الأخذ بها حتى تؤتي دراسة السُّنن الإلهية أُكلها وثمارها المرجوّة في المجتمع الإسلامي المعاصر.

وقبل أن أشرع في موضوع الرسالة أجد لزاماً عليّ ـ من باب الأمانة العلمية ـ أن أشير إلى أنني ـ وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته في استقراء واستقصاء وتحليل أفكار رشيد رضا السُّننية ـ فإني لم أستوعب جميع هذه الأفكار، وذلك اكتفاءً مني بعرض أمهاتها وتفرعاتها ومُتعلَّقاتها الرئيسة، حتى أتمكن من إعطائها حقها في الدراسة والتحليل من جهة، ولكي لا يذهب بي العرض التفصيلي لأفكاره إلى درجة الإملال والتطويل المُخل من جهة أخرىٰ ، وهذا الأمر هو من العيوب التي حاولت اجتنابها قدر استطاعتي، على الرغم من أني لم أنجح في ذلك دائماً؛ بسبب تشابك أفكار رشيد رضا، وتداخلها الطبيعي والمنطقي، وبسبب شغفه بالتكرار والإعادة المستمرة بدافع الدعوة والتذكير في كل مقامٍ يسمح له بذلك التكرار والتذكير.

وفي الختام، فإني أتوجه بلسان الحمد والثناء لله ـ تعالىٰ ـ الذي أمدّني بعنايته وتوفيقه حتى تمكّنت من إنجاز هذه الدراسة، التي لا أدَّعي لها من الصفات والمزايا إلا ما يمكن أن يدّعيه أي باحث يخوض أول تجربة جدّية له

في البحث العلمي، ولا يخفىٰ ما يعتور التجربة الأولىٰ من عوارض النقص والتقصير والخطأ التي لا أُبرّىء نفسي ودراستي منها أبداً، وكلي أملٌ أن يقبل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مني عملي هذا، وأن يُهيىء له قُراءً ونُقّاداً مُنصفين يقيِّمون ما أعوجَّ منه، ويصوِّبون ما أخطأتُ فيه، ولهم مني كل الشكر والتقدير مقدّماً.

وبعد الختام:

أود أن أُعرب عن جزيل شكري، وخالص تقديري لأستاذي الشيخ الدكتور زكريا المصري ـ حفظه الله تعالىٰ ـ الذي لم يبخل عليّ في أثناء إشرافه على هذه الرسالة بالتوجيهات والتصويبات العلمية القيِّمة، التي كان لها أطيب الأثر في إخراج هذا البحث على هذه الصورة، فجزاه الله تعالىٰ عني خير الجزاء وأجزله، كما أني أرىٰ نفسي مُلزماً هنا بالتنويه بأخلاقه الرفيعة، وسجاياه النبيلة التي جعلتني أرىٰ فيه ـ بالإضافة إلى علمه الغزير ـ مثالاً حقاً للعالِم المسلم بكل ما تعني هذه الكلمة من أبعاد علمية وروحية.

كما أوجه الشكر إلى «كلية الإمام الأوزاعي» للدراسات الإسلامية في بيروت، إدارةً وأساتذة، التي أتاحت لي ولغيري من طلاب العلم الفرصة المناسبة لمتابعة السير على طريق البحث العلمي الجادّ من أجل خدمة الأمة الإسلامية، والتفاعل مع قضاياها.

ولا يفوتني في الختام أن أوجه شكري وعرفاني بالجميل لكل الإخوة والأصدقاء الذين تفضَّلوا بتقديم يد المساعدة لإنجاز هذا العمل.

حازم زكريا محيي الدين

دمشق

١٤ شعبان ١٤٢١هـ

١١ تشرين الثاني ٢٠٠٠م

الباب الأول

مفهوم السُّنن الإلهيَّةِ في الفكر الإسلامي عموماً

الباب الأول

يُقسم هذا الباب إلى فصلين

سأتناول في الفصل الأول منهما: مفهوم السُّنن الإلهية كما يعرضه القرآن الكريم، مع الإشارة إلى دور السُّنّة النبوية المطهّرة في إبراز هذا المفهوم وتوضيحه.

وسأتناول في الفصل الثاني: الجهود النظرية والتطبيقية ـ بشكل موجز ـ لبعض علماء المسلمين الذين أسهموا في دراسة السُّنن الإلهية.

وسأُمهِّد لهذا الباب بمحاولةٍ أهدف من خلالها ضبط معنىٰ السُّنن الإلهية ـ كما جاء عند القدماء والمعاصرين ـ.

تمهيد

محاولة في تعريف مفهوم السُّنن الإلهية

أجد أنه من الضروري ـ من الناحية المنهجية والإجرائية ـ قبل البدء بدراسة تفصيلات مفهوم (السنن الإلهية) أن أحاول وضع تعريف علمي لهذ المفهوم، يحدِّد المقصود والمراد منه بشكل واضح ودقيق، ولكن قبل الوصول إلى هذا التعريف، يجب استنطاق مصادر اللغة والتراث، التي تعرضت لشرح وتعريف هذا المفهوم، وبعد ذلك يجب الاستماع إلى مساهمات العلماء والكتاب المعاصرين فيما قالوه حول تعريف وتحديد هذا المفهوم.

١ـ تعريفات القدماء[1]:

لا نجد في كتب اللغة والتفسير والتراث مفهوماً متكاملاً محدداً لمفهوم (السُّنن الإلهية)، بل نجد فيها تعريفات لكلمة (لغةً) بشكل عام، ثم بعض الشروح والتعليقات على معنىٰ إسناد كلمة (السُنّة) إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في القرآن الكريم.

ـ يقول ابن منظور[2] (ت٧١١هـ / ١٣١١م) في «لسان العرب»:

---

(١) لن أذكر هنا تعريف ابن تيمية، إذ إنه سيرد في الفصل الثاني.

(٢) ابن منظور (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م): هو محمد بن مكرم بن علي بن منظور، ولد وتوفي في مصر، من أئمة اللغة والأدب، من كتبه: «معجم لسان العرب»، «مختصر=

«وسُنّة الله: أحكامه وأمره ونهيه، . . . وسَنَّ الله سنة: أي: بيَّن طريقاً قويماً. . . والسُنَّة: السيرة، حسنةً كانت أو قبيحةً. . . وفي الحديث: «مَنْ سَنَّ سُنة حسنةً فله أجرُها، وأجرُ مَنْ عمل بها، ومَنْ سَنَّ سُنةً سيئةً. . .»[1] يريد: من عملها لِيُقتَدى به فيها، وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده قيل: هو الذي سَنَّه. . . وقد تكرر في الحديث ذِكر السُّنّة وما تصرّف منها، والأصل فيها: الطريقة والسيرة، وإذا أُطْلقت في الشرع، فإنما يُراد بها ما أمر به النبي ﷺ، ونهىٰ عنه، وندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يُقال في أدلة الشرع: الكتاب والسُنة؛ أي: القرآن والحديث»[2].

- يقول الفيروزآبادي[3] (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م) في «القاموس المحيط»:

= تاريخ دمشق» لابن عساكر، انظر: «**الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**» خير الدين الزركلي، ط٦، بيروت، دار العلم للملايين، (١٩٨٤م)، (٧/ ١٠٨).

(١) رواه الترمذي، «**الجامع الصغير**» أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة، (ت٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، كتاب العلم (٤٢)، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدىً فاتُّبع أو إلى ضلالة (١٥)، رقم (٢٦٧٥)، ٥/ ٤٣، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
ورواه ابن ماجه، «**السُّنن**» أبو عبد الله بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م)، المقدمة، باب: من سنَّ سنَّةً حسنة أو سيئة (١٤). رقم (٢٠٣)، (١/ ٧٤).

(٢) «**لسان العرب**» ابن منظور، بيروت، دار صادر، دون تاريخ نشر، (١٣/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٣) الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م) هو محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي، ولد في شيراز، وتوفي في زبيد باليمن، من أئمة اللغة والأدب، من كتبه: «القاموس المحيط»، «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز». انظر: «**الأعلام**» خير الدين الزركلي، (٧/ ١٤٦-١٤٧).

«. . . والسُنَّة ـ بالضم ـ: السيرة والطبيعة، وسُنَّة الله: حكمه وأمره ونهيه ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]؛ أي: مُعايَنة العذاب، وسَنَنُ الطريق: نهجُه وجهتُه، وجاءت الريح سَناسِنَ: على طريقة واحدة»[2].

ـ ويقول الزمخشري[3] (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م) في «أساس البلاغة»:

«سُنن ـ سَنَّ سُنّةً حسنة: طرق طريقة حسنة، واسْتُنَّ بسنته، وفلان مُتَسَنّن: عامل بالسُنّة. . .»[4].

ـ يقول السمين الحلبي[5] (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) في تفسيره: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون»:

«والسُّنن: جمع سُنّة، وهي الطريقة التي يكون عليها الإنسان ويلازمها، ومنه سُنَّة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، قال خالد الهذلي لخاله أبي ذؤيب:

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَها فأَوَّلُ راضٍ سنَّةً مَنْ يَسيرُها

---

(١) سورة الكهف: ٥٥.

(٢) «**القاموس المحيط**» الفيروزآبادي، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، (١٥٥٨).

(٣) الزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٤م) هو محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، من أئمة اللغة والبيان والتفسير، ولد وتوفي في خوارزم، من كتبه «الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل»، «أساس البلاغة»، «الفائق في غريب الحديث». انظر: «**معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**»، عادل نويهض، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، (٢/ ٦٦٦).

(٤) «أساس البلاغة»، الزمخشري، بيروت، دار الفكر، دون تاريخ نشر، (٣١٠).

(٥) السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، نحوي ومفسّر وفقيه، من كتبه: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون»، «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»، وهو مخطوط. انظر: «**معجم المفسرين**»، عادل نويهض، (١/ ٨٤).

قال بعض أهل اللغة: هي فُعْلة من: سَنَّ الماء يسنُّه: إذا والى صبَّه، وقيل: سُنَّة: فُعْلة بمعنى مفعول؛ كالغرفة والأُكلة، وقيل: اشتقاقها من سَنَنْتُ النصل أسُنُّه سَنّاً إذا حَدَدْتُه، والمعنى أن الطريقة الحسنة مَعتنى بها كما يُعتَنى بالنصل ونحوه»[١].

ـ يقول الفيروزآبادي في كتابه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»: «قد تكرر في التنزيل وفي الحديث ذكر السُّنَّة وما يتصرف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة، ... وسُنَّة النبي ﷺ: طريقته التي كان يتحرّاها، وسُنّة الله قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته، وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ﴾[٢] تنبيه أنَّ فروع الشرائع، وإن اختلفت صورها، فالمقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله ـ تعالىٰ ـ ومرضاته وجواره... وفي حديث المجوس: «سُنّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب»[٣]؛ أي: خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية مجراهم»[٤].

---

(١) «**الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**»، السمين الحلبي، تحقيق أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، (٣/ ٣٩٩ـ ٤٠٠)، وبيت الشعر المذكور من «ديوان الهذليين»، (١/ ٥٧). انظر: المصدر نفسه، الموضع نفسه، السمين الحلبي.

(٢) سورة فاطر: ٤٣.

(٣) رواه مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م)، «**الموطأ**»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م)، كتاب الزكاة(١٧)، باب حرمة أهل الكتاب والمجوس (٢٤)، رقم (٤٢)، (١/ ٢٧٨).

(٤) «**بصائر ذوي التمييز في لطائق الكتاب العزيز**» الفيرزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، المكتبة العلمية، دون تاريخ نشر، (٣/ ٢٦٧ـ ٢٦٨).

- يقول الراغب الأصفهاني[1] (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) في كتابه: «مفردات ألفاظ القرآن»:

«... فالسُّنَنُ: جمع سُنّة، وسُنَّةُ الوجه: طريقته، وسُنَّة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسُنة الله - تعالىٰ -: قد تقال لطريقة حِكْمتِهِ، وطريقة طاعته، نحو: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[2]»[3].

- ويقول الفيومي[4] (ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) في كتابه: «المصباح المنير»: «وسَنَنْتُ الماء على الوجه: صَببتُهُ صباً سهلاً، والسُّنَّة: الطريقة، والسُّنَّة: السيرة، حميدة كانت أو ذميمة، والجمع سنن، مثل غرفة وغرف»[5].

- ويقول القرطبي[6] (ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م) في تفسيره لقوله - تعالىٰ -:

---

(١) الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، هوالحسين بن محمد بن المفضَّل، المعروف بالراغب الأصفهاني، من علماء التفسير واللغة، من كتبه: «تحقيق البيان في تأويل القرآن»، «مفردات ألفاظ القرآن»، «الذريعة إلى مكارم الشريعة». انظر: **«معجم المفسرين»**، عادل نويهض.

(٢) سورة الفتح: ٢٣.

(٣) **«مفردات ألفاظ القرآن»**، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي، دمشق - بيروت، دار القلم، الدار الشامية، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، (٤٢٩).

(٤) الفيومي (ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م): هو أحمد بن محمد بن علي الفيومي، ولد بالفيوم في مصر، وتوفي في دمشق، من علماء اللغة والنحو، من كتبه «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» للرافعي، وهو معجم لغوي، «نزهة الأبصار في أوزان الأشعار»، وهو مخطوط. انظر: **«الأعلام»**، خير الدين الزركلي (١/ ٢٢٤).

(٥) **«المصباح المنير»**، الفيومي، ط٦، القاهرة، المطبعة الأميرية، (١٩٢٦م)، (١/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٦) القرطبي (ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، هو محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي الأندلسي، ولد في قرطبة، وتوفي في مصر، من أئمة التفسير، من كتبه: «جامع أحكام القرآن، والمبيِّن لما تضمنه من السُّنة وآي القرآن» ويعرف بتفسير القرطبي، =

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] :

«والسُّنَنُ: جمع سُنَّة، وهي الطريق المستقيم، وفلانٌ على السُّنَّة: أي: على طريق الاستواء، لا يميل إلى شيء من الأهواء، والسُّنَّة: الإمام المتبع المُؤْتَمُّ بِهِ، يُقال: سَنَّ فُلانٌ سُنّةً حسنة وسيئةً: إذا عمل عملاً اقتُدِيَ بِهِ فيه من خيرٍ أو شرٍّ»[2].

من خلال دراسة وتأمل التعريفات السابقة يمكن استنتاج ما يلي:

١ـ اتفقت كل التعريفات السابقة على أن «السُنَّة» لغةً هي: الطريقة والسيرة التي تمتاز بالثبات والديمومة؛ أي: الطريقة الدائمة والمستمرة، وليست الطريقة المؤقتة والعابرة[3].

أو هي: الطريقة والمثال المُتَّبَع.

٢ـ أما «سُنّة الله»، فهي إما: أحكام الله ـ تعالى ـ وأوامره ونواهيه، وإما: طريقة حِكْمَتِهِ، وطريقة طاعته ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٣ـ إذا أُطْلِقت «السُنَّة» هكذا دون تحديد في الشرع، فالمقصود بها: ماأَمَرَ به النبي ﷺ، ونهىٰ عنه، وَنَدَبَ إليه مما لم يُذكر في القرآن الكريم.

ونلاحظ من خلال كل التعريفات السابقة إغفال أي ربط بين سنة الله ـ تعالىٰ ـ، ومعنى القانون الثابت والمطّرد، وعلاقة السُنَّة الإلهية في النطاق

= «والتذكار في أفضل الأذكار» انظر: «**معجم المفسرين**»، عادل نويض، (٢/ ٤٧٨ـ ٤٧٩).

(١) سورة آل عمران: ١٣٧.

(٢) «**الجامع لأحكام القرآن**»، القرطبي، ط٢، القاهرة، دار الحديث، تحقيق محمد إبراهيم الحفناوي، محمود حامد عثمان، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، (٤/ ٢٢٧).

(٣) انتبه لما قاله السمين الحلبي في تعريف «السنة»: «الطريقة التي يكون عليها الإنسان ويلازمها».

الشرعي، فهي إما أحكام شرعية، أو حِكَم شرعية، ليس أكثر.

وأخيراً يلاحظ الباحث غياب وجود تعريف علمي متكامل للسُّنن الإلهية، أي: غياب وجود تعريف يحدد ماهية هذا المفهوم وخصائصه ومجال عمله بشكل مضبوط؛ شأن كثير من المفاهيم الشرعية الأخرى التي حظيت بتعاريف علمية صارمة ودقيقة لها[١]؛ الأمر الذي يشير ـ ولو من طرف خفي ـ إلى قلة الاهتمام بهذا المفهوم في التراث الإسلامي القديم، على الرغم من اهتمام القرآن الكريم به، وتكرار ذكره كثيراً بين ثناياه[٢].

٢ـ تعريفات المعاصرين:

تعددت محاولات العلماء المعاصرين في تحديد وتعريف مفهوم السنن الإلهية، وإلقاء الأضواء عليه، وذلك نتيجة ازدياد الاهتمام بهذا المفهوم، والإقبال على دراسته في العصر الحديث، لذلك فإني سأكتفي بعرض أبرز هذه المحاولات والتعريفات، التي تعكس تعدد خلفيات الاهتمام بهذا المفهوم، وتنوع زوايا النظر إليه.

ـ يقول محمد إسماعيل إبراهيم[٣] في كتابه: «**معجم الألفاظ والأعلام القرآنية**»: «وسنة الله: شريعته وطريقته، وما جرى من نظامه في خلقه»[٤].

ـ ويقول محمد عبد المنعم خفاجي[٥] في كتابه: «**موسوعة ألفاظ القرآن الكريم**»: «والسنة هي الطريقة والمنهج والمسلك، سنة الله هي المنهج الإلهي

---

(١) مثل: علم الكلام، أصول الفقه، الفقه.

(٢) سأوضح مدى اهتمام القرآن الكريم بالسنن الإلهية في الفصل الأول.

(٣) محمد إسماعيل: باحث مصري معاصر.

(٤) «**معجم الألفاظ والأعلام القرآنية**»، محمد إسماعيل إبراهيم، تقديم عبد الصبور شاهين، ط٣، القاهرة، دار الفكر العربي، دون تاريخ نشر، (١٥٤).

(٥) محمد عبد المنعم خفاجي: باحث مصري معاصر.

في تسيير أمور حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم، وهي شرائعه التي يرشد الإنسانية بها إلى الله وإلى الحق»[1].

- ويوضح عفَّت الشرقاوي[2] الخيط الواصل والرابط بين معنىٰ «السُّنَّة» لغةً، وبين المعنىٰ الاصطلاحي لها، بقوله:

«والسُّنَن جمع سُنّة، وهي الطريقة المعبَّدة والسيرة المتَّبعة أو المثال المُتبع، قيل: إنها من قولهم: سنَّ الماء: إذا والىٰ صبَّه، فشبَّهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب؛ فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد، ومعنىٰ ذلك أن البشر في اجتماعهم، وما يَعرِض عليهم فيه من مصارعة الحق للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال، والملك والسيادة، وغير ذلك، قد جرىٰ على طريقة قديمة، وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام»[3].

- ويعرّف عبد الكريم زيدان[4] «سُنّة الله تعالىٰ» بقوله:

«هي الطريقة المتبَّعة في معاملة الله - تعالىٰ - للبشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[5].

---

(١) «**موسوعة ألفاظ القرآن الكريم**» محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، (١٩٨٨م)، (١٤١-١٤٢).

(٢) عفت الشرقاوي: باحث مصري معاصر، من كتبه: «بلاغة العطف في القرآن الكريم»دراسة أسلوبية، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين.

(٣) «**في فلسفة الحضارة الإسلامية**»، عفَّت الشرقاوي، ط٤، بيروت، دار النهضة العربية، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، (٢٨٦).

(٤) عبد الكريم زيدان: باحث عراقي معاصر، من كتبه: «أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، «المفصَّل في أحكام الأسرة».

(٥) «**السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**»، عبد الكريم =

ـ يقول يوسف القرضاوي[1]: «إن السُّنَن الإلهية هي: القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، كما أن لها صفة الثبات والدوام»[2].

ـ ويقول عمر عبيد حسنة[3]: «إن السُّنَن الإلهية هي: القوانين المطّردة والثابتة، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية»[4].

ـ ويتحدث أحمد كنعان[5] عن السُّنن التي فطر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليها أمور خلقه، فيقول: «إنها مجموعة القوانين التي سنَّها الله ـ عزَّ وجل ـ لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً، على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها»[6].

ـ ويعرّف سمير سلمان[7] السُّنن الإلهية بأنها: «النهج/ النظام الإلهي العام

= زيدان، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، (١٣).

(١) يوسف القرضاوي: فقيه مصري معاصر، من كتبه: «فقه الزكاة»، «الحلال والحرام في الإسلام».

(٢) «**العقل والعلم في القرآن الكريم**» يوسف القرضاوي، القاهرة، مكتبة وهبه، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، (٢٧٩).

(٣) عمر عبيد حسنة: باحث سوري معاصر، من كتبه: «نحو إعادة ترتيب العقل المسلم»، «من فقه الاستطاعة».

(٤) «**مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**»، عمر عبيد حسنة، ط٢، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م).

(٥) أحمد كنعان، طبيب بشري وباحث سوري معاصر، من كتبه: «أزمة العقل المسلم».

(٦) «**أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**» أحمد كنعان، بيروت، دار النفائس، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ٥٤).

(٧) سمير سلمان: باحث إيراني معاصر.

الذي يخضع له الخلق أفراداً وجماعات»[1].

- ويعرِّفُها محمد تقي مصباح اليزدي[2] بقوله: «هي الأساليب التي يستخدمها الله - تعالىٰ - في إدارة وتدبير أمور العالم والإنسان»[3]

- أما إياد الركابي[4]، فيقول عن السُنّة التاريخية في القرآن المجيد: «هي عبارة عن ذلك القانون الذي يحكم سير الفعل البشري»[5].

من خلال التعاريف السابقة نلاحظ حضوراً أوسع لمفهوم السنن الإلهية عند المعاصرين، كما نلاحظ ارتباطاً واضحاً لهذا المفهوم القرآني بالكون والتاريخ والمجتمع، وذلك تبعاً لزاوية الرؤية له، والمرجعية الفكرية التي يرتكز عليها العلماء المعاصرون، فهناك من حدَّد علاقة السُنن الإلهية ومجال عملها بالكون المادي أو الإنسان، وهناك من انصبَّ تركيزه على التاريخ أو المجتمع أو الحضارة، أو جمع بين أمرين أو أكثر من هذه المجالات.

ولمّا كان مفهوم السُنن الإلهية يحتمل كل هذه المعاني والمجالات دفعة واحدة، فإن الباحث يقترح تعريفاً خاصاً به يأخذ بعين الإعتبار ماهية السُنن الإلهية ومجالات عملها وخصائصها الرئيسة.

---

(١) **«خطاب الكلمة في القرآن»**، سمير سلمان، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) هامش، ص (٣٣).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: باحث إيراني معاصر.

(٣) **«النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ»**، محمد تقي مصباح اليزدي، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، بيروت، دار الروضة، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، (٤٩٣).

(٤) إياد الركابي: باحث عراقي معاصر، من كتبه: «خطاب المشروع الوحدوي بين الفكر والممارسة»، «مشروع نقد العقل الإسلامي».

(٥) **«السنن التاريخية في القرآن المجيد»**، إياد الركابي، بيروت، دار النهضة الإسلامية، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، (١٠).

٣ـ التعريف المقترح :

السُّنن الإلهية : هي قوانين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي أقام عليها ، بمشيئته النافذة ، وحكمته البالغة ، نظام الكون والإنسان والمجتمع والحضارة ، وهذه القوانين تتصف بالعموم والثبات والاطّراد .

يتناول هذا التعريف ماهيّة السُّنن الإلهية باعتبارها قوانين نافذة ، ويحدّد مصدرها ، وواضعها وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمحض مشيئته المطلقة ، وحكمته البالغة ، وأخيراً يوضح خصائصها الرئيسة ، وهي العموم والاطراد والثبات[1] .



---

(١) سنقف على تفاصيل هذا التعريف وخصائصه في فصول الرسالة القادمة .

الفصل الأول

السُّنَن الإلهية

في

القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو الكتاب الإلهي الأول الذي ظهر وتبلور مفهوم السُّنن الإلهية على المستوىٰ النظري والتطبيقي من خلاله، وهو المصدر الذي أسبغ المشروعية الكاملة على هذا المفهوم، وأعطاه مكانة محورية رئيسة في العقل، والفكر الإسلامي.

لذلك كان من الطبيعي أن أتناول في أول فصول هذه الرسالة مدى اهتمام القرآن الكريم بالسُّنن الإلهية، وأساليب القرآن الكريم في عرض هذه السُّنن مع تخصيص مبحث مستقل لدراسة نموذج تطبيقي من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الواردة في القرآن الكريم.

وكذلك فإني قد رأيت أنه من الضروري الإشارة ـ ولو من خلال مبحثٍ موجز ـ إلى الدور الجوهري الذي اضطلعت به السُّنَّة النبوية المطهَّرة في تعزيز، وترسيخ هذا المفهوم في عقول وحياة المسلمين.

المبحث الأول

مدى اهتمام القرآن الكريم بالسُّنن الإلهية

من الآيات القرآنية التي تبيِّن مقاصد القرآن الكريم الكبرىٰ، قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1]، هذه الآية الكريمة توضِّح بشكل جامع ومحكم: أن إخراج الناس من الظلمات، من جميع الظلمات: ظلمات الكفر، والشرك، والظلم، والجهل، والتخلف، ... إلى النور: نور الهداية والإسلام، هو الهدف الرئيس من إنزال القرآن الكريم على رسول الله محمد ﷺ، ولا يخفى أن جوهر عملية الإخراج هذه، هو تغيير وانتقال من وضعٍ إلى آخر أفضل منه، ومن حالةٍ إلى أخرى أفضل منها.

إذاً فإن تغيير الأفراد والمجتمعات نحو الصلاح والإصلاح، نحو النور، هو مقصد رئيس من مقاصد القرآن الكريم.

ويؤكد القرآن الكريم في مكان آخر بشكل قاطع لا يقبل اللّبس اتجاه التغيير الذي يريده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للبشر أفراداً وجماعاتٍ بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[2]، فاتجاه التغيير حتماً هو نحو الأصوب، والأحسن، نحو الأقوم في كل الأمور والمجالات.

ولمّا كانت الخطوة الأولىٰ في عملية التغيير والخروج من الظلمات تتم عن طريق كسب الإنسان وعمله، كما بيّن لنا ذلك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[3]، فقد شاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يوضح ويبيّن للإنسان، كيلا تضل به الطريق، وتتكاثر أمامه السُّبل، ويقع في الحيرة والعجز: أنَّ الكون الذي هو ميدان وجوده وعمله، محكومٌ من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة فيه بقوانين إلهية ناظمةٍ له، لا يستطيع الفكاك عنها، بل وأوضح له أكثر من ذلك أن علاقة هذا الإنسان بأخيه الإنسان، وما ينتج عن هذه العلاقة من جماعات ومجتمعات وأمم وحضارات، وعلاقته هو بنفسه التي بين جنبيه أيضاً، كل هذا

---

(١) سورة إبراهيم: ١.
(٢) سورة الإسراء: ٩.
(٣) سورة الرعد: ١١.

محكوم أيضاً بقوانين ربانية لا رادَّ، ولا مُغيِّر لها[1]، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2]، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[4]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[5]، ومعنى الإسلام طوعاً وكرهاً ـ في الآية الأخيرة ـ هو الاستسلام الفعلي لقوانين الله ـ تعالىٰ ـ النافذة في ملكوت السموات والأرضِ ومَنْ فيها من كائنات وموجودات.

ولكي يزيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأمر وضوحاً على الإنسان، وجلاءً له، وتيسيراً عليه، ذكر له نماذج عديدة من هذه القوانين، التي أطلق عليها القرآن الكريم اسم «السُّنن»، وذكر له أمثلة من الظواهر الاجتماعية على نفاذ هذه السُّنن، من قبيل: ظاهرة التقليد، الظلم، الاستبداد، الإجرام، الترف، عداوة المصلحين، ارتباط الرزق بتقوىٰ الله ـ تعالىٰ ـ . . . ، كما أشار في كثير من آيات القرآن الكريم إلى ارتباط الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، ارتباطاً يرسِّخ في الأذهان وجود قانون وسنَّة إلهية نافذة في الميادين المذكورة فيها، مثل: حصول الهلاك من الله ـ تعالىٰ ـ لأي أمة من الأمم إذ عمَّ الظلم فيها، واستشرى[6]: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

---

(١) انظر: «**أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**»، أحمد كنعان (٥٩).
(٢) سورة فصلت: ١١.
(٣) سورة طه: ٥٠.
(٤) سورة الفرقان: ٢.
(٥) سورة آل عمران: ٨٣.
(٦) انظر: «**نحو علم اجتماع إسلامي**»، زكي محمد إسماعيل، ط٢، الإسكندرية، دار المطبوعات الجديدة، (١٩٨٩م) (٥٢ـ ٥٣). «**منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**» محمد امزيان، ط٢، الرياض ـ فيرجينيا، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ـ المعهد العالي للفكر الإسلامي، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، (٢٨٦ـ ٢٨٨)، وانظر =

﴿خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[1]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[2]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[3].

وإضافة إلى كل ما سبق، فإن القرآن الكريم يصرّح تصريحاً واضحاً لا لَبس فيه، ولا غموض بأن لله ـ عزَّ وجلَّ ـ سُنناً في الأمم والجماعات، ويدعو الإنسان إلى التفكير والتدبر في مضمونها، والكشف عن دلالتها التاريخية والحضارية والاجتماعية[4]، من ذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[5]، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[6].

في هذه الآية الأخيرة نجد إشارة واضحة إلى أن سنن الله ـ تعالى ـ هي قَدَرٌ من أقدار الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه.

ومن الإشارات القرآنية الصريحة إلى السُّنن الإلهية قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[7]، نلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد جعل هداية المسلمين وإرشادهم إلى القوانين والسُّنن التي تحكمت في الأقوام

= أيضاً: «**المجتمع الإسلامي في ظل القرآن الكريم**»، محمد التومي، تونس ـ الجزائر ـ الدار التونسية للنشر ـ المؤسسة الوطنية للكتاب، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م) (١٠١ـ ١٠٥).

(١) سورة النمل: ٥٢.

(٢) سورة الكهف: ٥٩.

(٣) سورة الأنبياء: ١١.

(٤) انظر: «**منهج البحث الاجتماعي**»، محمد امزيان (٢٨٧).

(٥) سورة آل عمران: ١٣٧.

(٦) سورة الأحزاب: ٣٨.

(٧) سورة النساء: ٢٦.

السابقين، وستبقىٰ تحكم حركة الأفراد والمجتمعات إلى يوم الدين، أمراً قد تعلّقت به إرادته المطلقة، وذلك لكي يحرص المسلمون الحرص كله على تجنب الوقوع فيما وقع به السابقون من أخطاء الانحراف عن مسار الوحي والنبوة.

ويمكن أن نذكر من الأدلة الدامغة على مدىٰ اهتمام القرآن الكريم واحتفاله بالسُّنن: أن كلمة «السُنّة» وردت في القرآن الكريم ست عشرة مرة وروداً صريحاً مباشراً في سياق حديث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن المجتمعات والأمم السابقة[1]، هذا عدا عشرات الإشارات غير المباشرة، وغير الصريحة إلى هذه السُّنن، منها قوله ـ تعالىٰ ـ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

ولم يكتف القرآن الكريم بذلك، بل جعل القصص القرآني كله مسرحاً وميداناً لاستعراض سُنن الله ـ تعالىٰ ـ وقوانينه النافذة في الأمم والجماعات، وجعل من هذا القصص دروساً عملية لنا نتعلم منها كيف تعمل سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق من خلال الواقع، وضَرْب الأمثلة المحسومة، وهذا

---

(١) انظر: «**معجم ألفاظ القرآن الكريم**»، ط٢، القاهرة، مجمع اللغة العربية، دون تاريخ نشر، (١/ ٦٠٣). ومن المعلوم أن لتكرار كلمةٍ ما في القرآن الكريم دلالات كثيرة، أهمها: الإشارة إلى أهمية مدلول ومضمون هذه الكلمة، ولفت أنظار المسلمين، ودعوتهم إلى الاهتمام بهذا المضمون.

(٢) سورة غافر: ٨٢ ـ ٨٥.

الأسلوب ـ أي: ذكر القصة وضرب المثال ـ يُعد الأسلوب الأمثل من بين أساليب التربية والتوجيه، وغرس الحقائق والمفاهيم، لذلك تعددت في القرآن الكريم أسماء السور التي تحمل أسماء أنبياء الله ـ تعالىٰ ـ السابقين ـ عليهم السلام ـ، ورجال دعوة مصلحين من قبيل: آل عمران، يونس، هود، يوسف، لقمان، المؤمن، نوح. . .، وأسماء أقوام حَلَّ عليهم العذاب نتيجة انحرافهم عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخَلْق مثل: الحِجر، سبأ، الأحقاف. . .، وقد تعددت بكثرة أيضاً الآيات القرآنية الداعية إلى الاعتبار بقصص الأنبياء وأحوالهم مع أقوامهم مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

إذاً فإن هدف القرآن الكريم من سرد القصص فيه، هو تحريك المسلمين صوب الأهداف التي حدّدها الإسلام لهم، والمتمثلة في عبادة الله ـ تعالىٰ ـ وحده، وإعمار الأرض، وتجنيب مجتمعاتهم في الوقت نفسه المصير الذي آلت إليه عشرات الأمم والجماعات التي انحرفت عن منهج الله القويم، وذلك لأن القصص القرآني «يحمل في طيّاته قوانين وسنناً اجتماعية مطَّردة عن فساد المجتمعات وصلاحها، وأنَّ على أساسها يمكن التنبؤ بما سيحدث في مجتمع ما من خلال سلوك هذا المجتمع في اتّباع أوامر الدين أو اجتنابها»[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم ليس كتاباً في علمَي التاريخ والاجتماع، بل هو كتاب هداية وتغيير أساساً، لذلك فإن ما ورد فيه «من لفت

---

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) **«نحو علم اجتماع إسلامي»**، زكي محمد إسماعيل، وانظر أيضاً: **«التفسير الديني للتاريخ»**، محمود الشرقاوي، كتاب الشعب، مطبوعات الشعب، دون معلومات نشر، (٢٤٩).

نظر إلى سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الكون، أو بما يعبر عنه العلماء المحدثون بالقوانين، إنما هي أمثلة ونماذج يسوقها الله ـ تعالىٰ ـ للعظة والاعتبار والتفكير، لا للحصر أو الاستقصاء، فذلك متروك لتفكير الإنسان»[1].

ولكيلا تحول الأمثلة والظواهر والقوانين والسنن التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بين العقل البشري، وبين متابعة التدبر والتفكير، وبالتالي تقلل من فاعلية الإنسان الذاتية[2]، فقد حمّل القرآن الكريم الإنسان مسؤولية متابعة الطريق الذي شقّه له، وذكر له الأمثلة والشواهد والنماذج التطبيقية العديدة عليه، ودفعه إلى تحمل مسؤوليته هو في استخراج واستكشاف السُّنن الإلهية الأخرىٰ المبثوثة في الكون والمجتمعات، ودعاه إلى دراستها عن طريق تقليب النظر في الكون، وإعمال التجربة، وكل وسائل المعرفة فيه، وتسخير كل ما يصل به إلى معرفة قانون مصلحة الإنسان وسعادته، كما دعاه أيضاً إلى دراسة التاريخ، ومتابعة حركة المجتمعات والأمم فيه في أطوار تكونها ونموها وانحطاطها وموتها، من خلال الدعوة إلىٰ السير في الأرض لاكتشاف سُنن الله تعالىٰ في الأفراد والمجتمعات عن طريق استقراء حوادث التاريخ، والبحث عن القوانين التي تحكم هذه الأحداث من الداخل؛ أي: البحث عن السنن التي أجرىٰ الله ـ تعالىٰ ـ عليها حركة التاريخ ونظام الأفراد والأمم والجماعات؛ لأن هذه السُّنن نفسَها ستتكرر معنا، فسُنن الله ـ تعالىٰ ـ ثابتة لا تقبل التبديل ولا التحويل، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[3]، ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ

---

(١) «**نحو علم اجتماع إسلامي**»، زكي إسماعيل، (٥٥).

(٢) انظر: «**السنن التاريخية في القرآن**»، محمد باقر الصدر، أعاد صياغته محمد جعفر شمس الدين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) (٤٧ـ٤٨).

(٣) سورة النمل: ٦٩.

عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[1]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

ويوضّح عمر عبيد حسنة حقيقة التكليف الإلهي في الأرض بالسير في الأرض، والهدف منه بقوله: «إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تُفضي إلى التبيُّن والتبصُّر، والاهتداء إلى السُّنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنساني، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلى عمر الأمة المسلمة وتجربتها؛ لتحقق بذلك الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين»[3].

من كل ما سبق نرى أن الحيِّز الكبير الذي أعطاه القرآن الكريم لمفهوم السُّنن الإلهية وتوضيحه وضرب الأمثلة عليه، ودعوة الناس لمتابعة دراسته في آفاق الكون وصفحات التاريخ وأحداث الواقع، يوضح وضوحاً لا مزيد عليه مدى الاهتمام الكبير الذي أَوْلاه القرآن الكريم لهذا المفهوم، ويُلقي علينا بالتالي مسؤولية الاهتمام به، والإقبال على دراسته، كما يُلقي علينا بالضرورة تَبِعَة التقصير في الأخذ به، وعدم الاستفادة من مقتضياته وثمراته.

المبحث الثاني
بيان أساليب القرآن الكريم في عرض السُّنن الإلهية

قبل الحديث عن أساليب القرآن الكريم في عرض السُّنن الإلهية، تجب الإشارة إلى أن السُّنن التاريخية؛ أي: السُّنن العاملة في ميدان المجتمعات

---

(١) سورة محمد: ١٠.
(٢) سورة يوسف: ١٠٩.
(٣) «الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء»، عمر عبيد حسنة، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، (٨٥).

البشرية، والكاشفة عن قوانين تكوينها ونهوضها وسقوطها، تحتل النصيب الأكبر من اهتمام القرآن الكريم بالسُّنن الإلهية، والدليل على ذلك، أننا إذا استعرضنا كل الآيات القرآنية التي وردت في سياقها كلمة «سُنّة»، وجدنا أن هذه الآيات تتكلم حصراً عن قوانين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الأقوام السابقين[1].

ونلاحظ أيضاً أن القرآن الكريم ينسب ويضيف كلمة «السُنّة» في معظم الحالات إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه باعتباره ـ جلَّ وعَلا ـ هو الفاعل الحقيقي، والواضع الوحيد لهذه السُّنن إرادة وعلماً وخلقاً، وقد ينسبها ويضيفها في بعض الحالات الأخرىٰ إلى الأنبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ، وإلى أقوامهم، وذلك بالنظر إلى أن أحوالهم وأعمالهم هي الميدان الذي تتحكم فيه، وتجري عليه سنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهي المسرح الرئيس لظهور نتائجها، ومتابعة آثارها، والتأكد من وجودها وفاعليتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ بالنظر إلى أنهم هم أنفسهم ـ الأنبياء وأقوامهم ـ المنفذون لهذه السنن، والمنفعلون بها والقابلون لحتميتها[2].

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3]، ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4].

نستنتج مما سبق أن استخدامات كلمة «السُّنَّة» في القرآن الكريم تتعلق حصراً بالمجتمعات والحضارة، وهذا لا يعني بالضرورة ـ كما أشرنا سابقاً ـ عدم إشارة القرآن الكريم إلى سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في كل الميادين الأُخرىٰ،

---

(١) انظر: «**سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول**»، أحمد حسن فرحات، في مجلة كلية الدراسات الإسلامية، دبي، (٨/ ١٤١٥هـ)، (١١٣).

(٢) انظر: «**النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ**»، محمد تقي مصباح اليزدي.

(٣) سورة الفتح: ٢٢ـ ٢٣.

(٤) سورة الحجر: ١٢ـ ١٣.

بل يعكس فقط مدى اهتمام القرآن الكريم البالغ بتصويب حركة المجتمع الإسلامي، وحمايته من عِلَل سقوط وانهيار الأمم السابقة، وفي الوقت نفسه دفع هذا المجتمع إلى مركز الصدارة الحضارية، وهذا الهدف ينسجم بشكل كامل مع رسالة القرآن الكريم التي ترتكز على الهداية والتغيير نحو الأقوم.

ـ الأساليب القرآنية في عرض السُّنن الإلهية:

وردت إشارة القرآن الكريم إلى موضوع السُّنن الإلهية ضمن أساليب متنوعة، وقد جاء هذا التنوع ليضمن استيعاب المسلمين للسُّنن الإلهية وحسن استفادتهم منها، فمرة يذكر القرآن الكريم هذه السُّنن بشكل مباشر وصريح؛ لكي يلفت نظرنا إلى وجود هذه السُّنن في الوجود أصلاً، ومرة يشير إلى بعض القوانين المجسدة لها، ومرة يذكر لنا بأسلوب قصصي مشوق بعض الأمثلة والشواهد المؤكدة لوجود هذه السنن والشاهدة على فاعليتها في المجتمعات، وذلك على النحو التالي:

١ـ أسلوب الإشارة المباشر إلى السنن الإلهية بشكل كلي:

يستخدم القرآن الكريم ـ في بعض الأحيان ـ الأسلوب المباشر؛ أي: يذكر بشكل واضح ومباشر: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سُنناً عاملة في ميدان المجتمعات البشرية، ويستخدم من أجل ذلك كلمة «سنة الله» بشكل صريح[1]، من ذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

---

(١) انظر: «السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية»، عبد الكرم زيدان.

(٢) سورة النساء: ٢٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٧.

٢ـ أسلوب صياغة وإبراز بعض السنن الإلهية:

يُبرز القرآن الكريم بعضَ السُّنن الإلهية الاجتماعية الضرورية، والتي يتوقف مصير المجتمعات على مدى إدراكها، وحُسْن التعامل معها، وذلك كيلا يتخبط الناس في إدراكها، ويعانوا من آثار غياب معرفتها، الأمر الذي سوف يؤدي إلى حدوث الخلل الكبير في مجتمعاتهم، ويعصف بها إلى الهاوية.

وأسلوب القرآن الرئيس في عرض هذه السنن هو أسلوب القضية الشرطية؛ أي: الربط بين وضعين أو حادثتين أو مجموعتين من الأوصاف والحوادث ربطاً تلازمياً مطرداً على أساس أن أحدهما شرط أو سبب لحدوث الآخر، والآخر نتيجة مترتّبة على حدوث الأول.

وبهذه الطريقة يُبرز القرآن الكريم العلاقة الجدلية والارتباط السببي القائم بين سلوك اجتماعي معين، وبين نتائجه على الحياة الاجتماعية[١]، وبذلك يلفت نظر الإنسان إلى إمكانية التحكُّم في هذه السنن، فمن أراد واستهدف نتيجةً ما، فما عليه إلا أن يعمل على تحقيق الأوصاف والأسباب المؤدية إليها[٢].

من هذه السُّنن:

ـ سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في التلازم بين التقوىٰ والاستقامة والاستمساك بأحكام الدين، وبين سعة الرزق والوفرة الاقتصادية، يقول الله ـ تعالىٰ ـ:

---

(١) انظر: «**المجتمع والتاريخ**»، مرتضى المطهري، بيروت، دار المرتضىٰ، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، (٣٤٩ـ٣٥٢)، وانظر: «**السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**» عبد الكريم زيدان، (١٦)، و«**منهج البحث الاجتماعي**»، محمد امزيان، (٢٨٦ـ٢٨٩).

(٢) انظر: «**السنن التاريخية في القرآن**»، محمد باقر الصدر.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1]، ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[2].

ـ سنة الله ـ تعالىٰ ـ في التلازم بين الظلم وبين هلاك الأمم[3]:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[4]، ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ . . . ﴾[5]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[6].

ـ سنة الله ـ تعالىٰ ـ في التلازم بين هلاك الأمة، وبين إعراضها عن الدين والإيمان:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[7]، ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[8].

وقد يشير القرآن الكريم إلى بعض السُّنن الإلهية ضمن سياق الآيات التشريعية التي قد تحمل بالإضافة إلى مدلولها التشريعي إشارةً إلى سُنّة وقانون من قوانين الله ـ تعالىٰ ـ في المجتمعات، مثل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَلَكُمْ فِى

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة الجن: ١٦، وانظر: «**سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**»، محمد الصادق عرجون، جدة، منشورات العصر الحديث، (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، (٤٣).

(٣) انظر: «**سنن الله في المجتمع**»، محمد الصادق عرجون (٤٠).

(٤) سورة الكهف: ٥٩.

(٥) سورة يونس: ١٣.

(٦) سورة هود: ١٠٢.

(٧) سورة الطلاق: ٨ ـ ٩.

(٨) سورة الأنفال: ٥٢.

﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، فهذه الآية الكريمة ـ وإنْ كانت تعبِّر عن حكم شرعي، وهو إيجاب القصاص ـ فهي تعبِّر أيضاً عن قانون اجتماعي يبيّن العلاقة الجدلية الموجودة بين حكم القصاص، وبين استقرار واستمرار المجتمع الذي يأخذ بهذا الحكم[2].

٣ـ أسلوب ذكر أمثلة وشواهد تاريخية على السنن الإلهية:

يُكثِر القرآن الكريم من ذكر القصص القرآني المليء بالشواهد والوقائع التاريخية التي تحققت فيها سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في خلقه، كي تكون هذه الشواهد بمثابة الدليل القاطع على مصداقية السُّنن التي أشار القرآن الكريم إلى وجودها، وإلىٰ عدد من قوانينها[3]، من هذه الشواهد، قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾[4].

من خلال كل ما سبق نلاحظ كيف رسَّخ القرآن الكريم في أذهان المسلمين مفهوم السُّنن من خلال ربط هذا المفهوم ببعض القوانين المجسِّدة له من جهة، وبعض الشواهد التاريخية المحقِّقة له من جهة أخرى، وفي هذا ضمانٌ كبيرٌ لتعميق مفهوم السُّنن في عقول المسلمين، وضمان لاستيعابه، وعونٌ لهم على متابعة البحث فيه.

---

(١) سورة البقرة: ١٧٩.

(٢) انظر: «**منهج البحث الاجتماعي**»، محمد امزيان (٢٩٤).

(٣) انظر: «**الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية**» عمر عبيد حسنة، بيروت، المكتب الإسلامي (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، (١٤٨ـ١٥٢).

(٤) سورة الحاقة: ٤ـ١٠.

المبحث الثالث

نموذج تطبيقي من السُّنن الإلهية في القرآن الكريم

(سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في الترف)

بعد أن تكلمت في المبحثين السابقين على مدى اهتمام القرآن الكريم بالسنن الإلهية، وعلى أساليبه المستخدمة في عرضها، أجد من الضروري الآن أن أتكلم بصورة مفصلة على نموذج واحد من هذه السنن، وقد اخترت لهذا الغرض التعريف بسنة الله ـ تعالىٰ ـ في الترف، وذلك لأن القرآن الكريم قَدْ أولىٰ ظاهرة الترف وما يلزم عنها من ظواهر أخرىٰ مثل: الطغيان والإسراف وبطر النعم عناية بالغة، وذكر بتفصيل واضح مواقف المترفين من دعوات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وحدَّدَ بدقة مصير المترفين والآثار المدمرة الناتجة عن انتشار هذه الآفة، وشيوعها في المجتمعات الإنسانية.

والأمر الذي أكّد اختياري دراسة هذه السُّنّة هو واقع المجتمعات الإسلامية الحالية التي تعاني من وطأة انتشار ظاهرة الترف، وبروز طبقة من المترفين بشكل مريع ومخيف في أوساطها، الأمر الذي ينذر بأسوأ العواقب والنتائج، إذا لم يُسرع المسلمون ويحاولوا الحدَّ من انتشارها بالوسائل المشروعة، ولا يخفى أنه من بين هذه الوسائل، زياد وعي عامة المسلمين، وتحذيرهم وتذكيرهم بقانون الله ـ تعالىٰ ـ وسُنته الجارية في المجتمعات التي تَعمُّ فيها هذه الظاهرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

ـ تعريف الترف:

هو التوسّع في النِّعم، والإكثار من الشهوات والملذات، حتى يصل الأمر بالمترَف إلى الإسراف والبطر والطغيان[2].

---

(١) سورة قٓ: ٣٧.

(٢) انظر: «**مفردات ألفاظ القرآن**» الراغب الأصفهاني (١٦٦)، و«**لسان العرب**»، ابن =

ـ **بعض الحقائق القرآنية عن المترفين :**

أورد القرآن الكريم بعض الحقائق الكاشفة عن صفات المترفين وسماتهم وأسلوبهم في الحياة، وهدفهم فيها، وطريقة تفكيرهم، ونفسيتهم، من هذه الحقائق النقاط التالية :

١ ـ **الترف يؤدي إلى الطغيان :** يقول الله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[1] .

تفيد هذه الآية الكريمة بأن الإنسان إذا رأى نفسه قد أصبح ثرياً مترفاً غير محتاج إلى أحد، فإن هذا الأمر يدفعه إلى الطغيان، وتجاوز الحدود المرسومة له .

يقول ابن كثير[2] (ت٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) : «يُخبر ـ تعالى ـ عن الإنسان أنه ذو فَرَح وأَشَرٍ وَبَطَرٍ[3] وطغيانٍ إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله»[4] .

= منظور (٩/ ١٧)، و«**أساس البلاغة**» للزمخشري (٤٢).

(١) سورة العلق : ٦ـ٧ .

(٢) ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) : هو إسماعيل بن عمر بن كثير، ولد في بُصرى الشام، وتوفي في دمشق، من كبار المفسرين والمؤرخين، من كتبه : «تفسير القرآن العظيم»، المعروف بتفسير ابن كثير، «والبداية والنهاية في التأريخ» انظر : «**معجم المفسرين**»، عادل نويهض (١/ ٩٢ـ ٩٣) .

(٣) الأُشَر : هو شدة البَطَر والاستكبار، والأشر أبلغ من البطر، وهو مذموم في كل أحواله، والبَطَر : هو دهشة تصيب الإنسان بسبب نعمة كبيرة أصابته، وقلة قيامه بحقوق هذه النعمة، وصرفها إلى غير وجهها، انظر : «**ألفاظ القرآن**» (٧٧ـ ٧٨ـ ١٢٩)، الراغب الأصفاني .

(٤) «**تفسير القرآن العظيم**»، ابن كثير، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، دون تاريخ نشر، (٤/ ٥٢٨) .

٢ـ هدف المترفين في الحياة هو تحصيل الشهوات: يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[١].

كشف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآية الكريمة عن الهدف الأسمى للمترفين في هذه الحياة، وهو اتباع ما أُترفوا فيه، أي: استفراغ كل جهودهم، واستنفاد كامل طاقاتهم في سبيل التمتع بأكبر قدر ممكن بالسلطة واللذات والشهوات التي يرتعون فيها، ويوفّرها لهم ثراؤهم الفاحش، والابتعاد والإعراض في الوقت نفسه عن كل ما يشغلهم عن هذا من الإيمان بالله ـ تعالى ـ وعبادته والقيام بأعمال البر والتقوى التي تعود على مجتمعاتهم بالخير والنفع العام، ولذلك استحقوا من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يصفهم بالإجرام ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م) في تفسيره للآية المذكورة: «أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعُّم والترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، ونبذوه وراء ظهورهم»[٢]

٣ـ تمسكهم بالتقاليد: من مزايا المترفين وأساليب تفكيرهم: اتّباع آبائهم، وتمسكهم بالتقاليد الموروثة، وذلك من أجل الحفاظ على المرجعية، والسلطة الرمزية التي يستمدونها من الأسلاف والآباء التي تضمن لهم استمرار امتلاكهم لثروتهم الفاحشة، وبالتالي تضمن لهم بسط نفوذهم وسيادتهم على من دونهم من الأتباع والفقراء، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن

---

(١) سورة هود: ١١٦.

(٢) «**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**»، الزمخشري، بيروت، دار المعرفة د.ت، (٢/ ٢٩٨).

نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

٤ـ **غرور المترفين**: يعتز المترفون بأموالهم وأولادهم، ويظنون أن هذه الأموال والأولاد منحة من الله ـ تعالىٰ ـ لهم، وعلامة لا تقبل الجدل على رضاه عليهم، وإلا لَما أغدقها عليهم[2]، وقد ردَّ عليهم القرآن الكريم وَهْمَهم هذا بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[3].

يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله ـ تعالىٰ ـ لهم، واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك»[4].

ـ سنة الله في عداوة المترفين للأنبياء والمصلحين:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[5]، يحدِّد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآية الكريمة سُنّة ثابتة من سُننه في المجتمعات، نلحظ ذلك من صيغة الآية: ﴿وما أرسلنا... إلا قال..﴾

---

(١) سورة الزخرف: ٢٣.
(٢) انظر: «**السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**»، عبد الكريم زيدان (١٨٤ـ١٨٥).
(٣) سورة سبأ: ٣٤ـ٣٧.
(٤) «**تفسير القرآن العظيم**»، ابن كثير (٣/ ٥٤٠).
(٥) سورة سبأ: ٣٤.

التي تفيد التكرار المستمر، والاقتران الدائم بين إرسال الرسل، وكفر المترفين بهم.

ومضمون هذه السنة، يعني أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يرسل عبر التاريخ في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية نبياً مصلحاً يدعو أبناء هذا المجتمع إلى عبادة الله الواحد، وإلى نبذ كل ولاء وسلطة إلا له ـ عزَّ وجلَّ ـ، وما ينتج عن ذلك من تغيير شامل وجذري يتناول القضاء على أسباب ومقوِّمات الفساد والظلم الاجتماعي، ويعيد المساواة والعدالة إلى أبنائه، إلا انبرىٰ وتصدىٰ له أصحاب الثروات والغنىٰ الفاحش، ودعوا الناس إلى نبذ ما جاء به هذا النبي المصلح من التوحيد والتغيير الشامل، والاستمساك بدلاً من ذلك بما كان عليه الآباء والأجداد، وما يفعلون ذلك إلا حفاظاً على مكاسبهم وامتيازاتهم الكبيرة، التي يهددها هذا النبي بدعوته إلى التوحيد والمساواة والعدالة الشاملة بين الجميع[1].

إذاً فالعلاقة بين الأنبياء، وما يمثلونه من دعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، وبين المترفين وما يمثلونه من فساد وظلم واستعباد للناس، علاقة صراع وتناقض وتطارد دائم لا يمكن أن تنتهي إلا بانتصار دعوة الأنبياء وأتباعهم، وبالتالي نجاة المجتمع وسلامته، أو بانتصار المترفين وأنصارهم، وبالتالي هلاك المجتمع بأكمله ودماره[2].

وقد قصَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه الكريم طرفاً من الحجج التي يتذرع بها هؤلاء المترفون في رفضهم، وتصدِّيهم لدعوة الأنبياء والمصلحين بقوله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ:

---

(١) انظر: **«التفسير القرآني للتاريخ»**، راشد البراوي، ط٢، القاهرة، دار النهضة العربية، (١٩٧٦م)، (١٦٦).

(٢) انظر: **«السنن التاريخية في القرآن»**، محمد باقر الصدر، (٥٩ـ ١٢٧).

ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

ـ ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

ومن جهة أخرى يذكر القرآن الكريم لنا مواقف بعض الأنبياء من المترفين، فهذا نب

ي الله موسىٰ يدعو على فِرعون وحاشيته لطغيانهم بأموالهم:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[3].

من كل ما سبق نجد أن القرآن الكريم قد قَرَن بين الترف وطغيان المال، وبين الشرك والضلال، وكأن الطغيان المالي هو الوجه الاجتماعي للضلال العقائدي والديني[4].

---

(١) سورة الزخرف: ٢٣ـ ٢٥.

(٢) سورة المؤمنون: ٣٣ـ ٣٨.

(٣) سورة يونس: ٨٨.

(٤) انظر: «**ابن خلدون إسلامياً**» عماد الدين خليل، ط٢، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٥هـ/ ١٩٨٥م)، (٦٠ـ ٦٢).

ـ سنة الله ـ تعالىٰ ـ: في عاقبة الترف:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

تشير هذه الآية الكريمة إلى سنة من سُنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هلاك المجتمعات، عندما ربطت بين عصيان وفسوق المترفين فيها، وبين هلاك عموم المجتمع ودماره، وجعلت فساد المترفين وانحرافهم شرطاً موضوعياً وسبباً كافياً لانحلال المجتمع وضياعه، وذلك لأن الترف يحمل أصحابه على الفسق وترك الامتثال لأوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهذا بدوره يجلب الخراب والدمار ليس للمترفين فقط، بل للمجتمع بأكمله الذي يعيش فيه هؤلاء المترفون، وهذا الأمر نستطيع ملاحظته بسهولة في الواقع المعاش، فإن الأغنياء والمترفين عندما يعرضون عن أداء حقوق الله ـ تعالىٰ ـ التي أوجبها عليهم، ومن جملتها حقوق المجتمع الذي يعيشون فيه، بسبب انشغالهم بتحصيل شهواتهم وتكثير مكاسبهم وامتيازاتهم، فإن آفات الظلم والفاقة والفقر ستعمُّ المجتمع، وتتغلغل في أعماقه، وكل هذا سيؤدي إلى انتشار فساد الذمم والضمائر، وإلى ذيوع الحقد والتباغض بين الناس؛ مما يؤدي ـ لا محالة ـ إلى انفصام عُرا الجماعة، وانتقاض أركان المجتمع وانهياره بسبب ثورة يقوم بها المحرومون، أو بسبب اعتداء خارجي يتعرض له المجتمع، ولا يقوى على صده؛ لأنه لا يمكن أن يرصَّ صفوف أبنائه المتباغضين للدفاع عنه، أو غير ذلك من الأسباب[2].

---

(١) سورة الإسراء: ١٦.

(٢) انظر: «**ابن خلدون إسلامياً**» عماد الدين خليل، (٥٨ـ ٦٠)، وانظر: «**المجتمع الإنساني في ظل القرآن الكريم**»، محمد التومي، (١٠٥)، وانظر أيضاً: «**السنن التاريخية في القرآن**» محمد باقر الصدر، (٨٥ـ٨٦).

ويمكن أن نعُدَّ انهيار الإمبراطورية الرومانية بسبب شيوع الترف ومظاهر البذخ فيها من أكبر الشواهد التاريخية المصدِّقة لسُنة الله ـ تعالىٰ ـ في هلاك المجتمعات والأمم بسبب انتشار الترف فيها[1]، وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

المبحث الرابع
نماذج من أحاديث رسول الله ﷺ السُّننية

من المهمات الرئيسة التي اضطلعت بها السُّنّة النبويّة، مهمةُ تأكيد معاني القرآن الكريم وشرحها وتفصيلها، وضرب الأمثلة عليها، وذكر الشواهد والوقائع المحقِّقة لمضامينها، وذلك من أجل ضمان التواصل الفعّال بين المسلمين، وبين قرآنهم الخالد، وحُسن استيعابهم لمقاصده العامة، والوقوف على تفصيلاته الجزئية من جهة، ولتسديد وتصويب جهود المسلمين في سبيل تنزيل معاني القرآن الكريم على واقعهم ومعاشهم من أجل الدفع بهما نحو الأقوم والأرشد في كل شيء من جهة أخرىٰ.

ولذلك كان من الطبيعي أن نجد بين أحاديث رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ طائفة كبيرة من الأقوال التي أشار فيها رسول الله ﷺ إلى سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في ميدان المجتمعات البشرية، وذلك عبر صياغات أقرب ما تكون إلى صياغة المعادلات الرياضية، أو القوانين الاجتماعية الحديثة، إذ نجد أنَّ رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث يربط بشكل واضح ومُحكم بين ظاهرتين اجتماعيتين يجعل من إحداهما شرطاً ومقدمة، ومن الأخرى جزاء

---

(١) انظر: «**التفسير الديني للتاريخ**»، محمود الشرقاوي (٢٣٥٨).

(٢) سورة القصص: ٥٨.

ونتيجة، ويُبرز نوعاً من العلاقة السببية بين سلوك اجتماعي معين، وبين نتائجه على الحياة الاجتماعية[1].

وبهذا يكون رسول الله ﷺ قد قام بواجبه في توضيح قضية كبرىٰ من قضايا القرآن الكريم، وقدّم لعلماء المسلمين من بعده النموذج المحتذىٰ في الجد والاجتهاد بحثاً عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في المجتمع والتاريخ التي لا غنىٰ عن فهمها واستيعابها؛ لتمكين الأمة الإسلامية من البقاء على مسرح التاريخ فاعلة قائمة بواجبها الحضاري في الشهادة على العالم.

ومن الأحاديث النبوية التي يمكن أن نسميها أحاديث سُننية، أذكر النماذج التالية، يقول رسول الله ﷺ:

ـ «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أَوْشَك أن يُعُمَّهم اللهُ بعقابٍ منه»[2].

ـ «اتقوا الظلم فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحَّ، فإنَّ الشحَّ أَهْلَكَ مَنْ كان قبلكم، حَمَلهم على أنْ سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمَهم»[3].

ـ «ما ضلَّ قومٌ بعد هدًى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»[4].

---

(١) انظر: «**منهج البحث العلمي**» محمد امزيان (٢٨٩).

(٢) رواه الترمذي، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الفتن (٣٤)، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يُغيَّر المنكر (٨)، رقم (٢١٦٨)، (٤/ ٤٦٧ـ ٤٦٨). وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. ورواه ابن جاجه، «**السُّنن**»، كتاب الفتن (٣٦)، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٠)، رقم (٤٠٠٥)، (٢/ ١٣٢٧).

(٣) رواه مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ/ ٨٧٥)، «**الجامع الصحيح**»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (١٩٧٢م)، كتاب البر والصلة والآداب (٤٥)، باب تحريم الظلم (١٥)، رقم (٢٥٧٨)، (٤/ ١٩٩٦م).

(٤) رواه الترمذي، «**الجامع الصحيح**»، كتاب تفسير القرآن (٤٨)، باب من سورة =

ـ «ما ظهر الغُلول في قومٍ قطّ، إلا أُلقي في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قومٍ قطّ إلا كَثُرَ فيهم الموتُ، ولا نقص قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا قُطِعَ عنهم الرزق، ولا حكم قومٌ بغير الحق إلا فشا فيهم الدّمُ، ولا خَتَرَ قومٌ بالعهدِ إلا سلَّط اللهُ عليهم العدوَّ»[1].

ـ وسألت السيدة زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ رسولَ الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخَبَثُ»[2].

وقال رسول الله ﷺ:

ـ «أَيُّها الناسُ! إنماأَهْلَكَ الذين مِنْ قبلكم، أنَّهم كانوا إذ سرقَ فيهم الشَّريفُ تركوه، وإذا سرقَ فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليهِ الحَدَّ»[3].

= الزخرف (٤٥)، رقم (٣٢٥٣)، (٥/ ٣٧٨ـ ٣٧٩). والجدل هو المراء والعناد والخصومة بالباطل. ورواه ابن ماجه، **«السنن»**، المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل (٧)، رقم (٤٨)، (١/ ١٩).

(١) رواه مالك، **«الموطأ»**، كتاب الجهاد (٢١)، باب ما جاء في الغُلول (١٣) رقم (٢٦)، (٢/ ٤٦٠)، والغُلول: الخيانة في الغنيمة، وخَتَرَ؛ أي: غَدَرَ، والخَتْرُ: أقبح الغدر.

(٢) رواه البخاري، **«الجامع الصحيح»**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، ضبط وتعليق مصطفى ديب البُغا، دمشق، دار القلم، (١٤١هـ/ ١٩٨١م)، كتاب الأنبياء (٦٤)، باب قصة يأجوج ومأجوج (١٠)، رقم (٣١٦٨)، (٣/ ١٢٢١). ورواه مسلم، **«الجامع الصحيح»**، كتاب الفتن وأشراط الساعة (٥٢)، باب اقتراب الفتن وفتح رَدْم يأجوج ومأجوج (١)، رقم (٢٨٨٠)، (٤/ ٢٢٠٧). والخَبَث: هو الفسوق والفجور والمعاصي، وقيل: فشو الزنا بخاصة.

(٣) رواه البخاري، **«الجامع الصحيح»**، كتاب الحدود (٨٩)، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع(١١)، رقم (٦٤٠٥)، (٦/ ٢٤٩١). ورواه مسلم، **«الجامع الصحيح»**، كتاب الحدود (٢٩)، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود (٢)، رقم (١٦٨٨)، (٣/ ١٣١٥).

ـ «لا تَخْتَلِفوا، فإنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكم اختلفوا فَهَلَكوا»[1].

ـ «إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظرِ السَّاعَةَ»، قيل: كيف إضاعتُها يا رسول الله؟ قال: «إذا أُسْنِدَ الأَمْرُ إلى غَيْرِ أهلِهِ فانْتظرِ السَّاعةَ»[2].

ـ «ما من قوم يُعمَلُ فيهم بالمعاصي يَقْدرون أن يُغيِّروا عليهم، ولا يُغيِّروا، إلا أصابهم اللهُ بعقابٍ قبلَ أن يموتوا»[3].



(١) رواه البخاري، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الخصومات (٤٩)، باب: مايُذكر في الإشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (١)، رقم (٢٢٧٩)، (٢/ ٨٤٩).

(٢) رواه البخاري، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الرقاق (٨٤)، باب رفع الأمانة (٣٥)، رقم (٦١٣١)، (٥/ ٢٣٨٢).

(٣) رواه ابن حبَّان، «**صحيح ابن حبّان**»، أبو حاتم محمد بن حبّان البُستي، (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، تحقيق شُعَيْب الأرنؤوط، حسين أسد، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم (٣٠٠)، (١/ ٤٥٨). واللفظ له. ورواه أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م)، «**السُّنن**»، إعداد وتعليق عزت عبيد الدّعاس، وعادل السيد، حمص، دار الحديث، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، كتاب الملاحم، (٣١)، باب الأمر والنهي (٧١)، رقم (٤٣٣٩)، (٤/ ٥١٠ـ٥١١).

الفصل الثاني

السُّنن الإلهية عند
بعض علماء المسلمين

سنحاول في هذا الفصل التعرّف ـ ولو بشكل موجز ـ إلى مدى حضور مفهوم السُّنن الإلهية في تاريخ الفكر الإسلامي، وسنحاول الإشارة إلى الإسهامات النظرية والتطبيقية التي قدّمها بعض مفكري الإسلام في ميدان توضيح وبلورة هذا المفهوم، وسوف نلاحظ من خلال مباحث هذا الفصل أنّ الاهتمام بهذا المفهوم، والحرص على دراسته والدعوة إليه، كان يرتبط ارتباطاً واضحاً بتيارات وأعلام الإصلاح والتجديد الفكري والحضاري عبر التاريخ الإسلامي، وأنّ فترات الجمود الفكري والحضاري في هذا التاريخ كادت تخلو من علامات الاهتمام بدراسة هذا المفهوم والعمل به.

المبحث الأول
مدى حضور السُّنن الإلهية في الفكر الإسلامي

من أجل معرفة مدى حضور السُّنن الإلهية على المستوى النظري والتطبيقي في تاريخ الفكر الإسلامي، يجب تسجيل الملاحظات التالية:

١ـ عدم حضور مفهوم السُّنن الإلهية في تاريخ الفكر الإسلامي بشكل محدّد ومُبلور بشكل منهجي دقيق، ما عدا بعض الإشارات الفكرية عند عدد محدد جداً من علماء الإسلام من بينهم ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨) ـ رحمه الله تعالىٰ ـ.

٢ـ يمكننا ملاحظة ومتابعة عدد كبير من الجهود الفكرية التي بذلها عدد كبير من مفكري الإسلام، وفي مختلف المجالات، في سبيل الكشف عن سُنن الله ـ تعالى ـ العاملة في الكون والأنفس والمجتمعات، ولكن دون ربط هذه الجهود القيّمة بشكل مباشر وواضح بمفهوم السُّنن الإلهية باستثناء ـ حسب علمي ـ اكتشافات ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) في مجال العمران البشري التي حرص على ربطها بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق.

ويمكن أن نذكر من بين علماء الإسلام الذين قدّموا إسهامات بارزة في سبيل البحث عن قوانين الله ـ تعالىٰ ـ، وسنُنه الكونية، والتاريخية، في كافة المجالات، الأسماء التالية: الحسن بن الهيثم[١] (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، وجابر بن حيان[٢] (ت٢٠٠هـ/ ٨١٥م)، والخوارزمي[٣] (ت٢٣٥هـ/ ٨٥٠م) في مجال الطبيعة والكون.

---

(١) الحسن بن الهيثم (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م) هو محمد بن الحسن بن الهيثم، ولد بالبصرة، وتوفي في القاهرة، من علماء الهندسة والطبيعة والفلك، من كتبه: «علم المناظر في البصريات»، «مقالة في الضوء»، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي، (٦/ ٨٣ـ ٨٤).

(٢) جابر بن حيان (ت٢٠٠هـ/ ٨١٥م) هو جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، فيلسوف وكيميائي، من أهل الكوفة، توفي في طوس، من كتبه: «أسرار الكيمياء»، «علم الهيئة»، «أصول الكيمياء». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي، (٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٣) الخوارزمي (ت٢٣٥هـ/ ٨٥٠م) هو محمد بن موسى الخوارزمي، من أهل خوارزم، رياضي فلكي ومؤرخ جغرافي، من كتبه: «الجبر والمقابلة»، «صورة الأرض من المدن والجبال»، «وصف إفريقية». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي، (٧/ ١١٦).

والمسعودي[1] (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، والبيروني[2] (ت٤٤٠هـ/ ١٣٧٧م)، والإدريسي[3] (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، وابن بطوطة[4] (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) في مجال التاريخ والجغرافية والرحلات.

والماوردي[5] (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، ومسكويه[6] (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)،

---

(١) المسعودي (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) هو علي بن الحسن بن علي المسعودي، ولد ببغداد، وتوفي بالقاهرة، مؤرخ وجغرافي، من كتبه: «مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك»، «أخبار الزمان وَمَنْ أباده الحَدَثان من الأمم الماضية والأجيال والممالك الدائرة». انظر: «**معجم مصنفي الكتب العربية في التاريخ والتراجم والجغرافية والرحلات**»، عمر رضا كحالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، (٣٤٣ـ ٣٤٥).

(٢) البيروني (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) هو محمد بن أحمد البيروني، ولد وتوفي في خوارزم، مؤرخ وجغرافي وفلكي ورياضي، من كتبه: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، «تحقق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». انظر: «**معجم مصنفي الكتب العربية**»، عمر رضا كحالة، (٤١٦ـ٤١٧).

(٣) الإدريسي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) هو محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي، ولد في سبتة، مؤرخ وجغرافي ورحالة، من كتبه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، «الجامع لصفات أشتات النبات». انظر: «**معجم مصنفي الكتب العربية**»، عمر رضا كحالة (٥٧١ـ ٥٧٣).

(٤) ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) هو محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي، المعروف بابن بطوطة، ولد في طنجة، وتوفي في مراكش، رحالة ومؤرخ، من كتبه: «تحفة النظّار في غرائب وعجائب الأسفار»، ويُعرف هذا الكتاب برحلة ابن بطوطة. انظر: «**معجم مصنفي الكتب العربية**»، عمر رضا كحالة (٥٢٢).

(٥) الماوردي (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) هو علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ولد بالبصرة، وتوفي في بغداد، أقضىٰ قضاة عصره، من كتبه: «أدب الدنيا والدين»، «الأحكام السلطانية»، «قوانين الوزارة وسياسة الملك»، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي، (٤/ ٣٢٧).

(٦) مسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) هو أحمد بن محمد بن يعقوب، الملقب بمسكويه، =

وابن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، والغزالي[١] (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م)، وابن تيمية (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) في مجالات الفكر الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والتربوي[٢].

٣ـ نلاحظ أنه بعد وفاة ابن خلدون تقريباً؛ أي: في بداية القرن التاسع الهجري، دخل الفكر الإسلامي المستكشِف والباحث عن السنن الإلهية، ولو بشكل غير مباشر، مرحلة الركود والجمود؛ لأسباب كثيرة، ولذلك أصبح العثور على إسهامات علمية جادة في ميدان السنن الإلهية نادراً، وإن لم يكن معدوماً.

٤ـ شهدت بدايات العصر الحديث، انطلاق محاولات جديدة عند بعض علماء المسلمين لاستئناف النظر والدعوة إلى دراسة السنن الإلهية، وقد حمل لواء هذه الانطلاقة جمال الدين الأفغاني[٣] (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، ومحمد

= ولد في الريّ، وتوفي في أصفهان، مؤرخ وفيلسوف، من كتبه: «تجارب الأمم وتعاقب الهمم»، «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، «الحكمة الخالدة»، انظر: **«معجم مصنفي الكتب العربية»**، عمر رضا كحالة (٧٨ـ٧٩).

(١) **الغزالي** (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ولد وتوفي في طوس في خراسان، حجة الإسلام، فقيه وأصولي وفيلسوف، من كتبه: «إحياء علوم الدين»، «المنقذ من الضلال»، «تهافت الفلاسفة». انظر: **«الأعلام»**، خير الدين الزركلي (٧/ ٢٢ـ ٢٣).

(٢) انظر: **«الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي»**، زكي محمد إسماعيل، جدة، مكتبات عكاظ، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٢م)، (٣١ـ ٥٤)، و**«منهج البحث الاجتماعي»**، محمد امزيان(٤٥٥ت ٤٥٨)، و**«كيف نتعامل مع القرآن في مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة»**، محمد الغزالي، ط٤، المنصورة ـ مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، (١٦٩).

(٣) الأفغاني (ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) هو محمد بن صفدر الحُسيني، جمال الدين، ولد في أسعد آباد في أفغانستان، وتوفي في الآستانة، من رجال الإصلاح في العصر =

عبده[1] (ت ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) من خلال مجلتهما «**العروة الوثقىٰ**»، وبشكل خاص كتابات محمد عبده الذي حمل العبء الأكبر في الدعوة إلى دراسة السُّنن الإلهية، وبيان مدىٰ الحاجة إليها لإنجاز نهضة المسلمين المرجوّة في العصر الحديث، وكان من الطبيعي أن يحمل رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، وهو أهم تلاميذ محمد عبده من بعده راية الدعوة إلى دراسة السُّنن الإلهية، وإبراز أهميتها وضرورتها القصوىٰ للمسلمين، بل قام بأكثر من ذلك عندما قام بعرض نماذج كثيرة من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في جميع المجالات، وخاصة في مجال المجتمعات والأمم من خلال كتبه العديدة، والتي يقف على رأسها «**تفسير المنار**».

المبحث الثاني
السُّنن الإلهية عند ابن حزم

ـ لمحة عن حياته ومؤلفاته:

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أبو محمد، وُلدَ في قرطبة عام (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، في بيت جاه وسلطان؛ حيث كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر الحاجب[2] (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م)، لكنه مالبث أن تعرَّض هو وأسرته

= الحديث، من كتبه: «تاريخ الأفغان»، «رسالة في الرد على الدهريين». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ١٦٨ـ١٦٩).

(١) سأفرد ترجمة مفصلة لمحمد عبده في المبحث المخصص له في هذا الفصل.

(٢) المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) هو محمد بن عبد الله بن عامر المعروف بالمنصور بن أبي عامر، أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، دامت إمرته ستة وعشرين عاماً، غزا فيها بلاد الإفرنج مرات عديدة لم يُهزم فيها. انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ٢٢٦).

للاضطهاد والفتنة نتيجة التقلبات السياسية التي عرفتها بلاد الأندلس في عصر دول الطوائف.

يُعد ابن حزم عالم الأندلس وفقيهها الأكبر في زمانه، «فقد كان ابن حزم أجمعَ أهلِ الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام»[1]، وهو من أتباع المذهب الظاهري، وإمامه في أيامه، وهذا المذهب يقبل كلَّ ما نصَّ عليه القرآن الكريم، أو وَرَدَ في الأحاديث الصحيحة الثابتة على ظاهر معناه، إلا أن يكون هناك ضرورة من عقلٍ أو حسٍّ تدعو إلى صرف المعنى عن ظاهره والعمل بالتأويل على مقتضى البلاغة العربية.

وقد تبحّر ابن حزم ـ بالإضافة إلى علوم الشريعة ـ في علوم اللغة والأدب والتاريخ والأديان والمنطق والأخلاق، وقد ترك في كل هذه العلوم مؤلفات تشهد على علو كعبه فيها، وغزارة علمه، وقد أتىٰ فيها باجتهادات علمية رصينة، خلَّدت اسمه على مر الأيام.

ومن أهم مؤلفات ابن حزم: **«المحلّى بالآثار في شرح المجلّىٰ»**، **«الإحكام في أصول الأحكام»**، **«الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»**، **«التقريب لحد المنطق»**، **«طوق الحمامة في الأُلفة والأُلاّف»**، **«رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق»**، **«نَقْطُ العروس في تواريخ الخلفاء»**، **«جوامع السيرة»**، **«حجة الوداع»**، وغيرها.

وقد توفي ابن حزم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ معتكفاً في بلدته «لَبْلَة» من بلاد الأندلس، سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)[2].

---

(١) **«سير أعلام النبلاء»**، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، (١٨/ ١٨٧).

(٢) انظر: **«سير أعلام النبلاء»**، الذهبي، (١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢)، و**«الأعلام»**، خير الدين=

وقد أشاد رشيد رضا بالإمام ابن حزم بقوله: «وقد فَضُلت الأندلس الشرق بعد خير القرون بإمامٍ جليل، قوي العارضة، شديد المعارضة، بليغ العبارة، بالغ الحجّة، أَلا وهو الإمام المحدِّث الفقيه الأصولي مجدِّد القرن الخامس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وقد كان أكابر العلماء في كل عصر يستفيدون من كتبه، وينسخونها بأقلامهم، ويتنافسون فيها»[1].

ـ التصور السُّنني عند ابن حزم:

في الحقيقة إننا لا نجد في تراث ابن حزم ـ حسب علمي ـ أيَّ إشارة مباشرة وصريحة إلى مفهوم السُّنن الإلهية، ولا نعرف له أيَّ مساهمة نظرية في بلورة وتأصيل هذا المفهوم القرآني، ولكننا ـ على الرغم من ذلك ـ لا يمكننا إلا أن نعدَّ ابن حزم من كبار المفكرين المسلمين الذين قدّموا مساهمة كبيرة في سبيل تنبيه العقل الإسلامي إلى الأخذ بمضمون السُّنن الإلهية، وذلك من خلال إلحاحه وتأكيده على القول بالطبائع وإثبات العلّية في الكون؛ أي: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل لكل مخلوق في الكون طبيعةً تتحكم بوجوده، ولا يمكن لهذه الطبيعة أن تتغير أو تتحول أو تنقلب إلى طبيعة أخرىٰ، وجعل لكل حادث في الكون سبباً مرتبطاً به ارتباطاً حتمياً لا يقبل الانفصام أو الانفكاك عنه.

يقول ابن حزم: «إنَّ للأشياء طبائع وماهيّة تقف عندها ولا تتجاوزها»[2].

و«إن الباري ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق المعلولات على ما هي عليه من الإتقان

= الزركلي(٤/ ٢٤٥ـ ٢٥٥)، و«ابن حزم» عمر فروخ، بيروت، دار لبنان، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، (٤٨ـ ٦٣).

(١) «**تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**»، محمد رشيد رضا، ط٢، بيروت، دار المعرفة، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، (٧/ ١٤٤).

(٢) «**الفصل في الملل والأهواء والنحل**»، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، بيروت، دار المعرفة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، (١/ ٦). =

والإحكام والثبات باضطراره للعلل التي وجبت المعلولات من أجلها»[1].

وقال في موضع آخر: «وكل هذه الطبائع مخلوقة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فرتَّب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً، ولا يمكن تبديلها عند كل ذي عقل؛ كطبيعة الإنسان بأن يكون مُمَكَّناً له التصرف في العلوم والصناعات إن لم يعترضه آفة، والطبيعة في البُر ألاَّ ينبت شعيراً ولا جوزاً، وهكذا كل ما في العالم»[2].

وبناءً على قول ابن حزم هذا بالطبيعة، والقانون الثابت المطَّرد، فإنه قد أنكر القول بقدرة السحر والسحرة على تغيير حقيقة الأشياء، وطبائعها، وأنكر أيضاً إمكانية وقوع الخوارق والكرامات من قِبَل الصالحين، ولم يقبل بإمكانية حدوث أي تبديل لطبائع الأشياء والمخلوقات إلا على يد الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على سبيل المعجزة لهم من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تصديقاً لهم، وعوناً لهم على تبليغ رسالات ربهم، أما غير ذلك، فقوانين الله ـ تعالىٰ ـ وسُننه في الكون جارية لا تتبدل ولا تتغير[3].

يقول ابن حزم: «ذهب قوم إلى أن السحر قَلْبٌ للأعيان، وإحالة للطبائع، وأنه لا يمكن وجود شيء من ذلك لصالح، ولا لساحر، ولا لأحدٍ غير الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره»[4].

---

(١) «**الرد على الكندي الفيلسوف**»، ابن حزم، ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي»، تحقيق إحسان عباس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٨٣)م، (٤/ ٣٧٤).

(٢) «**الفصل في الملل والأهواء والنحل**»، ابن حزم، (٥/ ١٦).

(٣) انظر: «**ابن حزم الأندلسي: نقد العقل الأصولي**»، شرف الدين عبد الحميد أمين، الكويت، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، (١٩٩٥م)، (٨٤ـ ٨٥). وانظر: «**ظاهرية ابن حزم الأندلسي: نظرية المعرفة ومناهج البحث**»، أنور خالد الزعبي، عمّان، منشورات وزارة الثقافة، (١٩٩٥م)، (٩١ـ ٩٣).

(٤) «**الفصل في الملل والأهواء والنحل**»، ابن حزم، (٥/ ٢).

ولم يقتصر ابن حزم على إثبات فكرة السنن في الكون فقط، بل ذهب ـ ولو بشكل غير مباشر ـ إلى أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قوانين وسُنناً في الأنفس والمجتمعات، فمثلاً نراه في كتابه «**طوق الحمامة**» يردُّ الظواهر إلى بواعثها النفسية، محاولاً في ذلك أن يكشف عن النواميس النفسية التي تسيِّر الإنسان في عواطفه الإنسانية[(١)]، ونراه في كتابه «**مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق**» يبحث من خلال استخدامه كل الأدوات العلمية مثل الملاحظة والمشاهدة والتجربة والأخبار المتواترة في طبائع البشر، عن القوانين المتحكّمة في سلوكهم والمفسِّرة لعلاقاتهم الاجتماعية[(٢)].

ومن آراء ابن حزم العلمية التي يمكن أن نذكرها كأمثلة تعكس مدى استيعابه لمفهوم السُّنن الإلهية، وتوضح ـ ولو بشكل موجز ـ جهوده في إبراز ماستطاع الوصول إليه منها بشكل علمي، ما يلي:

«وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سُفكت الدماء ظلماً، ولا هُتكت الأستار بغير النمائم والكذب»[(٣)].

«لا شيء أضر على السلطان من كثرة المتفرِّغين حواليه، فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه، فإن لم يفعل، شغلوه بما يظلمونه فيه»[(٤)].

---

(١) «**ابن حزم: حياته وعصره ـ آراؤه الفقهية**»، محمد أبو زهرة، القاهرة، دار الفكر العربي، (١٩٩٧م)، (٥٨).

(٢) انظر: «**ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري**»، عبد الحليم عويس، ط٢، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، (٢٨٥ـ ٢٨٦).

(٣) «**طوق الحمامة في الألفة والألاف**»، ابن حزم، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٦٧م)، (١/١٧٦).

(٤) «**رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل**» ابن حزم، ضمن =

«نَشْر العلم عند مَن ليس من أهله مفسِدٌ لهم؛ كإطعامك العسل والحلوى من به احتراق وحُمّىٰ، [و] مَنْ مَالَ بطبعه إلى علم ما، وإن كان أدنىٰ من غيره، فلا يشغله بسواه، فيكون كالغارس النارجيل بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا يُنجب»[1].

«لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه، فما رأينا هذه العملين إلا سبباً للقطيعة، وإن ظن أهل الجهل أنَّ فيهما تأكيداً للصلة، فليس كذلك؛ لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظّ نفسه، والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً، فإذا اجتمع طلب كل امرىءٍ حظ نفسه، وقعت المنازعة، ومع وقوعها فساد المودّة، وأسلمُ المصاهرة مغبّةً مصاهرة الأهلين بعضهم بعضاً؛ لأن القرابة تقتضي الصبر، وإن كرهوه؛ لأنهم مضطرون إلى ما لا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النّسب الذي تُوجب الطبيعة لكل أحد الذبَّ عنه، والحماية له»[2].

المبحث الثالث
السُّنن الإلهية عند ابن تيمية

ـ لمحة عن حياته ومؤلفاته:

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، أبو العباس، تقي الدين، وهو من أسرة علمية توارثت الإمامة في العلم والدين كابراً عن كابر.

ولد ابن تيمية في «حرّان» شمالي «دمشق» سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م)، ثم انتقل آل تيمية إلى دمشق سنة (٦٦٧هـ) بسبب اجتياح التتار لمدينتهم حرّان، وفي دمشق بدأ أحمد بن تيمية مسيرته العلمية على يد والده عبد الحليم

= «رسائل ابن حزم الأندلسي»، م.س، (١/ ٣٥٠).

(١) المصدر السابق (١/ ٣٤٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦٨).

المحدِّث والفقيه الحنبلي، ثم على يد علماء آخرين حتى تمكّن في كافة العلوم الشرعية واللغوية، ونبغ فيها، وقد تصدّى للتعليم والفتوىٰ، وهو في سن العشرين تقريباً.

وقد وصل ابن تيمية بجده واجتهاده وإخلاصه مع مرور الأيام إلى رتبة العلماء المجتهدين، وأصبح من الأئمة المصلحين الذين شغلوا أنفسهم بإصلاح ماأفسد الناس من أمور دينهم وعقائده، وقد أضاف ابن تيمية إلى مهمته الإصلاحية تلك، مهمة أخرىٰ وهي الدفاع عن حياض المجتمع الإسلامي من هجمات التتر البرابرة التي كانت تهدّد بلاد الشام في عصره، وبذلك يمكن القول بأن ابن تيمية كان إماماً مجتهداً ومصلحاً ومجاهداً في الوقت نفسه، لذلك استحق أن يوصف بجدارة بلقب «شيخ الإسلام».

ونتيجةً لاجتهادات ابن تيمية وانتقاداته المستمرة لبعض الفقهاء والمتكلمين والمتصوفة في عصره، تعرَّض للأذى الشديد، وقد سُجن أكثر من مرة في القاهرة والإسكندرية ودمشق، وقد مات ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في قلعة دمشق سجيناً وحيداً سنة (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)(١).

ويمكننا إجمال آراء ابن تيمية ومنهجه الفكري بالكلمات الموجزة التالية: إن المسلمين لا يهلكون بعدو يتسلط عليهم من خارجهم، بل بما يمكن أن تكسبه أيديهم من أسباب الضعف والهلاك، لذلك جنَّدَ نفسه وعِلْمه من أجل جمع كلمة المسلمين، ورصِّ صفوفهم، ودفْعِ عوامل الفرقة والتمزق التي تثير

---

(١) انظر: **«العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية»**، محمد بن أحمد عبد الهادي (ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، تحقيق محمد حامد الفقي، الرياض، مكتبة المؤيد د.ت، (٢ـ ٢٥). وانظر: **«ابن تيمية: حياته وعصره ـ أراؤه الفقهية»**، محمد أبو زهرة، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، (١٩٥٨م)، (١٧ـ ٢٣). وانظر: **«أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله»**، محمد بن إبراهيم الشيباني، الكويت، مكتبة ابن تيمية (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، (٢٣ـ ٢٧).

نار العداوة والبغضاء بينهم، وكان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يعتقد أن سبيل توحيد المسلمين لا يكون إلا بما كان عليه السلف الصالح؛ أي: اتّباع الكتاب والسُّنّة، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن ما يقرره العقل الصريح لا يمكن أبداً أن يخالف ما جاء به النقل الصحيح، وبذلك يتآزر ويتعاضد الوحي المعصوم مع العقل العلمي ـ في نظر ابن تيمية ـ في سبيل توجيه الإنسان إلى ما يحقق سعادته في الدنيا والآخرة[1].

وقد أبرز رشيد رضا مكانة ابن تيمية في تاريخ الفكر الإسلامي بقوله: «لم يجىء بعد الإمام ابن حزم من يُساميه أو يساويه في سعة علمه وقوة حجته وطول باعه وحفظه للسُّنة وقدرته على الاستنباط إلا شيخ الإسلام مجدّد القرن السابع أحمد تقي الدين بن تيمية»[2].

وقد ترك ابن تيمية خلفه ثروة قيّمة من الكتب والرسائل العلمية التي تعكس بشكل واضح معارف عصره، ومدى استيعابه لها من جهةٍ، وتكشف عن شخصيته العلمية الفذّة، والدور التجديدي والإصلاحي الذي قام به من جهة أخرىٰ، ومن هذه المؤلفات نذكر ما يلي: **«اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»**، **«منهاج السنة النبوية»**، **«موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»**، **«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»**، **«الرد على المنطقيين»**، **«السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»**، **«الحسبة في الإسلام»**، **«رفع الملام عن الأئمة الأعلام»**، **«نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان»**[3].

---

(١) انظر: **«خمسة من أعلام الفكر الإسلامي»**، مصطفى عبد الرزاق، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، (١١٨ـ ١٢٠).

(٢) **«تفسير المنار»**، رشيد رضا، (١٤٤).

(٣) انظر: **«العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية»**، محمد عبد الهادي، (٢٦ـ=

ـ التصور السُّنني عند ابن تيمية:

بعد الإنجاز العلمي المهم الذي قام به ابن حزم في سبيل توضيح مفهوم السُّنن الإلهية ـ من خلال قوله بفكرة الطبائع ومبدأ السببية ـ جاء ابن تيمية ليدفع عجلة الاهتمام بالسنن الإلهية نظرياً وتطبيقياً خطوة كبيرة إلى الأمام، فقد قام أولاً بتكريس جهود ابن حزم في إثبات طبائع الأشياء والمخلوقات، والتأكيد على مبدأ السببية[1]،

وذلك عندما أنكر على المتكلّمين (الأشاعرة بالذات) نفيهم للطبائع، واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنّة، وإجماع السلف، فضلاً عن مخالفة العقل والحس[2].

يقول ابن تيمة: «ومن الناس من ينكر القوىٰ والطبائع كما هو قول أبي الحسن[3] [الأشعري]، ومن اتبعه من أصحاب مالك[4]، . . . .

= ٦٧)، وانظر: «**منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري**»، محمد حسني الزين، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، (٧ـ١٢).

(١) انظر: «**الشاكلة الثقافية: مساهمة في إعادة البناء**»، عمر عبيد حسنة، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ٩٩٣م، ١٢٥).

(٢) انظر: «**إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية**»، لؤي صافي، دمشق، دار الفكر، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٢٢٩).

(٣) أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) هو علي بن إسماعيل بن إسحق، أبو الحسن، ولد في البصرة، وتوفي في بغداد، من أئمة علم الكلام المجتهدين، وإليه يُنسب المذهب الأشعري، من كتبه: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، «الإبانة عن أصول الديانة»، «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي، (٤/ ٢٦٣).

(٤) الإمام مالك (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحِميري، أبو عبد الله، مولده ووفاته في المدينة المنورة، إمام المدينة وأحد أئمة المذاهب الفقهية=

والشافعي[1]، وأحمد[2]، وغيرهم، وهؤلاء المنكرون للقوىٰ والطبائع، ينكرون الأسباب أيضاً، ويقولون: إن الله يفعل عندها، لا بها، فيقولون: إن الله لا يُشبِع بالخبز، ولا يَروي بالماء، ولا يُنبت الزرع بالماء، بل يفعل عنده، لا به، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسُّنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح المعقول والحس»[3].

ويظهر دور ابن تيمية المهم في توضيح مفهوم السُّنن الإلهية، في التعريف المنهجي الذي قدّمه لها، والذي استخرجه من تدبره العميق لكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، إذ يوضح فيه ماهية السُّنّة بأنها: حكم الله ـ تعالى ـ في الأمور المماثلة، ويُبرز فيه خصائصها الرئيسة، وهي: الثبات والاطراد وعدم التخلف، يقول ابن تيمية:

«والسنة هي العادة في الأشياء المتماثلة، وهي العادة التي تتضمن أن يُفْعَل في الثاني مثل ما فُعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله بالاعتبار؛ فإنه ـ سبحانه ـ إذا

= الأربعة، أهم كتبه: «الموطأ»، وله أيضاً: «تفسير غريب القرآن»، «رسالة في الرد على القدرية». انظر: **«الأعلام»**، خيرالدين الزركلي، (٥/ ٢٥٧ـ٢٥٨).

(١) الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م) هو محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، ولد في غزة، وتوفي في القاهرة، من كتبه: «الأم» في الفقه، «الرسالة» في علم الأصول، «أحكام القرآن»، انظر: **«الأعلام»**، خير الدين الزركلي (٦/ ٢٦).

(٢) الإمام أحمد (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م) هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، أصله من مرو، ولد وتوفي في بغداد، أشهر كتبه: كتاب «المسند في الحديث الشريف»، وله أيضاً: «الرد على الزنادقة فيما ادّعت به من متشابه القرآن»، «الناسخ والمنسوخ»، انظر: **«الأعلام»**، خيرالدين الزركلي، (١/ ٢٠٣).

(٣) **«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، بيروت مؤسسة الرسالة، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، (٩/ ٢٨٧ـ٢٨٨).

حكم في الأمور المتماثلة بحكم، فإن ذلك لا يُنتقض، ولا يتبدل، ولا يتحول، وإذا وقع تغيير، فذلك لعدم التماثل، وأنه ـ سبحانه ـ يسوّي بين المتماثلين، ويفرّق بين المختلفين؛ كما دلَّ القرآن على هذا في مواضع؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1]، ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطّراد فعله وسننه، لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره»[2].

وقد دعا ابن تيمية في موضع آخر إلى وجوب الأخذ بالسُّنن الإلهية والاعتبار بها، وذلك بقوله بعد أن ذكر آيات الاعتبار في القرآن الكريم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿.. يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[3]:

«فأُمِرنا أن نعتبر بأحوال المتقدّمين علينا من هذه الأمة، ومَنْ قبلها من الأمم، وذَكَر في غير موضع أن سُنته في ذلك سنةٌ مطّردة، وعادةٌ مستمرة، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا سُنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم»[4].

وقد تنبه ابن تيمية إلى مسألة بالغة الأهمية تتعلق بالسُّنن الإلهية وهي: أَن السُّنن لا تعمل بمعزل ومنأى عن الظروف الخارجية والموضوعية المحيطة بها، بل هي تعمل وتمارس عملها في ضوء هذه الظروف، وبمعنىً آخر لا يمكن أن تتحقق السُّنن الإلهية، وتظهر إلى حيِّز الوجود الفعلي إذا لم تتوفر لها كل الظروف والشروط الموضوعية اللازمة لظهورها، وتنتف من أمامها كل العوائق

---

(١) سورة القلم: ٣٥.

(٢) «**جامع الرسائل**»، ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط٢، جدّة، مطبعة المدني، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) (١/ ٥٤ـ ٥٥)، وانظر: «**مجموع الفتاوىٰ**»، ابن تيمية، (١٣ـ ١٦٩).

(٣) سورة الحشر: ٢.

(٤) «**مجموع الفتاوىٰ**»، ابن تيمية، (٢٨/ ٤٢٥) وما بعدها.

والموانع الخارجية المنافية لوجودها، وعلى ضوء هذا الكلام والفهم، يفسِّر ابن تيمية سبب تخلُّف وعدم ظهور بعض السُّنن ـ في حال توقع وجودها ـ على أنه بسب انتفاء أحد شروطها، أو وجود أحد موانعها، وليس بسبب تغيُّر سُنة الله ـ تعالىٰ ـ، أو تبديلها، فسُنن الله ـ تعالىٰ ـ لا تقبل التبديل ولا التحويل[1].

يقول ابن تيمية: «﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[2]، تعم كلَّ سُنةٍ له، وهو يعمّم سُنته في الطبيعيات والدينيات، ولكن الشأن أن تعرف سُنته، وحقيقة أنه إذا نقض العادة، فإنما ذلك لاختصاصٍ، فسُنّته مع عدمه[أي: فسُنة الله ـ تعالى ـ هنا تقتضي عدم ظهور السُّنة المرجوّة لعدم وجود المُقتضي لها، أو وجود المانع لها]، كما نقول: إذا خُصَّت العلة لفوات شرط أو وجود مانع»[3].

ولم يكتف ابن تيمية بالمساهمة النظرية في توضيح مفهوم السُّنن الإلهية، بل تعدّى ذلك إلى المساهمة التطبيقية في استنتاج عدد كبير من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق، نثَرها في مؤلفاته ورسائله العديدة، ومن هذه السُّنن يمكننا ذكر مايلي:

يبيِّن ابن تيمية لماذا شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للمسلمين من الأعمال والأقوال ما يشكّل بالنسبة إليهم هوية خاصة بهم يتميزون بها عمّن سواهم من أبناء الأمم الأخرى، وأتباع الديانات السابقة بقوله: «إنَّ المشاركة في الهدي الظاهر، تُورث تناسباً وتشاكُلاً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال،

---

(١) انظر: **«رؤية في منهجية التغيير»**، عمر عبيد حسنة، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، (٢٠) وانظر: **«الشاكلة الثقافية»**، عمر عبيد حسنة، (١٢٤ـ ١٢٥).

(٢) جزء من قوله تعالىٰ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ سورة الفتح: ٢٣.

(٣) **«جامع الرسائل»**، ابن تيمية، (١/ ٥٤ـ ٥٥).

وهذا أمر محسوس، فإن اللابس لثياب أهل العلم ـ مثلاً ـ يجد من نفسه نوعَ انضمامٍ إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة ـ مثلاً ـ يجد في نفسه تنوع تخلُّق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك، إلا أن يمنعه من ذلك مانع»[1].

ويطلب ابن تيمية من المسلمين اعتياد المخاطبة باللغة العربية، ويعلّل ذلك بقوله: «إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميّزون، واعلم أن اعتياد اللغة، يؤثّر في العقل والخلُق والدّين، تأثيراً قوياً بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذا الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتُهم تزيد العقل والدين والخلق»[2].

وقد أقام ابن تيمية علاقة منطقية طردّية بين سلامة العقيدة، وتقدّم المجتمعات، وبالعكس، فكلما كان التزام المجتمعات بالعقيدة كبيراً، كان حظها من التقدّم والازدهار والاستقرار الحضاري كبيراً، وإذا دخلت الشوائب والانحرافات والبدع إلى هذه العقيدة، فإنّ هذا الأمر سينعكس سلباً على سلامة المجتمع وتماسكه واستقلاله.

يقول ابن تيمية: «فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل، انتقم الله ممن خالف الرسل، وانتصر لهم، فكان الإيمان بالرسل والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة، وبالعكس، البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به الرسل سبب لشر الدنيا والآخرة»[3].

---

(١) «**اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**»، ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ١١. وانظر: «**الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع: الدواعي والإمكانيات**»، منصور المطيري، تقديم عمر عبيد حسنة، الدوحة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، من سلسلة كتاب الأمة، رقم (٣٣، ١٤١٣هـ)، (١٤٧ـ١٤٩).

(٢) «**اقتضاء الصراط المستقيم**»، ابن تيمية (١٠٣ـ١٠٧).

(٣) «**مجموع الفتاوىٰ**»، ابن تيمية (١٣/ ١٧٧ـ١٨٠).

المبحث الرابع

السنن الإلهية عند ابن خلدون

ـ لمحة عن حياته ومؤلفاته:

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس عام (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، في بيت علم ورئاسة، نزح أهله من مدينة إشبيلية في الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري، وقد شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة، كما كانوا رجال علم وأدب، وأما والده، فقد انقطع عن الحياة السياسية، وزهد فيها، وانصرف إلى الدرس والعلم.

بدأ ابن خلدون على يد والده بحفظ القرآن الكريم، وتعلم القرءات والرسم القرآني، ثم انتقل إلى دراسة العلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير، والعلوم اللغوية من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ على أبيه، وعلى بعض علماء تونس، والواردين إليها من الأمصار الإسلامية، ثم انكبَّ على دراسة الحساب وعلم الكلام والمنطق والفلسفة.

انتقل ابن خلدون عام (٧٥٣هـ) إلى فاس هرباً من الطاعون الذي اجتاح تونس في ذلك الوقت، ثم بسبب الظروف والتقلبات السياسية التي عاصرها، تنقَّل بين بجايَّة وتلمسان وبسكرة وغرناطة، ثم عاد إلى تونس بين عامي (٧٨٠ـ ٧٨٤هـ)، وأخيراً استقر به المقام في مصر ابتداءً من سنة (٧٨٤هـ) حتى وفاته ـ رحمه الله عزَّ وجلَّ ـ عام (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).

وقد قام ابن خلدون ـ بالإضافة إلى أعماله ومشاغله السياسية في المدن التي عاش فيها ـ بالتدريس في أرفع المراكز العلمية في تلك المدن، فقد درَّس الحديث الشريف والفقه المالكي في جامع القصبة في بجايَّة، وجامع القرويين

في فاس، والجامع الأزهر، والمدرسة القمحية، والمدرسة الظاهرية البرقوقية في القاهرة، وقد تولىٰ ـ بالإضافة إلى ذلك ـ منصب قاضي قضاة المالكية في مصر ست مرات، كما كان شيخاً (مديراً) لخانقاه بيبرس، وهي من أهم مراكز الصوفية في مصر في ذلك العهد(١).

ولابن خلدون كتب كثيرة منها: «**لُباب المحصِّل في أصول الدين**»، اختصر فيه كتاب فخر الدين الرازي(٢): «**محصِّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء الحكماء والمتكلمين**»، وله كتاب: «**شفاء السائل لتهذيب المسائل**» في التصوف، وقد قام ابن خلدون بتلخيص كتب كثيرة لابن رشد(٣) (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م)، وله كتابان صغيران في الحساب والمنطق، أما كتاب ابن خلدون الذي ظهرت فيه عبقريته الفكرية الفذّة، والذي بوّأه مكانة علمية مرموقة بين مفكري الإسلام، ومفكري العالم أجمع على حدٍّ سواء، فاسمه: كتاب «**العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**»، ومقدمته الشهيرة **بمقدمة ابن خلدون**(٤).

---

(١) انظر: «**ابن خلدون**»، تيسير شيخ الأرض، بيروت، دار الأنوار، (١٩٦٦م)، (٥ـ٢٥)، نقلاً عن كتاب ابن خلدون، «**التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً**»، بيروت، منشورات دار الكتاب اللبناني، د.ت.

(٢) فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ/١٢١٠م)، هو محمد بن عمر بن الحسن، ولد في الرّي، وتوفي في هراة، من أئمة التفسير وعلم الكلام، من كتبه: «مفاتيح الغيب»، وهو في التفسير، «معالم أصول الدين»، «المحصول في علم الأصول». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ٣١٣).

(٣) ابن رشد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، ولد في قرطبة، وتوفي في مراكش، فقيه وفيلسوف، من كتبه: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٥/ ٣١٨).

(٤) انظر: «**مؤلفات ابن خلدون**»، عبد الرحمن بدوي، ط٢، ليبيا ـ تونس، الدار العربية=

- **التصور السُّنَني عند ابن خلدون:**

سار ابن خلدون على الطريق نفسه الذي شقّه قبله ومهّده كل من ابن حزم وابن تيمية، فقد أقرَّ مثلهما بالقول إنَّ لكل شيء في الكون طبيعة خاصة به، تتحكم به من داخله، وأثبت ارتباط الأسباب بالمسبّبات في عالم الكون والموجودات، ولكنه ـ وهذا سر تفوقه عليهما في مجال دراسة واستكشاف السُّنن الإلهية ـ لم يكتفِ بذلك، بل أثبت أيضاً وبشكل صريح أنّ ظواهر الاجتماع الإنساني، ووقائع التاريخ البشري هي بدورها أيضاً تخضع لقوانين صارمة، ولا تسير حسب الأهواء والصُّدَف، وإنما تحكمها قوانين ثابتة ومطّردة، شأنها شأن الظواهر الطبيعية[1].

وقد لاحظ أيضاً خضوع أحداث التاريخ مثلها مثل بقية الحوادث الطبيعية إلى قانون العلّية ومبدأ السببية، دون إغفال الإشارة إلى مصدر هذه الأسباب وخالقها، أي: إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[2].

يقول ابن خلدون: «إنّ كل حادث من الحوادث ـ ذاتاً كان أو فعلاً ـ لا بدَّ له من طبيعة تخصه في ذاته فيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأصول في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب»[3].

= للكتاب، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، (٣٣ـ ٥٥).

(١) انظر: «**ابن خلدون ـ مقال في المنهج التجريبي**»، محمود السعيد الكردي، طرابلس ـ ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (١٩٨٤م)، (١٠١ـ ١٠٢)، وانظر: «**نحو علم اجتماع إسلامي**»، زكي محمد إسماعيل (٨ـ ٩).

(٢) انظر: «**المدخل إلى التاريخ الإسلامي**»، محمد فتحي عثمان، بيروت، دار النفائس، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، (٥١١)، وانظر: «**ابن خلدون إسلامياً**» عماد الدين خليل (٥٨).

(٣) «**مقدمة ابن خلدون**»، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط٣، =

ويقول أيضاً: «إن الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلا بدَّ لها من أسباب متقدّمة عليها، بها تقع في مستقر العادة، وعنها يتم كونُها، وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضاً، فلا بد له من أسباب أُخر، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتىٰ تنتهي إلى مسبّب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو»(١).

وقد أشار ابن خلدون بوضوحٍ إلىٰ أنَّ الظواهر الاجتماعية، والأحداث التاريخية التي تناولها بالتحليل والتفسير، تسير وفق سُنة الله ـ تعالى ـ التي لا تتبدل، من خلال ذكره الصريح لعبارة: سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، أو في عباده، في نهاية عدد كبير من القوانين التي استنبطها من دراسته لهذه الظواهر والأحداث، الأمر الذي يؤكّد أن ابن خلدون كان يقصد من دراسته للمجتمع والتاريخ البشري، الكشف عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة فيهما(٢).

ومن الأمثلة على ذلك قوله في بيان سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في التغيُّر الاجتماعي: «إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سُنّة الله التي قد خلت في عباده»(٣).

= القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت، (١/ ٣٢٩).

(١) «**المقدمة**»، ابن خلدون (٣/ ١٠٦٩).

(٢) انظر: «**علم الاجتماع الخلدوني: قواعد المنهج**»، حسن الساعاتي، ط٤، القاهرة، دار المعارف، (١٩٧٨م)، (١٦٢ـ ١٦٥)، وانظر أيضاً: «**المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع: دراسة في علم الاجتماع الإسلامي**» نبيل السمالوطي، السعودية، دار الشروق، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، (٨٢ـ ٨٤).

(٣) «**المقدمة**»، ابن خلدون (١/ ٣٢٠)، وانظر أيضاً على سبيل المثال: «**المقدمة**» (١/ ٣١٨، ٢/ ٤٩٩، ٢/ ٥٠٩، ٢/ ٦٩٦، ٢/ ٧٦٧....).

وقد امتاز ابن خلدون عن سابقَيْه ابن حزم وابن تيمية بأن دراسته للظواهر الاجتماعية كانت شاملة تقريباً، فقد تعرَّض لدراسة الظواهر العمرانية في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والفكرية والتربوية، وقد اهتدى إلى طائفة كبيرة من السُّنن الإلهية والقوانين الاجتماعية قدَّمها في صياغات لغوية محدّدة ودقيقة، منها:

- الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوة، أو دعوة حق.
- الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تتحكم فيها دولة.
- المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونحتله وسائر أحواله وعوائده.
- التجارة من السلطان مُضِرّة بالرعايا ومُفسِدة للجباية.
- إنَّ من عوائق المُلك حصول الترف، وانغماس القبيل في النعيم.
- الظلم مؤذِنٌ بخراب العمران.
- الشدّة على المتعلمين مُضرة بهم.
- كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل[1].

المبحث الخامس

السنن الإلهية عند محمد عبده

- لمحة عن حياته ومؤلفاته:

هو محمد عبده حسن خير الله، ولد في قرية محلّة نصر في ضواحي مدينة طنطا عام (١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م)، درس مبادىء القراءة والكتابة على يد والده،

---

(١) انظر على الترتيب: «المقدمة»، ابن خلدون (٢/ ٥٢٦، ٢/ ٥٣٦، ٢/ ٥١٠، ٣/ ٧٣٣، ٢/ ٥٠١، ٢/ ٧٤١، ٣/ ١٢٥٣، ٣/ ١٢٤٠).

ومن ثم حفظ القرآن الكريم على يد حافظٍ من أهالي قريته، ثم أرسله والده إلى الجامع الأحمدي في طنطا؛ حيث تعلَّم هناك تجويد القرآن الكريم، ومبادىء علوم اللغة والشريعة، سافر بعد ذلك إلى الجامع الأزهر في القاهرة، وهناك تبحَّرَ في دراسة العلوم الشرعية واللغوية على يد كبار علماء الأزهر.

وبالإضافة إلى ذلك فقد صاحَبَ محمد عبده جمالَ الدين الأفغاني بين عامي (١٢٨٨م ـ ١٢٩٦هـ/ ١٨٧١ـ ١٨٧٩م)، ولازم مجالسه، ودرس على يديه علم الكلام والمنطق والفلسفة والأخلاق والسياسة، الأمر الذي زاد في حصيلته العلمية، ووسَّعَ آفاقه، وساعده على رؤية الواقع، والارتباط بمشاكل المسلمين، ودفعه إلى تبني خط الإصلاح والانخراط في صفوف المصلحين الذين لم يكن يرضيهم واقع المسلمين آنذاك، ويسعون بكل إمكانياتهم إلى تجاوزه من أجل الوصول إلى واقعٍ أقرب ما يكون إلى ما كان عليه المسلمون في أيام عزّتهم وسيادتهم في صدر الإسلام.

حصل محمد عبده على شهادة العالمية من الأزهر عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٧م)، وصار منذ ذلك الوقت مدرساً من مدرسي الأزهر، وبدأ بتدريس علم الكلام والمنطق فيه، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يدرِّس في بيته لخاصّة طلابه عدداً من الكتب النفيسة من أجل إثراء معارفهم، وتوسيع مداركهم من مثل كتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وبدأ في تلك الفترة بالكتابة في الجرائد والصحف داعياً إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، وعُيِّن عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) مدرساً للتاريخ في دار العلوم، حيث درَّس فيها «مقدّمة ابن خلدون» إدراكاً منه لأهمية المقدّمة، ودورها في تنبيه أذهان الطلاب إلى قوانين الله ـ تعالىٰ ـ وسُننه الجارية في التاريخ والمجتمعات البشرية، وقد ألَّف لهم كتاباً في علم الاجتماع والعمران، ولكنه فُقِدَ ولم يُعثر عليه.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد عُيِّن أيضاً مدرساً للغة العربية في مدرسة الألسن،

وفي عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) عُيِّنَ محرراً أولَ في «**مجلة الوقائع المصرية**»، وعُيِّنَ فيما بعد مسؤولاً للرقابة على المطبوعات في إدارة المطبوعات، كما عُيِّن عضواً دائماً في المجلس الأعلىٰ للعلوم والمعارف.

سُجن محمد عبده لمدة ثلاثة أشهر في أعقاب الثورة العُرابية، ثم نُفي بتهمة العمل على خلع الخديوي توفيق[1] من الحكم، فانتقل إلى بيروت، وأمضى فيها سنة كاملة، عكف فيها على المطالعة والدراسة، ثم سافر إلى فرنسا بناءً على دعوة أستاذه الأفغاني، واشتركا معاً هناك في إخراج «**مجلة العروة الوثقىٰ**» التي أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وتحرير الشعوب الإسلامية من نير الاستعمار وعسف الاستبداد عن طريق تنوير العقول والأفكار بمبادىء العقيدة الإسلامية السليمة[2].

وبعد انقطاع المجلة عن الصدور بعد ثمانية أشهر من صدورها بسبب مضايقة الإنكليز لها ومصادرتها في الهند ومصر، ترك محمد عبده باريس، واتجه إلى تونس، ومنها إلى بيروت عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م)، وهناك اشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية، وألقى فيها دروساً في التوحيد والمنطق والبلاغة والفقه الحنفي، وألقىٰ دروساً في تفسير القرآن الكريم في الجامع العُمري في بيروت.

---

(١) الخديوي توفيق (ت١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م)، هو محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، ولد وتوفي في القاهرة، تولىٰ خديوية مصر بعد عزل والده إسماعيل سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م)، واستمرت ولايته حتىٰ وفاته. انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ٦٥).

(٢) «**تفسير المنار**» (١/ ١١)، أشار رشيد رضا إلى أنَّ ما انفرد به منهج مجلة العروة الوثقىٰ كان: «بيان سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق ونظام الاجتماع البشري، وأسباب ترقي الأمم وتدلّيها وقوتها وضعفها».

إثر عودة محمد عبده إلى مصر عام (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م)، عُيِّنَ قاضياً في محكمة «بنها»، ثم في محكمة «الزقازيق»، ثم في محكمة «عابدين» في القاهرة، ثم عُيِّن مستشاراً لمحكمة الاستئناف، وقد شارك في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية لمساعدة الفقراء والمساكين وتعليمهم عام (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م).

وعُيِّن عام (١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) عضواً في مجلس إدارة الأزهر، كما عُيِّنَ مفتياً للديار المصرية عام (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م)، وبالتالي أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى، وفي العام نفسه أصبح عضواً في مجلس شورىٰ القوانين، وقد ساهم في عام (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) في تأسيس جمعية إحياء العلوم العربية، وقد توفي الشيخ محمد عبده عام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)[١]، رحمه الله تعالىٰ.

وقد حدّد محمد عبده بنفسه أهداف وغايات مشروعة الإصلاحي بقوله: «ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدّين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولىٰ، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقللّ من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يُعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في آداب النفس وإصلاح العمل.

---

(١) انظر: تفاصيل حياة وأعمال محمد عبده في: «**أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث**»، أحمد تيمور، القاهرة، لجنة المؤلفات التيمورية، (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، (١٤٣ـ ١٥٩)، وانظر: «**المعاصرون**»، محمد كرد علي، علّق عليه محمد المصري، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)، (٣٤٣ـ٣٦٦).

وأما الأمر الثاني: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير»[1].

وكان يرىٰ أن إصلاح وتجديد فهم المسلمين للعقيدة الإسلامية، هو الأساس الذي يجب أن تُبنىٰ عليه، وتنطلق منه كافة وجوه الإصلاح في شتىٰ الميادين، فها هو يقول: «إن الغرض الذي يرمي إليه جميعهم [المصلحون] إنما هو تصحيح الاعتقاد، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين، حتىٰ إذا سلمت العقائد من البِدع، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية، دينية ودنيوية، وتهذّبت أخلاقهم بالمَلكات السلمية، وسرىٰ الصلاح منهم إلى الأمة»[2].

وأما الوسيلة الرئيسة التي اعتمد عليها في تحقيق مشروعه الإصلاحي، فقد كانت تفسير القرآن الكريم وفق منهج جديد، فقد كان «يقرأ الآية من القرآن، ويفسّرها من عنده بما يختار من التفاسير، وبما يجتهد، ويستطرد في شرح أحوال المسلمين ونقدهم حسبما تُلهمه الآية»[3].

وقد ترك محمد عبده عدداً من الكتب العلمية، أَوْدَعَها خلاصة تفكيره الإصلاحي، منها: «**رسالة التوحيد**»، «**الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**»، «**الإسلام والرد على منتقديه**»، «**الإسلام دين العلم والمدنيّة**»، «**تفسير جزء عمَّ**»، «**دروس من القرآن الكريم**»، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات فسَّر بها محمد عبده سورة الفاتحة، وسورة العصر، وآيات أخرىٰ من القرآن

---

(١) «**أعلام الفكر الإسلامي**»، أحمد تيمور، (١٥٧).

(٢) «**زعماء الإصلاح في العصر الحديث**»، أحمد أمين، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٩٧٩م)، (٣٣١).

(٣) **المرجع السابق**، أحمد أمين (٣٠٨).

الكريم، وكتب «**حاشيةً على شرح الجلال الدوّاني للعقائد العضُدية**»[1]، في علم الكلام، وكتبَ «**شرحاً لكتاب البصائر النَّصيرية للطوسي**»[2] (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) في علم المنطق.

وقد قام محمد عبده بتحقيق ونشر بعض الكتب التراثية القيّمة مثل: «**نهج البلاغة**»، و«**مقامات بديع الزمان الهمذاني**»[3] (ت٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م).

وقد ترجم عن اللغة الفرنسية كتاب «**التربية**» للفيلسوف هربرت سبنسر[4]

---

(١) الجلال الدّوّاني (ت ٩١٨هـ/ ١٥١٢م) هو محمد بن أسعد الصديقي الدّوّاني، جلال الدين، ولد في دوّان قرب شيراز، وتوفي في فارس، من علماء الكلام والمنطق، من كتبه: «حاشية على تحرير القواعد المنطقية للقطب الرازي»، و«شرح العقائد العضُدية»، وكتاب «العقائد العضدية»: هو كتابٌ في علم الكلام، ألّفه عضُد الدين الإيجي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، ولد في «إيج» في فارس، وتوفي في كرمان، من علماء الأصول والكلام، من كتبه: «المواقف في علم الكلام»، «شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ٣٢، ٣/ ٢٩٥).

(٢) الطوسي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) هو محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين الطوسي، ولد في طوس، وتوفي في بغداد، من علماء الفلسفة والرياضيات والفلك، من كتبه: «شرح قسم الإلهيات من إرشادات ابن سينا»، «تحرير أصول إقليدس»، «تلخيص المحصِّل» للفخر الرازي. انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٧/ ٣٠).

(٣) بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـ/١٠٠٨م)، هو أحمد بن الحسين بن يحيىٰ الهمذاني، ولد في همذان، وتوفي في هراة، من كبار الأدباء والكتاب، من كتبه: «مقامات الهمذاني»، وله ديوان شعر، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (١/ ١١٥ـ١١٦).

(٤) هربرت سبنسر (ت١٩٠٣م) فيلسوف أخلاقي إنكيزي من المدرسة الاختبارية، كان يرىٰ ضرورة الإيمان والأخلاق لحماية أوربة من السقوط والانهيار الحضاري. انظر: بطرس حرفوش «تحرير وإشراف». «**المنجد في الأعلام**» ط١٠، بيروت، دار المشرق، د.ت، ٣٥٠.

(ت١٩٠٣م)، وعرَّب «**رسالة الرد على الدهريين**» للأفغاني بمساعدة خادم الأفغاني، وكتب عشرات المقالات في مجالات الإصلاح الديني والاجتماعي والأخلاقي والتربوي في مجلاّت وجرائد عديدة من أهمها: **الأهرام**، **والوقائع المصرية**، **والعروة الوثقىٰ**، **وثمرات الفنون**، **والمنار**، هذا بالإضافة إلى دروسه في تفسير القرآن الكريم التي ألقاها في الجامع الأزهر لمدة ست سنوات حتى وفاته، والتي قام الشيخ رشيد رضا بتدوين خلاصتها، ونَشْرها في «**تفسير المنار**»[١].

رحم الله ـ تعالىٰ ـ الشيخ محمد عبده، فقد كان كما قال عنه أحد العلماء المعاصرين: «رائد الطليعة المجدِّدة في هذا القرن، ولاسيما في بيان حكمة القرآن، وتفسير المعاني التشريعية، وإبراز سنن الله في الاجتماع البشري من خلال آيات القرآن المبين»[٢].

ـ التصور السُّنني عند محمد عبده:

شهد الفكر الإسلامي ـ بعد وفاة ابن خلدون ـ حالةً من حالات الجمود شملت معظم مجالات الإبداع والتجديد فيه، وقد عطّل هذا الجمود ـ فيما عطل ـ الجهود التي بذلها علماء الإسلام في تأصيل وترسيخ مفهوم السُّنن الإلهية، وحال دون تحوُّل هذه الجهود المبذولة في سبيل دراسة هذا المفهوم إلى علمٍ خاص به، مثله مثل بقية العلوم الإنسانية الأصيلة، ولكننا ومع نهاية القرن

---

(١) انظر: «**مصادر الدراسة الأدبية**»، يوسف داغر، لبنان، منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، (١٩٥٦م)، (٢/٥٩٨ـ ٥٩٩)، وانظر: «**الإمام محمد عبده مجدِّد الإسلام**»، محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٨١م)، (٢٦ـ ٤٤).

(٢) «**محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة: بحث وتحقيق**»، محمد الصادق عرجون، ط٢، دمشق، دار القلم، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، (١/ ٥٦٠).

التاسع عشر الميلادي، بدأنا نلاحظ استئناف هذه الجهود بشكل علمي وجدّي استجابة للتحدي الحضاري الذي عاشه المسلمون آنذاك، المتمثّل بتخلف المجتمع الإسلامي من جهة، ووقوعه فريسة سهلة بين براثن التدخل الأجنبي من جهة أخرىٰ.

وقد كان الشيخ محمد عبده ـ مع علماء آخرين ـ أحد أعمدة الردّ الحضاري على هذا التحدي، وقد كانت جهوده في دراسة السُّنن الإلهية والدعوة إلى الأخذ بها أحد المقوِّمات الرئيسة المكوِّنة لمشروعه الإصلاحي الذي استوحاه من القرآن الكريم بشكل أساسي.

ـ جهوده في دراسة السُّنن الإلهية:

قدَّم محمد عبده تعريفاً محدداً للسُّنن الإلهية، وضَّحَ فيه بأنها هي القوانين الثابتة التي تجري وفقاً لها جميع الوقائع المادية وغير المادية، وهي المسؤولة بشكل مباشر عن الآثار الناتجة عن هذه الوقائع: «السُّنن: الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمىٰ شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين»[1].

وقد صرّح محمد عبده بأن هذه السُّنن تجري في عالم الطبيعة والمجتمعات على السواءـ كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون ـ، وهي ثابتة لا تقبل التغيير ولا التبديل، وجعل الالتزام بهذه السُّنن والأخذ بها أساس السعادة في المجتمعات البشرية، في حين أنَّ الإعراض عنها، وعدم الأخذ بها هو سبب الشقاء فيها، بل اعتبر أن الجري وفق هذه السُّنن إنماهو جريٌ مع طبيعة الدين نفسه.

«إن لله في الأمم والأكوان سُنناً لا تتبدل، إن نظام الجمعية البشرية،

---

(١) «**الإسلام دين العلم والمدنيّة**»، محمد عبده، تحقيق عاطف العراقي، القاهرة، دار قباء، (١٩٩٨م)، (١٣٢).

وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتىٰ يردَّ إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبُه، أو اتصل بالمقربين سببُه، فمهما بحث الناظر، وفكرّ وكشف وقرر، وأتىٰ لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافىٰ عنه، ولا تنفر منه»[1].

ونظراً لأن الارتباط بين الأسباب والمسببات هو القاعدة التي ترتكز عليها السُّنن الإلهية وثباتها واطّرادها، فقد أكَّد محمد عبده هذا الارتباط على غرار ابن حزم وابن تيمية وابن خلدون، وقد اعتبر أنّ براعة المسلمين في علوم الطبيعة والكون مردُّها إلى إيمانهم العملي بهذا الارتباط، وقال: لا يمكن لأهل الدين الذي يدعو إلى العمل والجهاد والاعتبار بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق[2] أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب في هذا العالم والمسببات، وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية، إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله[3]».

وقد دعا محمد عبده المسلمين إلى تدوين السُّنن الإلهية وفق قواعد وأصول العلم الحديثة، وذلك بسبب حاجة الأمة الإسلامية لها بسبب ضغط الأحوال والظروف التي طرأت عليها، وقد برَّر عدم تدوين الصحابة ـ رضوان الله تعالىٰ عليهم ـ لهذا العلم بقوله: «وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السُّنن، وعالمين بمراد الله من ذكرها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها، ولمّا اختلفت

---

(١) «الإسلام دين العلم والمدنيّة»، محمد عبده، (١٣٢).

(٢) انظر: المرجع السابق، محمد عبده (٢٠٨ـ٢٠٩).

(٣) المرجع السابق، محمد عبده (٢٠٩).

حالة العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد، وغيرهما، كانت محتاجة أيضاً إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السُّنن، الإلهية، أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية»[1].

ـ نماذج من السنن الإلهية عند محمد عبده:

استنتج محمد عبده معظم السُّنن الإلهية التي اهتدىٰ إليها من خلال دراسته للقرآن الكريم وتفسيره، وربط هذه السُّنن بالقرآن الكريم ربطاً محكماً، ووجَّه أنظار المسلمين إلى القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول لمعرفة سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، ولهذا يمكننا أن نقول مع الشيخ محمد مصطفى المراغي[2] (ت ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) بأنه «ليس في رجال تفسير كتاب الله من يُضارع الشيخ أو يُقاربه في تطبيقه آي القرآن على سُنن الاجتماع»[3].

من السُّنن الكثيرة التي استنبطها محمد عبده من القرآن الكريم، أكتفي بذكر النماذج التالية:

ـ سُنة الله تعالىٰ في بقاء الأمم وهلاكها:

«إن الله ـ تعالىٰ ـ برحمته قد وضع للأمم سُنناً متبعة ثم قال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[4]، وأرشدنا ـ سبحانه ـ في مُحكم آياته إلى أنّ الأمم ما سقطت من

---

(١) «**تفسير المنار**»، رشيد رضا(٤/ ١٣٩).

(٢) المراغي (ت١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)، هو محمد بن مصطفى بن محمد المراغي، ولد في الصعيد المصري، وتوفي في الإسكندرية، من علماء التفسير المعاصرين، من كتبه: «بحث في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية»، «تفسير سورة الحجرات»، «تفسير سورة لقمان والعصر». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٧/ ١٠٣).

(٣) «**المعاصرون**»، محمد كرد علي (٣٤٧).

(٤) جزء من قوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ سورة الفتح: ٢٣.

عرش عزّها، ولا بادت، ومُحيَ اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السُّنن التي سَنّها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغيِّر ما بقوم من عزّة وسلطان حتى يغيِّر أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبُّر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا، فأخذهم الله بذنوبهم، وجعلهم عِبرة للمعتبرين، هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءَها في التحلّي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلّي عنها، سُنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال»[1].

ـ سنة الله تعالىٰ في أنبيائه ـ عليهم السلام ـ:

«غلبت سُنة الله في أن يكون الرّسل من أواسط قومهم، أو من المستضعفين فيهم؛ ليكون العامل في الإذعان للحق، محضَ الدليل، وقوة البرهان، وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يُدعىٰ إليه على قبوله»[2].

ـ سنة الله ـ تعالىٰ ـ في الصبر:

«إن من سُنة الله ـ تعالىٰ ـ أنّ الأعمال العظيمة لا تتم، ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر، فهو على سُنّة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سبباً للظفر؛ لأنه يولِّد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر، فليس الله معه؛ لأنه تنكّب سُنّته، ولم يثبت فيبلغ غايته»[3].

---

(١) «**دروس من القرآن الكريم**»، محمد عبده، كتاب الهلال، عدد (٩٦)، القاهرة، (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، (١٩٠).

(٢) «**دروس من القرآن الكريم**»، محمد عبده (١٦٨).

(٣) «**تفسير المنار**» رشيد رضا، (٢/ ٣٧).



الباب الثاني

مفهوم السُّنن الإلهيةِ
عند رشيد رضا
وعلاقتها بقضايا العقيدة

الباب الثاني

يُقسَم هذا الباب إلى فصلين

سأتناول في الفصل الأول: مفهوم السُّنن الإلهية عند رشيد رضا، وكل ما ينطوي تحته من جوانب نظرية.

وسأتناول في الفصل الثاني: جهود رشيد رضا في رفع التعارض الموهوم بين بعض القضايا والمسائل الدينية ذات الطابع العقدي مثل المعجزات والتوكل والدعاء، وبين وجود السُّنن الإلهية وثباتها.

وسأمهِّد لهذا الباب بإلقاء نظرة عامة على حياة رشيد رضا وأعماله ومؤلفاته، مع إلقاء نظرة تفصيلية ـ إلى حدٍّ ما ـ على تفسير المنار.

تمهيد

حياة ومؤلفات رشيد رضا

سأقسِّم هذا التمهيد إلى مطلبين، أبحث في المطلب الأول منهما حياة أعمال رشيد رضا، وسأخصص المطلب الثاني للحديث عن تفسير المنار؛ لأن هذا التفسير هو أهم أعمال رشيد رضا العلمية، وهو المحور الرئيس الذي تدور حوله هذه الرسالة.

المطلب الأول

حياة رشيد رضا

وُلدَ محمد رشيد علي رضا في ٢٧ جمادىٰ الأولىٰ سنة (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م) في قرية القلمون في شمال لبنان قرب مدينة طرابلس، من أسرة عريقة عُرفت بالعلم والإرشاد والرياسة، وينتهي نسبها إلى آل البيت فرع الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ، وقد اكتسبت هذه الأسرة في ذلك الوقت مكانة دينية وعلمية واجتماعية مرموقة، وقد كان والده يتصرف وفقاً لهذه المكانة، فقد كان يستقبل في بيته الضيوف من جميع الملل، ويُؤوي أبناء السبيل من جميع الأقطار، وكان يستضيف علماء طرابلس وحكّامها ووجهاءها[1].

---

(١) انظر: «**السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة**»، شكيب أرسلان، دمشق، مطبعة ابن زيدون (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، (٢٣ـ ٣٠).

يحدِّثنا رشيد رضا بنفسه عن نشأته وبيئته الأولىٰ، فيقول: «إنني نشأت في بيت شرف وكرامة وكرم ودين وتقوى وعزة نفس، يعتقد الناس تسلسل الولاية فيه، ويتبركون بكبار رجاله، وفي سلسلة نسبنا عدة رجال كانوا يلقبون (بالصوفي)، وكان عندنا خزانة كتب موروثة فيها عدة كتب نادرة في جميع العلوم، حتى علم الفلك؛ فبهذا يُعلم أن لي عِرْقاً وراثياً في حب العلم والإرشاد والاستعداد لهما»[1].

بدأ رشيد رضا مسيرته العلمية في كُتّاب قريته؛ حيث تعلَّم هناك قراءة القرآن الكريم والخط والحساب، ثم انتقل إلى مدرسة ابتدائية حكومية في مدينة طرابلس، تعلَّم فيها النحو والصرف ومبادىء الجغرافية والحساب والعقائد والعبادات، واللغة العربية والتركية، ولكنه ترك هذه المدرسة بعد سنة من الدراسة فيها؛ لأن التعليم في هذه المدرسة كان باللغة التركية، وكانت تُعِدُّ خريجيها لتولي وظائف الحكومة، وهو لا يريد لنفسه ذلك المصير، ثم انتقل إلى مدرسة أرقىٰ، وهي المدرسة الوطنية الإسلامية التي أسسها الشيخ حسين الجسر[2] (ت١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، أحد علماء الإصلاح في بلاد الشام في عصره[3]، وقد كان هذا الشيخ يرىٰ «أن الأمة الإسلامية لا تصلح وترقىٰ إلا

---

(١) «**السيد رشيد رضا**»، شكيب أرسلان(٣١).

(٢) حسين الجسر (ت١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) هو حسين بن محمد الجسر، ولد وتوفي في طرابلس الشام، من علماء الشريعة والأدب، من كتبه: «الرسائل الحَميدية في حقيقة الديانة وحقيقة الشريعة المحمدية»، «الحصون الحَميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية»، «الكواكب الدرية في الفنون الأدبية»، وهو مخطوط، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٢/ ٢٥٨).

(٣) يقول شكيب أرسلان عن الشيخ حسين الجسر: «كان من أفذاذ الأمة الإسلامية علماً وورعاً ووقاراً وجلالاً وجمالاً، وكان أستاذنا الشيخ محمد عبده لا يرىٰ مثله في علماء سورية العاملين ومرشديها الكاملين»، «**السيد رشيد رضا**»، شكيب أرسلان (٣٥).

بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوربية، مع التربية الإسلامية الوطنية تجاه التربية الأجنبية في مدارس الدول الأوربية والأميركانية»[1]، وقد درس رشيد رضا في هذه المدرسة العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات واللغة التركية والفرنسية لعدة سنوات، حصل في نهايتها على إجازة بالتدريس في العلوم النقلية والعقلية سنة (١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م)، وقد تابع رضا تكوينه العلمي في طرابلس على يد عدة شيوخ غير حسين الجسر، أهمهم الشيخ محمود نشّابه[2] (ت١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م) الذي أخذ عنه علوم الحديث وفقه الشافعية، ودرس على يدي الشيخ عبد الغني الرافعي[3] (ت١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م) شيئاً من فقه الحديث، والأدب والتصوف، وقد استكمل تحصيله العلمي في مجال علوم الحديث رواية ودراية وجرحاً تعديلاً على يد الشيخ محمد القاوقجي[4] (ت١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م)، وقد

---

(١) «**السيد رشيد رضا**»، شكيب أرسلان(٣٦).

(٢) محمود نشّابة (ت١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠) هو محمود بن محمد نشّابة، من أهل طرابلس الشام، من علماء الحديث والفقه والمنطق، من كتبه: «حاشية على متن البيقونية» في مصطلح الحديث، «حاشية على شرح الفَناري» في علم المنطق، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٧/ ١٨٥ـ ١٨٦).

(٣) عبد الغني الرافعي (ت١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م)، هو عبد الغني بن أحمد الرافعي، ولد في طرابلس الشام، وتوفي في مكة، قاضٍ من علماء الفقه الحديث والأدب، من كتبه: «شرح بديعيّة الصفي الحلّي»، وهو مخطوط، «تعليقات على حاشية ابن عابدين على الدُّر في الفقه الحنفي»، «ترصيع الجواهر المكّية في تزكية الأخلاق المرضية في التصوف». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٤/ ٣٢).

(٤) محمد القاوقجي (ت١٣٠٥هـ/١٨٨٧م) الشهير بأبي المحاسن، ولد في طرابلس الشام، وتوفي في مكة، من رجال الحديث والتصوف، من كتبه: «اللؤلؤ المرصوع في الحديث الموضوع»، «المقاصد السّنية في آداب الصوفية». انظر: «**السيد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية**»، عبد الله نوفل، تراجم علماء طرابلس، طبعة=

أقبل في تلك الفترة على كتب الأخلاق والتصوف، وخصوصاً كتاب أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) «**إحياء علوم الدين**»، الذي قرأه أكثر من مرة، وكان له أكبر الأثر في دينه وأخلاقه وعلمه وسلوكه[١].

وقد وسّع رشيد رضا دائرة اهتماماته الفكرية عندما اطَّلع على شيء من الثقافة الغربية من خلال قراءته لبعض الكتب الأجنبية المترجمة مثل كتاب «**روح الاجتماع**»، للمؤرخ وعالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون[٢] (ت١٩٣١م)، وكتاب «**أميل القرن التاسع عشر**»، لألفونس اسكيروس[٣]، وهذا الكتاب عبارة عن قصة في موضوع التربية الحديثة في الغرب، ومن الكتب التي تأثر رشيد رضا بأفكارها، وأضافت إلى ثقافته عنصراً متميزاً دفعه إلى الانشغال بقضايا الأخلاق والفكر والتاريخ «**كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**»، لمسكويه (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، و«**مقدمة ابن خلدون**»[٤].

وقد كان اكتشاف رشيد رضا لنصوص **مجلة العروة الوثقىٰ**، وإقباله على قراءتها في طرابلس، بمثابة تغيير جذري في طرية تفكيره وأهدافه في الحياة، وها هو بخبرنا بنفسه عن تأثير هذه المجلة فيه، فيقول:

«هي التي وجّهت نفسي للسعي في الإصلاح العام بعد أن كنت لا أفكر إلا

= طرابلس، (١٩٨٤م)، (٥٨ـ ٥٩)، نقلاً عن كتاب، محمد درنيقة، بيروت ـ طرابلس، مؤسسة الرسالة ـ دار الإيمان، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، (٢٤ـ ٢٥).

(١) انظر: «**السيد رشيد رضا**»، شكيب أرسلان (٣٥ـ ٤٦).

(٢) غوستاف لوبون (G.leboh) (ت١٩٣١م) مؤرخ وعالم اجتماع فرنسي، من المهتمين بتاريخ الحضارة الإسلامية، من كتبه «حضارة العرب»، انظر: «تحرير وإشراف»، بطرس حرفوش، «**المنجد في الأعلام**»، (٦١٥).

(٣) ألفونس اسكيروس، لم أجد له ترجمة.

(٤) انظر: «**محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية**»، أحمد فهد الشوابكة، عمّان، دار عمار، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، (١٨ـ ٢٠).

فيمن بين يدي، وأرى كل الواجب علي أن أظهر في دروسي العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وأنا لا أعلم سبب الفساد الذي فعل في العقائد والأخلاق ما فعل، ودفع المسلمين إلى مزالق الزلل، حتى هدتني العروة الوثقىٰ، إلى المناشيء والعِلل»[1].

ويحدّثنا في مكان آخر عن الأفكار والأهداف التي كانت تدعو إليها مجلة **العروة الوثقىٰ**، وعن أثر هذه الأفكار الحاسم في نفسه وحياته، فيقول:

«ظفرت يدي بنسخ من جريدة العروة الوثقىٰ في أوراق والدي، فلما قرأت مقالاتها في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وإعادة مجد الإسلام، واسترداد ما ذهب من ممالكه، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه، أثّرت في قلبي تأثيراً دخلتُ به في طور جديد من حياتي»[2].

من خلال ماسبق نلاحظ عمق الثقافة الشرعية عند رشيد رضا، وخاصة في علوم الحديث، وفي الوقت نفسه يمكننا أن نلاحظ التنوع والشمول الذي امتازت به ثقافته التي جمعت بين عيون التراث الفكري والأدبي الإسلامي، وبين إطلالةٍ لا بأس بها على آخر مستجدات الثقافة الغربية في عصره في مجال الاجتماع والتربية، هذا بالإضافة إلى تواصله الفكري مع أفكار رجال الإصلاح في عصره من خلال تلمذته على الشيخ حسين الجسر، واطّلاعه على أفكار مجلة **العروة الوثقىٰ**.

وهكذا فإنه يمكننا القول بأن مزايا التكوين العلمي والفكري لرشيد رضا هي التي أهَّلَته ودفعته للسير على طريق الإصلاح الإسلامي الذي جنَّد حياته كلها من أجل خدمته، ورفع قواعده وبنيانه.

---

(١) **«رشيد رضا الإمام المجاهد»**، إبراهيم أحمد العدوي، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب، رقم (٣٣)، (١٩٦٤م)، (٧٧).

(٢) **«تفسير المنار»، رشيد رضا** (١/ ١١).

ـ **هجرته إلى مصر:**

في نهاية عام (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، وبعد أن استكمل رشيد رضا عناصر تكوينه العلمي الرصين، وبعد أن خاض تجاربه الأولىٰ في ميدان العمل الإسلامي في طرابلس، وبعد أن استلهم مبادىء الإصلاح من قراءته لمجلة **العروة الوثقىٰ** ، ومن لقاءاته القليلة والمحدودة مع الشيخ محمد عبده في طرابلس وبيروت في أثناء إقامة محمد عبده في لبنان، أحسَّ رشيد رضا باستعداده للعمل في ميدان الإصلاح الديني، ولكنه أدرك ـ وبعد فترة وجيزة ـ بأن مدينته الصغيرة ليست هي المكان المناسب لهذا العمل الكبير، لذلك قرر أن يحزم متاعه ويهاجر إلى مصر عسى أن يجد هناك المجال واسعاً ومفتوحاً لكي يستكمل رؤيته للعمل الإصلاحي من خلال ملازمته لأستاذه محمد عبده، ولكي يحقق طموحه، ويقوم بإصدار مجلة إسلامية تكون منبراً للأفكار الإصلاحية[(١)].

يقول السيد رضا: «عزمت على الهجرة إلى مصر؛ لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم، ومن مناهل العلم العذبة الموارد، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر، وكان أعظم ماأرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأن أعمل معه وبإرشاده في هذا الجو الحر»[(٢)].

وفعلاً فقد سافر رشيد رضا إلى مصر مهاجراً، ووصل إلى الإسكندرية في بداية عام (١٣١٥هـ/ ١٨٩٨)، وبعد انتقاله إلى القاهرة، ولقائه بالشيخ محمد

---

(١) انظر: «**السيد رشيد رضا**» شكيب أرسلان، (١٢٧ـ١٢٩).

(٢) المرجع السابق، (١٢٨)، وانظر أيضاً: «**رحلات الإمام محمد رشد رضا**»، يوسف إيبش، ط٣، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٧٩م)، (٢١١ـ٢١٢).

عبده مرات عديدة، استطاع رشيد رضا تحقيق حلمه الذي هاجر من أجله إلى مصر، وهو إصدار صحيفة إسلامية تعنىٰ بشؤون الإصلاح، وتكون خَلَفاً وامتداداً لجريدة العروة الوثقىٰ في ميدان الإصلاح الديني والفكري الاجتماعي[1]، وقد حملت هذه الصحيفة اسم المنار، واستمرت بالصدور ابتداءً من ١٥ آذار لعام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، وحتىٰ وفاة رشيد رضا عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، وقد ساهم معه في تحرير وكتابة مواد ومقالات هذه المجلة ـ بالإضافة إلى الشيخ محمد عبده ـ عدد من خيرة وصفوة رجال العلم والفكر والأدب، منهم: محمد الخضر حسين[2] (ت١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، عبد القادر المغربي[3] (ت١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، مصطفى صادق الرافعي[4] (ت ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، رفيق العظم[5] (ت١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)، شكيب

---

(١) انظر: «**أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث**»، فهمي جدعان، ط٣، عمّان، دار الشروق، (١٩٨٨م)، (٢٦٨ـ ٢٦٩).

(٢) محمد الخضر حسين (ت١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، هو محمد الخضر بن حسين التونسي، ولد في «نفطة» في تونس، وتوفي في القاهرة، من كبار علماء الدين واللغة في العصر الحديث، من كتبه: «بلاغة القرآن»، «مدارك الشريعة الإسلامية»، «حياة اللغة العربية». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ١١٣ـ ١١٤).

(٣) عبد القادر المغربي (ت ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، هو عبد القادر بن مصطفى المغربي، من أصل تونسي، ولد في اللاذقية، وتوفي في دمشق، من رجال النهضة الدينية واللغوية في العصر الحديث، من كتبه: «تفسير جزء تبارك»، «على هامش التفسير»، «الاشتقاق والتعريب»، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٤/ ٤٧).

(٤) مصطفىٰ صادق الرافعي (ت١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، هو مصطفىٰ بن عبد الرزاق الرافعي، أصله من طرابلس الشام، ولادته ووفاته في طنطا بمصر، من أئمة اللغة والأدب في العصر الحديث، من كتبه: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، «تحت راية القرآن»، «تاريخ أدب العرب»، انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٧/ ٢٣٥).

(٥) رفيق العظم (ت١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م) هو رفيق بن محمود العظم، ولد في دمشق، =

أرسلان[1] (ت١٣٦٦هـ/١٩٤٦م)، . . .، وقد وضَّح رشيد رضا أنَّ أهم أهدافه من إصدار المنار، هو نشر الإصلاحات في كافة الميادين الدينية والاجتماعية والتربوية، وإثبات أن الإسلام بأحكامه وتشريعاته قادر على استيعاب، وحلِّ مشاكل العصر الحاضر، هذا بالإضافة إلى حثِّ الشعوب والدول الإسلامية على استعادة دورها الحضاري المفقود عن طريق ترقية مناهج التعليم وتطويرها، ونشر الأفكار العلمية الصحيحة التي تدفع المسلمين إلى تغيير فهمهم الخاطىء والمغلوط للإسلام، والتي تساعدهم على تغيير واقعهم الاجتماعي والسياسي نحو الأفضل[2].

ومن بين الأفكار التي حرض رشيد رضا على تكرارها بوجوه وأساليب متعددة: «أنَّ قيمة الدين ليست في أسراره الروحية أو قواه الخفية، ولكنها تكمن في الحقيقة التي يعلّمها للإنسانية، وهي أن سعادة المرء في هذه الحياة، والحياة الأخرىٰ تتوقف على معرفة سُنن الله التي تضبط رقي البشر، أفراداً

= وتوفي في القاهرة، من رجال النهضة الفكرية في سورية، من كتبه: «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة»، «البيان في أسباب التمدن والعمران»، «تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام»، انظر: **«الأعلام»**، خير الدين الزركلي (٣/ ٣٠).

(١) شكيب أرسلان (ت١٣٦٦هـ/١٩٤٦م)، هو شكيب بن حمود أرسلان، ولد في «الشويفات» في لبنان، وتوفي في بيروت، من كبار علماء الأدب والسياسة والتاريخ في العصر الحديث، من كتبه: «لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم»، «غزوات العرب في فرنسة وشمالي إيطالية وفي سويسرة»، «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة». انظر: **«الأعلام»**، خير الدين الزركلي (٣/ ١٧٣ـ١٧٥)، انظر: **«تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار ١٨٩٨ـ ١٩٣٥م»**، محمد صالح المراكشي تونس، الدار التونسية للنشر، (١٩٨٥م)، (٥٥ـ ٦٠).

(٢) انظر: **المرجع السابق**، محمد صالح المراكشي (٦٠ـ ٦٣).

وجماعات، ويجب على المسلمين أن يدرسوا هذه السُّنن، وأن يسيروا عليها في يقين وإيمان، وأن يعلموا أن الله لا يمنع خيرات العالم عن أولئك الذي يطلبونها بالطرق الصحيحة، سواء أكانوا مسلمين، أم غير مسلمين»[١].

ولم يكتف رشيد رضا في أثناء إقامته في مصر بالدعوة إلى الإصلاح الإسلامي على مستوىٰ بث الأفكار الإصلاحية إلى الواقع العملي من خلال تأسيسه لمدرسة «دار الدعوة والإرشاد»، وهي مشروع علمي تربوي سعى من خلاله إلى بناء جيل جديد من طلبة العلوم الشرعية يجمع في ثقافته بين التكوين الشرعي العميق، والاطّلاع الواسع على ثقافة العصر وأحواله، ليكونوا الطليعة التي يجب أن تأخذ على عاتقها مهمة الدعوة إلى الإسلام داخل العالم الإسلامي وخارجه بوسائل جديدة تتناسب مع مقتضيات العصر الحاضر[٢].

وقد أشار رشيد رضا بوضوح إلى أن هدفه من إنشاء هذه المدرسة «هو الإصلاح الديني الاجتماعي؛ أي: إنارة عقول المسلمين بالعلوم النافعة، وتربية نفوسهم تربية صالحة ليتعلموا كيف يعمرون دنياهم مع حفظ دينهم ذي الآداب العالية أن ينال منه الخراب، ويدخل في ذلك اقتباسهم لما لا بدَّ لهم منه من المدنية العصرية وفنونها وأعمالها »[٣]، وقد افتتحت هذه المدرسة أبوابها أمام الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي، سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩٢٢م)، واستمرت في أداء رسالتها الإصلاحية مدة أربع سنوات فقط؛ حيث اضطرت إلى التوقف والإغلاق نتيجة الأوضاع التي طرأت على مصر بسبب الحرب العالمية الأولى، والتي أدّت إلى توقف الإعلانات والمساعدات التي كانت تَرِد

---

(١) «**رشيد رضا الإمام المجاهد**»، إبراهيم أحمد العدوي (١٥٤).

(٢) انظر: «**الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل**»، سمير أبو حمدان، بيروت، الشركة العالمية للكتاب (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، (٤٦ـ٥٣).

(٣) «**رحلات رشيد رضا**»، يوسف إيبش (٧٤).

إلى المدرسة وتقوم بتأمين نفقاتها[1]، وهكذا خسر المسلمون في مستهل القرن العشرين مشروعاً علمياً وتربوياً رائداً، كان يمكن ـ لو كُتب له النجاح والاستمرار ـ أن يساهم مساهمة كبيرة في تخريج أجيال من الدعاة إلى الإسلام يحملون مشروعاً إصلاحياً يساعد في تفعيل دور الإسلام وحضوره بكل أبعاده في العصر الحديث.

وقد قام رشيد رضا في أثناء إقامته في مصر برحلات عدّة، طاف فيها أقطاراً عديدة من العالم الإسلامي؛ ليقف عن قرب على واقع المسلمين ومشاكلهم، وليتحاور مع رجال السياسة والعلم والفكر فيهم حول أنجع الوسائل الممكنة لتغيير حياة المسلمين، وإنقاذ مجتمعاتهم من قبضة التخلف والاستعمار، وتحقيق الوحدة الإسلامية؛ لتلم شعث العالم الإسلامي، وتقف سداً منيعاً في وجه الطامعين في خيرات المسلمين وثرواتهم، لذلك فقد سافر إلى سورية والآستانة والهند والحجاز والقدس[2].

وقد شارك أيضاً مشاركة فعالة في عدد من المؤتمرات السياسية والدينية من أجل الدفاع عن حقوق المسلمين والعرب في بلادهم، فقد كان رئيس المؤتمر السوري في فترة الحكومة العربية في دمشق سنة (١٩٢٠م)، وكان نائب رئيس المؤتمر السوري الفلسطيني في «جينيف» عام (١٩٢١م)، وقد كان من أعضاء المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في مكة سنة (١٩٢٤م)، وانعقد مرة أخرىٰ في القاهرة سنة (١٩٢٦م) من أجل مناقشة مسألة الخلافة عقب إلغاء الخلافة الإسلامية في الآستانة عاصمة الدولة العثمانية سنة (١٩٢٤م)، وقد كان خلال هذين المؤتمرين من أشد المدافعين والمنافحين عن نظام الخلافة وضرورته

---

(١) انظر: «**محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية السياسية**»، أحمد الشوابكة (١٢٥ـ ١٢٨).

(٢) انظر: «**تفكير محمد رشيد رضا**»، محمد صالح المراكشي.

القصوىٰ للمسلمين[1]، وقد شارك رشيد رضا أيضاً في مؤتمر إسلامي عام عقد في مدينة القدس سنة (١٩٣١م)، من أجل مناقشة الخطر الصهيوني في فلسطين، وإنشاء جامعة إسلامية في مدينة القدس تحمل اسم جامعة المسجد الأقصىٰ؛ لتقف في وجه الجامعة العبرية التي أسسها اليهود في فلسطين، وكانت تحتكر التعليم العالي فيها[2].

وبعد حياة مليئة طويلة ـ كما رأينا ـ بالكدِّ والعمل والنشاط من أجل خدمة الإسلام، وترقية المسلمين أفراداً ومجتمعات، وإصلاح أحوالهم في كافة المجالات، لبّىٰ الشيخ رشيد رضا نداء ربه بنفس راضية مطمئنة في (٢٣) جمادىٰ الأولىٰ سنة (١٣٥٤هـ) الموافق لـ (٢٢) آب سنة (١٩٣٥م)، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي به مصلحاً عن أمته[3].

ـ مؤلفات رشيد رضا:

ترك لنا رشيد رضا تراثاً ضخماً من الكتب والمؤلفات يدل على ضخامة الجهود التي كان يبذلها في سبيل توضيح أفكاره والدعوة إليها، وعلى عمق ثقافته وتنوعها وشمولها، كما يدل على قدرة كتابية نادرة المثال[4]، وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه المؤلفات ـ ومن بينها تفسيره ـ كانت في الأصل مقالات موسّعة، نشرها في حلقات متتابعة في مجلته المنار.

---

(١) انظر: **«رشيد رضا تاريخ وسيرة»**، أنيس أبيض، طرابلس، جروس بروس، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، (٧٩ـ ٩٢).

(٢) **«رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية»**، أحمد الشوابكة، (٣٤٩ـ ٣٥٤).

(٣) انظر: **«المرجع السابق»**، أحمد الشوابكة (٣٨).

(٤) انظر: **«السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة»**، شكيب أرسلان (٨ـ ١٣)، وانظر أيضاً: **«تفكير محمد رشيد رضا»**، محمد صالح المراكشي (٦٣ـ ٧٢).

من أبرز مؤلفاته:

١ـ «تفسير المنار» في اثني عشر مجلداً.

٢ـ «الوحي المحمدي».

٣ـ «الخلافة أو الإمامة العظمىٰ».

٤ـ «المنار والأزهر».

٥ـ «تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده»، في ثلاثة مجلدات.

٦ـ «محاورات المصلح والمقلد».

٧ـ «يُسر الإسلام وأصول التشريع العام».

٨ـ «الوحدة الإسلامية والأخوّة الدينية».

٩ـ «نداء للجنس اللطيف، حقوق النساء في الإسلام».

١٠ـ «رسالة الربا والمعاملات في الإسلام»[١].

وقد جمع صلاح الدين المنجد[٢] ويوسف خوري[٣] فتاويه الدينية من مجلته المنار، وأصدراها في ستة مجلدات كبيرة، كل هذا فضلاً عن عدد كبير من الكتب التراثية التي قام بنشرها نشرات علمية موثقة، ومئات المقالات في كافة المجلات الدينية والسياسية والاجتماعية والتربوية والأدبية، تابع فيها رشيد رضا شؤون ومشاكل العالم الإسلامي في عصره، ويمكننا اعتبار هذه

---

(١) انظر: «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة»، شكيب أرسلان (٨ـ١٣)، وانظر أيضاً: «تفكير محمد رشيد رضا»، محمد صالح المراكشي (٦٣ـ ٧٢).

(٢) صلاح الدين المنجد: باحث سوري معاصر، من كتبه: «معجم ما أُلف عن رسول الله ﷺ»، «العقل في الإسلام».

(٣) يوسف خوري: باحث لبناني معاصر، قام بالاشتراك مع صلاح الدين المنجد بإصدار «فتاوىٰ رشيد رضا الدينية في مجلة المنار» في ستة مجلدات.

المقالات من أفضل الوثائق التاريخية لدراسة التحولات التاريخية التي شهدها العالم الإسلام في الثلث الأول من القرن العشرين، وما زالت تؤثر فيه حتى أيامناالحالية[١].

- **الرؤية الإصلاحية عند رشيد رضا:**

يمكننا أن نركّز المحاور التي استندت إليها الرؤية الإصلاحية عند الشيخ رشيد رضا في النقاط التالية:

أولاً- الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة بعيداً عن التأويلات المتعسِّفة لهما.

يقول رشيد رضا في «تفسيره»: «إن المسائل الدينية المحضة، وهي العقائد والعبادات، تؤخذ من نصوص القرآن، وبيان السنة لها بالقول أو العمل على الوجه الذي كان عليه الصدر الأول من الصحابة»[٢].

ثانياً- الدعوة إلى الاجتهاد، والاستقلال في التفكير، ونبذ التقليد، والهجوم على المقلدين[٣].

ثالثاً- الدعوة إلى الشورىٰ وضمان العدل، ومحاربة الاستبداد والطغيان في كل صورهما.

يقول رشيد رضا: «وإنما مثار المفاسد كلها أن يوسَّد الأمر إلى غير أهله، وأن يُقَرَّ على المُلك كل متغلّب، ويرضىٰ بتقليده كل جائر جاهل، فهذا هو

---

(١) انظر: «**مختارات سياسية من مجلة المنار**»، وجيه كوثراني، بيروت، دار الطليعة، (١٩٨٠م)، (١٤-١٦).

(٢) «**تفسير المنار**»، محمد رشيد رضا (٧/ ١٩٨).

(٣) انظر ما كتبه ونقله رشيد رضا في «**تفسيره**» في الفصل الذي سمّاه: «فصل في بيان بطلان التقليد وشبهات أهله» (٧/ ٢٠٥- ٢١٠).

الذي أَضاع على المسلمين دينهم ودنياهم»[١] .

رابعاً ـ الدعوة إلى اعتماد التربية والتعليم، ونشر الأفكار والمفاهيم الصحيحة كأفضل وسيلة، وأقوم طريقة لمعالجة أمراض الأمة الإسلامية، وإخراجها من حمأة التخلف، ووهدة الجهل والتفرُّق[٢] .

خامساً ـ الدعوة إلى الجمع بين «الرجوع إلى عقيدة السلف، وبين الارتياح إلى المتجددات العصرية دون أدنىٰ حرج، أخذاً بما حثَّ الله ـ تعالى ـ عليه من طلب العلم، وما ندب إليه من التعمق في أسرار الكون»[٣] .

هذه هي أهم أركان المذهب الإصلاحي الذي اجتهد رشيد رضا في سبيل توضيح أفكاره، والدعوة إليه بكافة الوسائل المتاحة بين يديه؛ من إصدار مجلة، ونَشْرِ كتب ومؤلفات، وإنشاءِ جمعيات ومدارس، والقيام برحلات، ومشاركةٍ في مؤتمرات، وإقامة علاقات وحوارات مع رجال سياسة وفكر، كل ذلك من أجل العمل على نهضة المسلمين، واستئناف الدور التاريخي للإسلام على مسرح العالم والحضارة الإنسانية.

ولمعرفة الدور الكبير الذي اضطلع به رشيد رضا في الفكر الإسلامي الحديث، والمكانة المرموقة التي وصل إليها بجهده وإخلاصه واجتهاده، نذكر الشهادة التالية بحقه من قبل أحد العلماء المعاصرين:

«نبغ الإمام السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ نبوغاً مبكراً، أحلَّه مرتبة الاجتهاد، والاستقلال في الرأي منذ شبابه، وكان «منارُه» طوال خمس وثلاثين سنة محط أنظارالمنوِّرين من رجال الدين وغيرهم من المثقفين في العالم

---

(١) «تفسير المنار»، رشيد رضا (٧/ ١٩٨).

(٢) انظر: «السيد رشيد رضا»، شكيب أرسلان (١٧٥ـ ٢٥٣).

(٣) المرجع السابق، شكيب أرسلان(٢٥٣).

الإسلامي، يتلقفونه بلهفة، وينتظرون موعد صدوره ليعبّوا من معينه حقائق الشريعة الصافية، والذين تتبعوا تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية في الثلث الأول من القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي، يعرفون أن محمد رشيد رضا كان ـ بحق ـ الإمامَ الأول الذي خلّف أكبر دائرة معارف إسلامية، لم يترك بحثاً من بحوث العقل والنقل والدين إلا وساقه بكثير من التجرد الإنصاف والعمق والفهم»[1].

المطلب الثاني
تفسير المنار

سنتناول في هذا المطلب الظروف والأحداث التي أدت برشيد رضا إلى كتابة تفسيره، ومن ثَمَّ سنحاول الوقوف على الخصائص والملامح التي تطبع منهج رشيد رضا في التفسير، وتُميّزه عن غيره من التفاسير، وأخيرا سنتطرق إلى الأثر الذي تركه هذا التفسير بعد وفاة صاحبه.

أولاً ـ قصة تفسير المنار:

منذ أن وصل رشيد رضا إلى القاهرة اقترح على شيخه محمد عبده أن يكتب تفسيراً للقرآن الكريم، لكن الشيخ عبده رفض هذا الاقتراح قائلاً: «إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات، ولعل العمل لا يتسع لتفسير كامل»[2].

---

(١) «**جمال الدين القاسمي وعصره**»، ظافر القاسمي، دمشق، مكتبة أطلس، (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، (٤٤٢).

(٢) «**تفسير المنار**»، رشيد رضا (١/ ١٢).

ثم اقترح عليه أن يكتب تفسيراً يقتصر فيه على حاجة العصر، ويترك كل ما هو موجود في كتب التفسير السابقة، ويبين ماأهملوه فيها، رفض محمد عبده هذا الاقتراح أيضاً محتجاً أن: «الكتب لا تفيد القلوب العمي»، وأنه قد سبقت له محاولات في تدريس التفسير، لم يهتم لها أحد، مع أنها كان من حقها أن تدوَّن وتكتب، ولكن رشيد رضا لم ييئس من محاولة إقناع شيخه بقراءة هذا التفسير حتى «اقتنع بقراءة التفسير في الأزهر، وبدأ بالدرس في غرة المحرم سنة (١٣١٧هـ)، وانتهى منه في منتصف المحرم سنة (١٣٢٣م)، عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ من الآية: ١٢٦ من سورة النساء، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ستة سنين»[١].

وكانت طريقة محمد عبده في التفسير «أن يتوسع فيه فيما أغفله، أو قصَّر فيه المفسرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة، وفي الروايات التي لا تدل عليها، ولا تتوقف على فهمها الآيات، ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرها، أو ينتقد منها مايراه منتقداً، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنىً واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة»[٢].

وكان رشيد رضا في أثناء دروس محمد عبده يدوّن أهم ما يسمعه منه في مذكرات خاصة، ثم بدأ ينشر ما جمعه فيها ابتداءً من أول محرم سنة (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م)، وذلك في المجلد الثالث من مجلة المنار.

ولم يكتف رضا في أثناء حياة شيخه بالنقل عنه، وتدوين أفكاره وآرائه

---

(١) «تفسير المنار» رشيد رضا (١/ ١٤).

(٢) «تفسير المنار» رشيد رضا (١/ ١٥)، لمعرفة تفاصيل منهج محمد عبده في التفسير، يمكن الرجوع إلى: «التفسير والمفسرون»، «محمد حسين الذهبي، ط٢، القاهرة، دار الكتب الحديثة، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، (٢/ ٥٥٢_ ٥٧٥).

فقط، بل كان يضيف إلى كل ذلك زيادات كثيرة، وكان يميز ـ في معظم الأحيان ـ أقواله عن أقوال محمد عبده، بقوله: «وأقول»، «وأنا أقول»، «وأريد الآن»، وبعد وفاة محمد عبده سنة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)، استقلَّ رشيد رضا بكتابة التفسير، وخالف منهج أستاذه «فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة»[1].

وتجدر الإشارة إلى أن رشيد رضا كان ينوي القيام بتفسير كامل للقرآن الكريم، ويظهر هذا جلياً من كلامه في نهاية كل مجلدات تفسيره الاثني عشر، وذلك عندما كان يطلب من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعينه على إتمام هذا التفسير، لكن قضاء الله ـ تعالىٰ ـ حال دون تنفيذ ما كان ينوي ويضمر؛ إذ توفاه الله ـ تعالىٰ ـ بعد فراغه من تفسير قوله ـ تعالىٰ ـ من سورة يوسف: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[2].

ثانياً ـ منهج رشيد رضا في تفسير المنار:

لا نستطيع أن نقرر ـ بشكل قاطع ـ أن للشيخ رشيد رضا منهجاً موحّداً، اتبعه في كامل تفسيره؛ لأنَّ ما فسَّرَه كان في مدة تزيد على الثلاثين عاماً ـ مابين (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩ـ ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) ـ وهذه مدة طويلة تمنع ـ على الأرجح ـ أيَّ مفسِّر من اتِّباع خطة تفصيلية موحّدة يلتزم بها في كل ما يفسره، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستخرج الملامح الرئيسة لمنهجه في التفسير، والتي إنْ زاد

---

(١) «تفسير المنار»، رشيد رضا (١/ ١٦).

(٢) سورة يوسف: ١٠١، وانظر: «التفسير والمفسرون»، محمد حسين الذهبي (٢/ ٥٧٧).

عليها في بعض الأحيان، ولكنه لم يخالفها على الإجمال في كامل تفسيره.

وهذه الملامح هي:

١ـ كان رشيد رضا يلجأ في تفسيره للآيات الكريمة إلى القرآن الكريم نفسه أولاً مؤكداً أنَّ «الآيات يفسِّر بعضها بعضاً إذا نحن أخذنا القرآن بجملته كما أُمرنا»[١]، ثم كان يلجأ بعد ذلك ـ كما صرح هو ـ إلى سنة رسول الله ﷺ، وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في الصدر الأول، وبأساليب لغة العرب، وسُنن الله في خلقه»[٢].

٢ـ حرص ـ في بداية تفسير كل مجموعة من الآيات الكريمة ـ أن يربط هذه الآيات ربطاً منطقياً محكماً بمجموعة الآيات التي تسبقها، أو بموضوع السورة الرئيس الذي تتحدث عنه مجمل آيات السورة، وبذلك عمل رشيد رضا على إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، والسياق الواحد الذي يؤلف بين آياتها[٣].

٣ـ حرص ـ عندما تتعرض الآية التي يفسّرها لقضيةٍ ما ـ أن يسرد ويحلّل ـ بشكل موجز ـ معظم الآيات الكريمة الأخرى التي تتحدث عن القضية نفسها، وبذلك يكون رضا من أوائل من تنبَّه لأهمية التفسيرالموضوعي للقرآن الكريم في العصر الحديث.

٤ـ اعتنى بذكر وتمحيص روايات أسباب النزول عند ورودها، واهتم بذكر القراءات القرآنية عند وجودها، كما كان حريصاً على ذكر الأحادث النبوية التي تدور في فلك الآية أو الآيات التي يفسرها، ولم يَغْفُل ـ عند ذكره لهذه

---

(١) **«تفسير المنار»**، رشيد رضا (٢/ ٢٥٩).

(٢) **«تفسير المنار»**، رشيد رضا (٦/ ١٩٦).

(٣) انظر على سبيل المثال تقريره لارتباط آية الدَّيْن الطويلة بما سبقها من آيات الحثّ على الصدقة وتحريم الربا في آخر سورة البقرة **«تفسير المنار»** (٣/ ١١٨ـ ١١٩).

الأحاديث ـ عن التعليق عليها، ونقد أسانيدها، وتمحيص رواتها، هذا فضلاً عن تخريجها، وعَزْوِها إلى مصادر الحديث المعتمدة[1].

٥ـ لم يتوسَّع في نقل أقوال النحاة في إعراب الآيات القرآنية الكريمة إلا ما كان منها ضرورياً لبيان بلاغة القرآن الكريم، ودقة تعبيره في بعض المواضع[2].

وبشكل عام فإن رشيد رضا لم يكن يُكثر النقل عن السابقين في المجلدات الأولى من تفسيره، ولكنه ـ وابتداءً من المجلد السابع ـ بدأ يُكثر وينقل بإسهاب من الكتب والتفاسير السابقة، وخصوصاً كتب ابن حزم (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، وابن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، وابن قيِّم الجوزية[3] (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وابن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، والغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م)، والرازي (ت٦٠٦هـ/ ١٢١٠م)[4].

٦ـ كان يحرص على أن يخلو تفسيره ـ ما أمكن ـ من اصطلاحات العلوم والفنون، وكان يسعى إلى مراعاة السهولة والجمال في التعبير، بحيث يتمكن القارىء العادي من فهم عباراته، ويقف دون صعوبة على مراده منها، وبذلك استطاع تفسيره أن يحقق الهدف الذي أراده له رشيد رضا منه، وهو أن يتدبَّر القارىء القرآن الكريم، ويهتدي به، ويُعينه على «النهوض بإصلاح أمته،

---

(١) انظر: على سبيل المثال: «تفسير المنار» (٣/ ٨٢ـ٩١).
(٢) انظر: «تفسير المنار»، (١٠/ ٥٢٤).
(٣) ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م): هو محمد بن أبي بكر الزُّرعي الدمشقي، مولده ووفاته في دمشق، من كبار الفقهاء والعلماء، من كتبه: «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، «أحكام أهل الذمة». انظر: «**الأعلام**»، خير الدين الزركلي (٦/ ٥٦).
(٤) انظر ما نقله عن ابن حزم وابن القيم: «تفسير المنار»، (٧/ ١٥١ـ١٩١).

وتجديد شباب ملّته الذي هو المقصود بالذات منه»[1] .

٧ـ لم يكن رشيد رضا يتحرَّج ـ في مواضع كثيرة ـ من مناقشة وانتقاد شيخه محمد عبده في بعض آرائه، وخاصة في الأمور والمسائل العقدية التي مال فيها عبده عن مذهب السلف[2]، فهو لا يسلِّم له تسليماً مطلقاً، ولا يؤيِّد كلامه ـ عندما يؤيده ـ إلا بعد قناعةٍ منه، واتفاقٍ معه بالرأي، وليس عن طريق التقليد المحض الذي سبق أن ذمَّه كثيراً، وبهذا نعلم أن رشيد رضا كان يحتفظ بشخصيته المستقلة العلمية حتى وهو ينقل كلام أستاذه.

٨ـ بسبب انشغال رشيد رضا بقضايا الإصلاح، وبسبب إحساسه بضرورة التحقيق العلمي لكثير من المسائل التي كانت تشغل المسلمين في عصره، كان يخرج عن سياق التفسير، ويقوم ببعض الاستطرادات الموسَّعة[3]؛ «لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يُثبِّتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحلُّ بعض المشكلات ـ التي أَعيَا حلُّها ـ بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس»[4] .

٩ـ قام بربط تفسير الآيات ومضمونها بواقع المسلمين، واتخذ من تفسير الآيات وسيلة لتنبيه المسلمين وتذكيرهم بالواجبات الملقاة على عاتقهم، وكثيراً ما كان يستفيد من هذا الربط، ويقوم بالانتقاد الشديد لمعظم علماء

---

(١) «تفسير المنار»، رشيد رضا(١/ ١٦).

(٢) انظر مناقشته لمحمد عبده في الفرق بين الذنب والسيئة: «تفسير المنار» (٤/ ٣٠٢ـ ٣٠٤)، وانظر انتقاده له في مسألة «العُلو»، وانتصاره لمذهب السلف في تقرير هذه المسألة: «تفسير المنار» (١/ ٣٩٥).

(٣) انظر البحث الموسَّع الذي عقده تحت عنوان: «آية الله الكبرىٰ ـ القرآن العظيم» في أثناء تفسيره لسورة يونس: «تفسير المنار»(١١/ ١٩٥ـ ٢٩٣).

(٤) «تفسير المنار»، رشيد رضا (١/ ١٦).

وشيوخ عصره الذين تمسكوا بالتقليد، وابتعدوا عن الاجتهاد، ولم يقوموا بدورهم في تذكير المسلمين، وربط حياتهم بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة[1].

١٠ـ حرص في نهاية تفسير كل سورة ـ تقريباً ـ على كتابة خلاصة إجمالية لأحكامها ومقاصدها، يركّز فيها ـ بشكل خاص ـ على السُّنن الإلهية الكثيرة التي أوردها في ثنايا الآيات المفسَّرة[2]؛ بحيث يمكننا القول: إنَّ استنباط السُّنن الإلهية ـ في الخلق والتكوين، وفي الاجتماع والعمران البشري وشؤون الأمم ـ من القرآن الكريم، من أهم وأبرز السِّمات والخصائص التي تَميَّز تفسير المنار بها عن مختلف التفاسير الأخرىٰ[3].

ثالثاً ـ مكانة تفسير المنار:

حظي «تفسير المنار» بعد وفاة صاحبه باهتمام وعناية عدد كبير من العلماء المسلمين الذين اتخذوا منه مرجعاً لا غنىٰ عنه في دراسة القرآن الكريم، ويظهر تأثيره في هؤلاء العلماء بشكل جوهري من خلال دعوته إلى ضرورة الإصلاح والتجديد، والعمل على إنهاض المجتمعات الإسلامية من خلال الفهم العلمي السليم لمعاني القرآن الكريم، واستلهام هذه المعاني في سبيل نقد وتغيير واقع الأمة الإسلامية، وإرشادها إلى عوامل النهوض والتجدد الحضاري وفق السُّنن الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم[4].

---

(١) انظر: **«تفسير المنار»** رشيد رضا (١١/ ٣٤٨ـ٣٤٩).

(٢) انظر ـ على سبيل المثال ـ: خلاصة سورة الأعراف، **«تفسير المنار»** (٩/ ٥٥٩ـ٥٨٥).

(٣) انظر: **«منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم»**، عبد الله شحاته، القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م)، (٢٤١ـ٢٤٣).

(٤) من التفاسير المعاصرة التي تأثرت بالروح الإصلاحية المتوهجة في «تفسير المنار»، =

ولعل فيما قاله الشيخ محمد الغزالي[1] (ت١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م) عن هذا التفسير وعن صاحبه، دليلاً واضحاً على الأثر البالغ الذي تركه، وما زال يتركه هذا التفسير وصاحبه في الحياة الإسلامية المعاصرة.

يقول محمد الغزالي: «أتردد على تفسير المنار بين الحين والحين لأتعلم منه مالم أكن أعلم، وهو ـ في نظري ـ موسوعة ثقافية موّارة بالأبحاث التي تشمل الدّين كله، إنَّ صاحب المنار استوعب مذاهب المفسرين، من تفسيرٍ بالأثر، إلى تفسير فقهي، إلى تفسير بلاغي، إلى تفسير كلامي، ومن المختصرات إلى المبسوطات، ثم ضمَّ إلى ذلك علماً بآراء المذاهب الفقهية الكثيرة، إلى تعقيدات الأصوليين الذين نبغوا في شتى العصور، إلى ما جدَّ في العالم الإسلامي بعد احتكاكه بالمجتمعات الحديثة، وكان الرجل صاحب فكر متميز، ومقولة مدعومة في هذه المجامع العلمية، فما غرّه بريق، ولا هالته كثرة، وكان بصيراً بعلل الضعف التي انتابتنا، ومداخل الشيطان في حياتنا، وكان عميق الشوق إلى إحياء العقل الإسلامي، والعودة به إلى نقاء السلف الأول»[2].

❑ ❑ ❑

= والتي حَذَت حذوه في البحث عن السُّنن الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم، تفسير «في ظلال القرآن»، للأستاذ سيد قطب (ت١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

(١) محمد الغزالي (ت١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ولد في «البحيرة» بمصر، وتوفي في «الرياض»، مفكرٌ إسلاميٌّ معاصر، من كتبه: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»، «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»، «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»، انظر: «**الشيخ محمد الغزالي: تاريخه وجهوده وآراؤه**»، عبد الحليم عويس، دمشق، دار القلم (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، (٧ـ١٥).

(٢) «**علل وأدوية**»، محمد الغزالي، ط٢، دمشق، دار القلم، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، (١١٦، ١٢٢ـ١٢٣).

الفصل الثالث

مفهوم السُّنَن الإلهية
ومدى الحاجة إليها عند رشيد رضا

سنتناول في هذا الفصل ـ عبر مباحثه الأربعة ـ الجوانب النظرية المتعلّقة بمفهوم السُّنن الإلهية التي عالجها رشيد رضا في مواضع متفرقة في تفسيره، وفي فترات متباعدة، وضمن سياقات مختلفة، ولكننا ـ على الرغم من ذلك ـ سنلاحظ أنه تطرَّق إلى معظم القضايا التي ينطوي عليها هذا المفهوم، من تعريفٍ له، وتحديدِ أهم خصائصه، والإشارة إلى الوسائل والطرق التي تؤدي إلى معرفته، وسنلاحظ أنه قد أفاض في التنويه بأهمية السنن الإلهية، والدعوة إلى تدوينها، ووجوب العمل بمقتضاها.

المبحث الأول
تعريف مفهوم السُّنن الإلهية

في الحقيقة لم يقدّم لنا رشيد رضا بين دفتي تفسيره تعريفاً محدّداً ومتكاملاً لمفهوم السُّنن الإلهية، يوضّح فيه ماهيته، وخصائصه الرئيسة، كما فعل بكثير من المفاهيم والمصطلحات العلمية الأخرىٰ التي حفل بها تفسيره، وأظن أنّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ عناية رشيد رضا بهذا المفهوم كانت متجِهة إلى جوانبه التطبيقية أكثر من اهتمامه بإيضاح مضامينه النظرية.

ومهما يكن من أمر، فإنّ كل ما وجدناه له ـ في مجال التعريف بهذا المفهوم ـ هو تعريف لغوي دقيق لكلمة «السُّنن» على النحو التالي:

«أقول: السُّنن: جمع سنة، وهي الطريقة المعبَّدة، والسيرة المتَّبعة، أو المثال المتَّبع، قيل: إنها من قولهم: سَنَّ الماء: إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب؛ فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد»[1].

ثم أراد أن يوضّح لنا مدى انطباق هذا التعريف اللغوي على ما يجري في الأمم والاجتماع البشري فقال: « أي: إنّ أمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل، وما يتبع ذلك، من الحرب والنزال والمُلك والسيادة وغير ذلك، قد جرىٰ على طرق قويمة، وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام»[2].

ومن أجل توضيح هذا المفهوم في ذهن القارىء، فقد كرَّر رشيد رضا ـ في مواضع كثيرة في تفسيره ـ أن السُّنن الإلهية هي: النظام الإلهي، وهي الأقدار التي يقوم عليها هذا النظام في الكون والأمم والمجتمعات البشرية، وأنها هي القانون العقلي الذي يتحكّم بأخلاق البشر وطباعهم.

وبكلمة موجزة فإن السُّنن الإلهية هي: أوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكوينية التي لا تتبدل ولا تتحول، والجارية في هذا الكون بما فيه من بشر وجماعات، والتي تجري بموجبها الروابط والعلاقات التي تنشأ بينهم، وهي أحكام الله ـ تعالىٰ ـ الفعلية الجارية في الخلْق، والتي يفصل فيها بينهم بمقتضى عدله، وهذه الأوامر التكوينية، والأحكام الإلهية الفعلية، هي القسيم المقابل لأحكام الله ـ تعالى ـ التكليفية المودعة في الكتاب والسُّنَّة[3].

وهكذا نستطيع أنْ نستنتج ـ من كل ما سبق ـ أنّ السُّنن الإلهية عند رشيد رضا

---

(١) «تفسير المنار»، رشيد رضا (٤/ ١٤٠).

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) انظر على سبيل المثال: المواضع التالية في «التفسير» (١/ ٤١، ٤/ ١٦٧، ٧/ ٢٣٦، ١٢/ ٢٣٦، ٨/ ٥٣٣).

هي: قوانين الله ـ تعالىٰ ـ الجارية في الكون، وفي البشر أفراداً وجماعات وأمماً وفق نظام ثابت لا يتغير.

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنّ رشيد رضا ـ وبناءً على فهمه الشامل الذي شرحناه للسنن الإلهية ـ كان ينوّع استخدامه للتعابير والاصطلاحات في الإشارة والدلالة على هذه السنن، من مثل: سُنن الكائنات، سُنن الاجتماع وطبائع الأمم، السُّنن الربانية للاجتماع الإنساني، نواميس العمران وطبائع الملل، قواعد عامة في أحوال الأمم[1].

المبحث الثاني

خصائص السُّنن الإلهية

في الحقيقة فإننا نفاجأ ـ هنا أيضاً ـ بأن رشيد رضا ـ على الرغم من كثرة ما أطلق على السُّنن من صفاتٍ وخصائص ـ فإنّه لم يحاول مرة واحدة أن يقف عند إحدى هذه الخصائص، ويعطيها حقها من التحليل والدراسة، بل على العكس من ذلك، فقد وجدناه ـ في بعض الأحيان ـ لا يستعمل بعض هذه الخصائص بشكل منضبط ومحدَّد، فنراه مثلاً يصف السُّنن ـ في بعض الأحيان ـ بالاطّراد حيث كان ينبغي عليه أن يصفها بالثبات، ويصفها بالثبات حيث كان ينبغي عليه أن يصفها بالاطّراد[2]، ونراه ـ أحياناً ـ يصف شمول السُّنن وعمومها بالاطّراد[3]، مع أنه في مواضع أخرى يستخدم وصف عموم السُّنن في مكانه، وعلى أمثلته الصحيحة.

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢٥١، ٨/ ٣٥، ٥/ ٢٨٨، ٩/ ٢٦).

(٢) انظر على سبيل المثال: «تفسير المنار» (١/ ٢٥٩، ٣٤٤، ٤١٣، ٥/ ١٥٤)، وسأقوم بتوضيح معنىٰ ثبات السُّنن واطّرادها في ثنايا هذا المبحث.

(٣) انظر على سبيل المثال: «تفسير المنار» (١/ ٦٨، ١٢/ ٢٤٣).

على كلٍّ فإنه يمكننا ـ من خلال متابعة ما نثَّره رشيد رضا في تفسيره عن خصائص السُّنن الإلهية ـ أن نستخلص ونستنتج هذه الخصائص الرئيسة التي ألحَّ كثيراً على تأكيد اتّصاف السُّنن بها، وهي:

١ـ الربانيّة: أشار رشيد رضا إلى ربانيّة السُّنن؛ أي: إلى أن هذه السُّنن باعتبارها قوانين نافذة، فإنها لا تفعل وتسري في الكون من تلقاء نفسها، وهي لم توجد أصلاً بالصدفة، أو من الطبيعة، بل إن الذي خلقها ووضعها هو الله ـ تعالى ـ خالق كل شيء وَفق إرادته ومشيئته وحكمته في هذا الكون، وهو الحاكم لها، والمتصرِّف بها وحده، لا شريك له في ذلك.

«إن السُّنن والنواميس لا تحكم على واضعها ومدبّرها، وإنما هو الحاكم المتصرّف بها»[1]؛ «لأنه هو واضع الأسباب، والسُّنن»[2].

وبناءً على هذه الحقيقة، فإن العلم بهذا السُّنن وحده ـ مهما علت قيمته ـ لا يُغني أبداً عن هداية الدين الذي أنزله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولا يمكن للبشرية أبداً أن تستغني عن أحكام هذا الدين بدعوى الاكتفاء بالعمل بموجب سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق؛ إذ أنه لا يوجد بينهما تعارض أصلاً، ومن أين يمكن أن يأتي هذا التعارض إذا كان مصدرهما واحداً، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ فأحكام الشريعة هي أوامره وأحكامه التكليفية المودَعة في دينه الذي أنزله على خاتم رسله محمد ﷺ، والسنن هي أوامره وأحكامه التكوينية في الكون وما فيه من مخلوقات وأحياء[3].

يقول رشيد رضا:

«وأما الإفرنج، فهم ـ وإن كانوا على علم واسع بسُنن الله في أحوال البشر

---

(١) «تفسير المنار» رشيد رضا (١/ ٣١٥).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٧٨).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٢٤٣).

وسائر أمور الكون ـ قد نالوا به ملكاً عظيماً في الأرض، فأكثرهم يجهل مصدر هذه السنن وحكم الله فيها، إن العلم بسنن الاجتماع والعمران لا يُغني عن هداية الدين التي تُوقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجمحَ إلى ما لا غاية له من الشر»[1].

ويقول: «فله ـ تعالىٰ ـ كتابان: في أحدهما نظام التكوين، وفي الآخر بيان التكليف، فكتاب التكليف يبيّن لنا ما نحن محتاجون إليه مما يفتح لنا أبواب العلم بما في كتاب التكوين، وكل منهما كتاب مبين»[2].

٢ـ الحاكمية: أي: إن السُّنن الإلهية ـ باعتبارها إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأحكامه الفعلية، وأوامره التكوينية في الخلق ـ فلا رادَّ ولا دافع لها، بل هي جارية على الخلق والمخلوقات جميعاً دون تمييز بين مؤمنهم وكافرهم، وهي تجري بنفس الوتيرة أيضاً على صفوة خلق الله ـ تعالىٰ ـ؛ أي: على أنبيائه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: «إنَّ الأنبياء والرسل كسائر البشر في الخضوع لسنن الله ونظام خلقه»[3].

ويتجلى لنا من خلال هذه الحاكمية الشاملة مدى عدل الله ـ تعالىٰ ـ المطلق بين خلقه، فهو يعاملهم جميعاً بنفس الميزان، ولا يميِّز أحداً عن أحدٍ، مهما علا قدره، أو ارتفع شأنه، وبذلك نعلم ـ أيضاً ـ أن العدل هو أساس أحكام الله ـ تعالىٰ ـ التكوينية ـ وهي هنا السُّنن ـ كما هو أساس أحكامه التكليفية.

وهكذا فإذا قام أي إنسان ـ بغض النظر عن دينه أو لونه. . ـ بتحقيق مقتضَيات سنةٍ ما، فإن الله ـ تعالىٰ ـ لن يحرمه آثار هذه السُّنة، وإذا قصَّر أيُّ

---

(١) انظر: **«تفسير المنار»** (٩/ ٢٠).

(٢) **«تفسير المنار»** (١٢/ ٢٣٦)، وانظر: **«السنن التاريخية في القرآن»**، محمد باقر الصدر (٦٨ـ ٧١).

(٣) **«تفسير المنار»** (٤/ ١٦٣).

مسلم ـ حتى لو كان من أهل التقوى والورع ـ في تحقيق مقتضيات سُنة ما، فإنه لن يظفر بآثار هذه السُّنة، ولن يشفع له إيمانه ولا تقواه في ذلك بشيء.

ويستشهد رشيد رضا على ذلك بما قاله محمد عبده:

«إنَّ لسِيَر الناس في الحياة سُنناً يؤدي بعضها إلى الخير والسعادة، وبعضها إلى الهلاك والشقاء، وإنَّ من يتبع تلك السُّنن، فلا بد أن ينتهي إلى غايتها، سواء كان مؤمناً، أو كافراً»[1].

ويؤكّد رضا هذا الكلام بما حدث في غزوة أُحد عندما قال: «وليعلموا أنّ الله العظيم الحكيم لا يُحابي في سُننه المطّردة في نظام خلقه مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً لأجل اسمه ولقبه، أو لانتسابه بالاسم إلى أصفيائه، بل كانت سُننه حاكمة على أولئك الأصفياء أنفسهم، حتى إن خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وعليهم ـ قد شُجَّ رأسه، وكُسِرت سنُّه، ورُدّي في الحفرة يوم أُحد؛ لتقصير عسكره فيما يجب من نظام الحرب»[2].

٣ـ **الثبات**: أي: تبقى السُّنن في كافة المجالات على ما وضعها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه أول مرة، دون أن يطرأ عليها أي تبديل أو تغيير، وهي مستمرة على هذه الحال من الثبات حتى يرث الله ـ تعالىٰ ـ الأرض ومن عليها ـ إلا أن يشاء الله تعالىٰ غير ذلك ـ وفائدة هذا الثبات واضحة للعيان، إذ لولا هذا الثبات، لَكَان معنى ذكر السُّنن نفسها في القرآن الكريم عبثاً، فما فائدة وجود السُّنن والعلم بها إذا كانت ستتغير من يومٍ إلى آخر؟ هذا فضلاً عن أنّه كيف سيتمكن الإنسان من إعمار الأرض، وتنفيذ شرع الله ـ تعالىٰ ـ فيها ـ وهي المهمة الرئيسة المنوطة به ـ في كونٍ لا ثبات في قوانينه، ولا استقرار في

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ١٤٢).
(٢) «تفسير المنار» (٥/ ١٥٤).

موازينه وطبائعه، فالذي يفعله الناس ويكتشفونه في الأمس قد يبطُل اليوم، وما يفعلونه، ويكتشفونه اليوم قد يصبح لا قيمة له غداً، وفي هذه الحالة تنعدم إمكانية تسخير الكون وإمكانية التواصل مع إنجازات السابقين، وبذلك تستحيل إمكانية بناء الحضارة وإعمار الأرض.

وقد استنتج رشيد رضا صفة الثبات من قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1]، وهكذا إذا كان خالق هذه السنن وواضعها، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي يُخبر عباده بأن سُننه لن يصيبها التغير ولا التبدل، وستبقى ثابتة وماضية في الخلق، فلا يوجد إذاً أيُّ مسوِّغ شرعي أو عقلي يسمح بالتشكيك بهذه الصفة أو التلاعب بها، إلا إذا أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غير ذلك، فهو الذي يضعها، وهو الذي يرفعها إذا شاء دون خلقه أجمعين[2].

٤ـ **العموم**: أي: إنَّ السُّنن شاملة وعامة، تعمُّ كل الكون ـ بما فيه من مخلوقات وأحياء ـ فسُنن الله ـ تعالىٰ ـ تسري في الكون المادي، والظواهر الطبيعية من رياح ومعادن وحرارة، وعالم النبات والحيوان، كما تسري بالدرجة نفسها في عالم البشر وعلاقاتهم ومجتمعاتهم وأممهم، هذا بالإضافة إلى أن لله ـ تعالىٰ ـ سُننا تجري في عالم الروح كما تجري في عالم المادة، وأنّ له سُنناً ـ وإن كانت من طبيعة مختلفة ـ تجري في الآخرة كما تجري في الحياة الدنيا.

---

(١) سورة فاطر: ٤٣، وانظر أيضاً: سورة الإسراء: ٧٧، وسورة الفتح: ٢٣، وسورة الأحزاب: ٦٢.

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ١٤٠ـ ١٤١، ١١/ ٣١٧، ٥/ ١٥٤، ٨/ ١٢، ٢٦، ٥/ ٢٢٣، ٦/ ٢٩٠. وانظر أيضاً: «أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق»، أحمد كنعان (٦٩ـ٧٧).

من هذا نفهم أنَّ سُنن الله ـ تعالىٰ ـ تبسط سلطانها ـ بمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ وإرادته ـ على كافة مخلوقات الله ـ تعالىٰ ـ دون استثناء، وبالدرجة نفسها، وأنَّ هذا الكون ـ بكل ما فيه ـ محكومٌ بقوانين واحدة تشهد على وحدة إرادة واضعها وعظيم قدرته[1].

يقول رشيد رضا: «وإن سُننه ـ تعالى ـ في فطرة الإنسان كسنته في فطرة سائر الحيوان والنبات»[2]، «وإنّ سُننه ـ تعالى ـ في نفوس الناس لا تقل عن سننه في غيرها نظاماً واطّراداً»[3].

ولكنَّ هذا لا يعني أن السُّنن نفسها التي تجري في الكون هي التي تجري في النفوس والمجتمعات، فلكلٍّ سُننه الخاصة به، وقد انتبه رشيد رضا إلى أن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الكونية أكثر وضوحاً للناس من سُننه المتعلقة بالناس أنفسهم؛ «فإن سُننه ـ تعالىٰ ـ في الفلك وسير الشمس والقمر وغيرهما بحسبان، وفي عالم الجماد والنبات والحيوان لا يعتريها من الشبهات ما يعتري السُّنن المتعلقة بنوع الإنسان، ولكنَّ الناس يغفلون عنها»[4].

٥ـ الاطِّراد[5]: هو استمرار وتتابع حصول السُّنة وتكرار آثارها في جميع الحوادث والظواهر المتماثلة والمتجانسة في طبيعتها على الوتيرة نفسها، بشرط توفر نفس الشروط، والظروف الموضوعية اللازمة لحصولها، أي: إن السُّنن

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٣ـ ٢٢٤، ١٢/ ٣٣٦، ١/ ٦٨).
(٢) «تفسير المنار» (٥/ ٢٧٠).
(٣) «تفسير المنار» (٤/ ٢٢٠ـ ٢٢١).
(٤) «تفسير المنار» (٧/ ١٢٠).
(٥) يقول الفيروزآبادي في قاموسه: «اطَّرد الأمر: تبع بعضه بعضاً، وجرىٰ، واطَّرد الأمر: استقام»، «القاموس المحيط» (٣٧٨).

قابلة للتكرار، ولا يمكن أن تتخلّف ـ بإذن الله تعالىٰ ـ كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع دون تحقيقها، وهذا يعني أيضاً أنه بإمكاننا أن نتنبأ مسبقاً بحدوثها، أو عدم حدوثها؛ من خلال معرفتنا بشروطها وموانعها، وأهم من هذا كله أنّه يمكننا أيضاً ـ بناءً على معرفتنا بهذه الصفة ـ أن نتحكّم بالسُّنن؛ أي: إذا أردنا حدوثها، فما علينا إلا أن نعمل على توفير جميع الشروط الضرورية لها، والعمل في الوقت نفسه على إلغاء كل الموانع التي تحول دونها، وإذا أردنا تفاديها، واجتناب آثارها، فعلينا الوقوف دون تحقيق شروطها اللازمة، أو العمل على إيجاد بعض الموانع التي تمنع حصولها، وهكذا نرى أن هذه الخاصّة تجعل التعامل مع السُّنن تعاملاً منضبطاً عن العشوائية والارتجال، وبعيداً ـ بالدرجة نفسها ـ عن اليأس والاستسلام[1].

فعلى سبيل المثال إذا أراد المسلمون المعاصرون تحقيق النصر والسيادة في الدنيا، فعليهم أن يعملوا على تحقيق كل شروط سنة الله ـ تعالىٰ ـ في النصر، وأن يجتهدوا في سبيل إلغاء كل الموانع التي تحول دون تحقيق هذه السنة، فإن فعلوا ذلك فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سيحقق نصره لهم كما حققه لأسلافهم الذين فعلوا الأمر نفسه من قبل[2].

ومن أجل إثبات اطّراد السُّنن واستمرارها، فقد أكد رشيد رضا أن ثبوت المعجزات للأنبياء، والرسل ـ عليهم السلام ـ لا ينافي اطّراد سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه؛ لأن لهذه المعجزات موجبات خاصة اقتضتها إرادة الله ـ تعالىٰ ـ وحكمته أدَّت إلى رفع اطّراد السنن في قضايا محدودة، وضمن ظروف خاصة،

---

(١) انظر: «**تفسير المنار**» (١٠/٤٧، ٢/٣١٩)، وانظر أيضاً: «**السنن التاريخية**»، باقر الصدر (٦٧ـ٦٨)، و«**أزمتنا الحضارية**»، أحمد كنعان (٧٧ـ ٨٢).

(٢) انظر: «**تفسير المنار**» (٥/١٣٨ـ١٣٩).

ولمدة يسيرة وهدف محدَّد، ثم عادت الأمور إلى نصابها، وعادت السنن إلى اطّرادها المستمر دون توقّفٍ أو رفع أو تغيير إلى أن يشاء الله ـ عزَّ وجلَّ[(١)] ـ .

المبحث الثالث

وسائل ومصادر العلم بالسُّنن الإلهية

لم يُشر رشيد رضا بدقة إلى الحدود الفاصلة بين المصادر والوسائل المؤدية إلى معرفة واكتشاف سُنن الله ـ تعالى ـ في الخلق، وهذا أمر طبيعي ومنطقي؛ لأن هذه المصادر نفسها لا تتمايز عن بعضها بصورة قطعية وحادة، بل هي تتداخل وتتقاطع فيما بينها، ولكن يمكننا ـ إذا تفحصنا الأمر جيداً ـ أن نميِّز بين مصدرين كبيرين لمعرفة السُّنن الإلهية عنده، هما:

١ـ **الوحي**: الذي نتعرف عليه من خلال القرآن الكريم ونصوص السُّنّة الصحيحة الثابتة.

٢ـ **الواقع**: أي: الوقائع المحسوسة والملموسة التي يمكن أن تخضع للدراسة والملاحظة، سواء أكانت هذه الوقائع تتعلق بالكون المادي، أم بالأنفس، أم بالمجتمعات، ويمكن أن نكتشف القوانين التي تحكم هذه الوقائع المختلفة من خلال علوم الكون والكائنات، والسير في الأرض، والتاريخ، وعلم الاجتماع والنفس[(٢)].

هذا مع التنبيه إلى أنّ أداة التعامل مع المصدر الأول تختلف ـ إلى حدٍّ ما ـ عن أداة التعامل مع المصدر الثاني، فالوسيلة التي تكتشف بها السُّنن الإلهية في

---

(١) انظر: «**تفسير المنار**» (٤/ ١٤٠ـ ١٤١، ١١/ ٣١٤ـ٣١٨). سأعود إلى دراسة مسألة سنن الله ـ تعالى ـ والمعجزات في مبحث مستقل في الفصل الرابع.

(٢) انظر: «**تفسير المنار**»، (١/ ١٣٥ـ ١٣٦).

المصدر الأول، هي حُسن الفهم والاجتهاد، وصواب الاستنباط من نصوص الوحي، طبعاً مع عرض هذا الاستنباط على الواقع، وتأكيده من خلال شواهد التاريخ.

أما المصدر الثاني، فوسيلته هي النظر العقلي الحر، والتفكير العلمي المستقل في ملاحظة الظواهر الكونية، واستقراء الظواهر البشرية والاجتماعية، هذا مع العلم بأن القرآن الكريم نفسه هو الذي دعا إلى استخدام العقل والتفكير والبحث عن هذه السُّنن، وذكر عدداً وافراً من هذه السُّنن في جميع المجالات والوقائع المادية والبشرية والاجتماعية، بالإضافة إلى أننا يمكننا التأكد من صواب اكتشافاتنا واستنتاجاتنا السُّننية في الكون والواقع من خلال عرضها على السُّنن المستنبطة من القرآن الكريم، وعدم معارضتها لما قرره، على اعتبار أنّ السُّنن القرآنية هي سُنن قطعية تصلح أن تكون معياراً للسُّنن المستخرجة بجهود بشرية محضة تبقىٰ عرضة للظن والاحتمال[1].

والآن لنتعرف على هذين المصدرين من وجهة نظر رشيد رضا:

١ـ الوحي: تُعد نصوص القرآن الكريم هي المصدر الأكبر والأوثق لمعرفة سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق، فالقرآن الكريم هو أول من أرشد الناس إلى أن الله ـ تعالى ـ سُنناً في خلقه، وأنّ هذا الكون بكل ما فيه من أحياء وكائنات ـ محكوم بصرامةٍ بهذه السُّنن التي لا تتبدل ولا تتحول، ولكن على الرغم من إشارة القرآن الكريم إلى أن سُنن الله ـ تعالى ـ تسري بنظام واطّراد في الأنفس والمجتمعات، إلا أنه لم يفصِّل القول في الإشارة إلى سُنن الله ـ تعالى ـ الكونية والمادية، وذلك لأن القرآن الكريم ـ هو أولاً وقبل أي شيء آخر ـ كتاب هداية

---

(١) انظر: «**تفسير المنار**» (٧/ ٢٣٦، ١/ ٢٣، ٩/ ٥٧٩، ١٢/ ٢٩٧، ١٢/ ٢٢، ٨/ ٢٩١، ٩/ ١٥)، وانظر أيضاً: «**منهج البحث الاجتماعي**»، محمد امزيان (٢٧٦ـ ٢٩٣).

وإرشاد للخلق لما فيه مصلحتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وليس كتاب فنون أو علوم تُقصد لذاتها[1].

«إن العلم التفصيلي بها [السُّنن الكونية] ليس من مقاصد الوحي الذاتية، وإنما هو من العلوم التي يصل إليها البشر بكسبهم وبحثهم، وإنما يكون الوحي مرشداً لهم إليها»[2].

والقرآن الكريم ـ عندما يشير بشكل عام ومجمل إلى هذه السُّنن والعلوم الكونية ـ إنما يهدف من وراء ذلك، ضمان إيماننا الراسخ بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُنشيء هذه السُّنن من جهة، وليدعونا من جهة ثانية إلى دراسة واستكشاف هذه السُّنن من أجل استخدامها وتسخيرها فيما يحقق مصلحة الإنسان وسعادته في المعاش والمعاد، فمن مقاصد القرآن: «الترغيب في علوم الكائنات، والإرشاد إلى البحث فيها؛ لمعرفة سُنن الله وحكمه فيها، وآياته الكثيرة فيها الدالة على علمه وحكمته ومشيئته وقدرته، ولأجل الاستفادة منها على أكمل الوجوه التي ترتقي بها الأمة في معاشها وسيادتها، وتشكر فضل الله عليها»[3].

أما السُّنن الإلهية الجارية في الأنفس والمجتمعات، فقد حرص القرآن الكريم ـ انسجاماً مع أهدافه في هداية البشر، وتغيير حياتهم نحو الأقوم في كل شيء ـ على ذكر نماذج كثيرة من سُنن الله ـ تعالى ـ في هذين الميدانين، ويمكن أن نعتبر هذه النماذج بمثابة أمهات وأصول السنن الإلهية المتعلّقة بالبشر أفراداً وجماعات، لكي يؤدي القرآن الكريم بحقٍّ رسالته في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولكي يعصم البشرية من الانزلاق إلى مهاوي الدمار والاندثار ـ إذا لم تعرف هذه السُّنن، ولم تلتزم بها ـ أو إذا اختلفت حول تقرير مضمونها.

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٢١٢، ١٢/ ٢٣٥ـ ٢٤٠).
(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٢)، وانظر أيضاً: المصدر نفسه (١/ ٢١٢).
(٣) المصدر نفسه (٨/ ٢٩٠).

وقد ترك القرآن الكريم ـ في الوقت نفسه ـ للإنسان الباب والمجال واسعاً ليقوم بالبحث عن تفاصيل هذه السُّنن الأمهات، وليكتشف ـ من خلال استعانته بالسير في الأرض، ودراسة التاريخ وعلوم الإنسان والاجتماع ـ سُنناً أخرىٰ تساعده أكثر فأكثر على معرفة نفسه وسلوكه، ومعرفة قوانين بناء وانهيار المجتمعات والحضارات التي يعيش فيها، وبذلك تزداد حصيلة الإنسان من المعرفة بهذه السُّنن، وبالتالي يكون أقدر على تحمل المسؤولية في إعمار الأرض، ونشر الحق والعلم والعدل والفضيلة فيها.

«أَجْمَلَ القرآنُ الكلام عن الأمم وعن السُّنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمالٌ صادر عمن أحاط بكل شيء علماً، وأمرنا بالنظر والفكر والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً»[1].

ويتجلىٰ اهتمام القرآن الكريم الشديد بإبراز سُنن الله في الأمم والمجتمعات، وإلحاحه على أهمية العودة إلى التاريخ، والسير في الأرض؛ لاكتشاف هذه السُّنن من خلال المساحة الكبيرة التي خصّصها لذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة؛ باعتبار هذه القصص أمثلة ونماذج واقعية تجسَّدت فيها سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الحاكمة والمطّردة، وبذلك تكون هذه القصص من أكبر المحرِّضات لنا للالتزام بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ، والأخذ بها، والتعامل معها بجدية كاملة، ومن أفضل وسائل الوقاية الحضارية مما حلَّ بالأمم والشعوب السابقة التي تنكَّبت عن العمل بهذه السنن[2].

وقد حدّد رشيد رضا من بين أهداف ذكر القصص في القرآن الكريم ما يلي:

---

(1) «تفسير المنار» (١/ ٢٣).

(2) «تفسير المنار» (١٢/ ٤٢).

«بيان سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في استعداد الناس النفسي والعقلي لكلٍّ من الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدى والضلال، وفي عاقبة الكفر والجحود والبغي والظلم والفسوق.

[و] بيان سُنن الله ـ تعالى ـ في الطباع والاجتماع، والتقدير والتدبير العام، وما في خلقه للعالم من الحكمة والرحمة والنظام، والعدل العام، وعدم محاباة الأفراد ولا الأقوام في نعيم الدنيا ونقمتها، ولا في الجزاء على الكفر والمعاصي، والإيمان والطاعات في الآخرة»[1].

٢ـ الواقع: قلنا: إنّ رشيد رضا قد حدّد الوسائل التي يمكن أن نستعين بها لاكتشاف السُّنن من الواقع، وهي العلوم الكونية، والتاريخ، والسير في الأرض، وعلوم النفس والاجتماع، وهو لم يألُ جهداً في الدعوة الملحَّة لدراسة هذه العلوم، والسير في الأرض من أجل القيام بهذه المهمة الكبيرة، وقد حرص ـ في أثناء تأكيده لأهمية دراسة هذه العلوم ـ على ربطها ربطاً محكماً بالقرآن الكريم؛ أي: تأصيل الدعوة إليها بناءً على آيات القرآن الكريم المتعلقة بها، وبذلك يكون رشيد رضا قد قام بإعطاء المشروعية الكاملة لدراسة هذه العلوم، وفي الوقت نفسه نقل دراستها والاهتمام بها من حيِّز المباح والمقبول إلى حيِّز الواجبات الكفائية، والضرورات اللازمة لإنهاض الأمة الإسلامية وتحقيق سيادتها وعزتها[2].

وفي الحقيقة فإنّ رشيد رضا قد أَوْلى دراسة التاريخ والسير في الأرض اهتماماً بالغاً؛ انسجاماً منه مع اهتمام القرآن الكريم نفسه من جهة بالدعوة إلى هذين الأمرين البالِغَي الأهمية في دراسة واستكشاف السُّنن الإلهية التاريخية والاجتماعية التي يتوقف مصير بناء الأمم والحضارات على مدى معرفتها

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٤٢).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ١١١، ٢٥١، ٥/ ٢٨٨، ٢٩٧، ٩/ ٥٥٩).

والأخذ بها، ولأنه لاحظ ـ من جهة أخرى ـ من خلال مراقبته للواقع: أنّ المسلمين المعاصرين له من أكثر شعوب الأرض تفريطاً وتقصيراً في هذين العلمين، لذلك رأيناه ـ وفي كل فرصة تسنح له ـ يدعو المسلمين إلى دراسة التاريخ، والسير في الأرض، مذكّراً إياهم بأن هذين الأمرين من الواجبات الشرعية، ومبيناً لهم مدى تقصيرهم في هذين المجالين بالمقارنة مع الإنجازات الكبيرة التي حققها المسلمون في هذين المضمارين في السابق[1].

«عُنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة، ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد[2]، لَكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا، ولكنّنا تركناه، وسبق غيرنا إلى إتمامه واستثماره، فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران، وعزة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك، فلما صار الدّين يؤخذ من غير الكتاب والسنة، أُهمل التاريخ، بل صار ممقوتاً عند أكثر المشتغلين بعلم الدين»[3].

وأما فيما يخص السير في الأرض، فقد عرَّفه رشيد رضا بأنه: «النظر في خلق الله، وأحوال الشعوب والأمم؛ للاعتبار والاستبصار، ومعرفة سُنن الله ـ تعالىٰ ـ وحكمه وآياته»[4] من خلال السفر والسياحة في الأرض[5].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٢١٢، ٢٧٩، ٢/ ٤٧، ٢٠٥).
(٢) يقصد عهد ابن خلدون الذي اهتدى «إلى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ»، «تفسير المنار» (١/ ٣١١).
(٣) «تفسير المنار» (١/ ٣١١).
(٤) «تفسير المنار» (١١/ ٥٢).
(٥) المصدر السابق (٤/ ١٤٢).

وقد استنتج من الآيات المتعددة التي تحثُّ على هذا السير[1]: أنها تدلُّ بعمومها على وجوب السياحة والسفر في الأرض شرعاً، إذا كانت هذه السياحة من أجل النظر والاعتبار واختبار أحوال الأمم، «وهذا النظر والاعتبار لا خلاف بين العلماء في وجوبه شرعاً، وكونِه مطلوباً لذاته ومقصوداً من السياحة والسير في الأرض»[2].

وقد أشار رضا إلى أنّ الفائدة العظمى التي تُستفاد من السير في الأرض تكمن في استكشاف السُّنن الإلهية العاملة في ميدان الأنفس والمجتمعات، «وقد نبّهت آية آل عمران إلى أصل من أعظم أصول العلم التي تستفاد من السياحة واختبار أحوال الأمم، وهو العلم بسُنن الله في شؤون البشر العامة المعبَّر عنه في هذا العصر بعلم الاجتماع، وهي: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾»[3].

المبحث الرابع
أهمية علم السُّنن الإلهية ومدى الحاجة إليه

انطلق رشيد رضا في دعوته إلى دراسة السُّنن الإلهية، من أنّ إشارات القرآن الكريم إلى أنَّ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ سنناً وقوانين تحكم حركة الكون والأفراد والمجتمعات، إنما هي «إرشاد إلهي، لم يُعهد في كتاب سماوي، ولعله

---

(١) يوجد في القرآن الكريم ثلاث عشرة آية كريمة تحثّ على السير في الأرض بأسلوب الأمر المباشر وغير المباشر، منها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ سورة النمل: ٦٩، و﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ سورة العنكبوت: ٢٠، و﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ سورة الحج: ٤٦.

(٢) «تفسير المنار» (٨/ ٢٨٩).

(٣) «تفسير المنار» (٨/ ٢٩٠)، والآية الكريمة من سورة آل عمران: ١٣٧.

أُرجىء إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرِد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان»، لذلك يجدر بالمسلمين أن ينتبهوا إلى هذه السُّنن، ويفهموها حقَّ الفهم، بل يجب عليهم أن يتعاملوا مع هذه السُّنن بجدية كاملة عن طريق تحويل هذه الإشارات السُّننية إلى علم متكامل مدوَّن، أسوة بغيره من العلوم الشرعية الأخرى التي أشار إليها القرآن الكريم إجمالاً، وقام المسلمون بتفصيلها وتدوينها، وقد أناط رشيد رضا مسؤولية تبيين السُّنن الإلهية بمجموع الأمة الإسلامية من خلال دعوته فئة من علمائها إلى القيام بهذه المهمة العلمية، وبذلك يمكننا أن نقول: إنّ رشيد رضا جعل بيان وتدوين السُّنن من فروض الكفاية على الأمة بمجموعها، وهذا يعني أنّ الأمة تأثم بأكملها إذا لم تنهض بهذا الواجب الديني والعلمي الحضاري كما ينبغي.

يقول رشيد رضا: «إنّ إرشاد الله إيانا إلى أنّ له في خلقه سُنناً يُوجب علينا أن نجعل هذه السُّنن علماً من العلوم؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيّنون لها سُنن الله في خلقه؛ كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بيّنها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده؛ كالتوحيد والأصول والفقه»[1].

وقد أشار رشيد رضا إلى أنّ علم السُّنن هو من أهم العلوم وأنفعها بشكل عام[2]، ويأتي في الأهمية في المرتبة الثانية بين العلوم الشرعية الأخرىٰ، فهو يأتي في الأهمية بعد العلم بالله ـ تعالىٰ ـ وصفاته، وقبل بقية العلوم الأخرى مثل الكلام والفقه والأصول، واحتجَّ لرأيه هذا بأنَّ هذا العلم هو الطريق الأضمن للوصول إلى العلم بالله ـ تعالىٰ ـ، ومعرفة آثار قدرته وحكمته في الخلق، وهو

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ١٣٩).

(٢) المصدر السابق: الموضع نفسه.

الطريق إلى تحقيق كمال الإنسان المدني والعقلي، ومساعدته على إنجاز الأعمال العظيمة، والعلوم النافعة، وهو يؤدي ـ نتيجة كل ذلك ـ إلى حفظ الأمم من الهلاك والانهيار، وحفظ مُلكها واستقرارها، وضمان العزّة والسيادة لشعوبها[1].

«فإنّ العلم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في عباده، لا يعلوه إلا العلم بالله ـ تعالىٰ ـ وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله، أقول: أما العلم بالله ـ تعالىٰ ـ وصفاته وأفعاله، فهو معراج الكمال الإنساني، أما العلم بسُننه ـ تعالىٰ ـ في خلقه، فهو وسيلة ومقصد، أعني: أنه أعم الوسائل لكمال العلم الذي قبله، ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء»[2].

وبالمقابل فإنّ رشيد رضا قد حذّر من عدم مراعاة هذه السُّنن؛ لأنّ هذا الأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة، على مستوىٰ حسن إيماننا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقوة ارتباطنا به من جهة، وعلى مستوىٰ حياة الأفراد والمجتمعات من جهة أخرى[3].

ـ لماذا لم يدون المسلمون علم السُّنن الإلهية ؟

وقد تنبّه رشيد رضا إلى أن المسلمين الأوائل لم يقوموا بواجب تدوين علم السُّنن الإلهية لأسباب كثيرة، منها: «أن علماء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، والتابعين، وأئمة الأمصار الذين ورثوا لغة القرآن بالسليقة، وسُنّة النبي وبيانه له

---

(1) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ١٠٥، ٤٥٥، ١٠٣، ٤/ ١٦٨، ٤/ ٢٤٢، ٥/ ٢٧٧، ٢٥٢، ٤٦٣).

(2) «تفسير المنار» (٧/ ٥٠٠).

(3) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٦٨، ٥/ ٢٧٤، ٦/ ١٣٦، ١٢/ ١٥).

بالاتّباع، كانوا يفهمون هذه السُّنن الإلهية في الخلْق، ويهتدون بها، وإنْ لم يضعوا لها قواعد علمية وفنية لتفقيه مَنْ بعدهم فيها»[1]، هذا فضلاً عن أنهم كانوا في ذروة مجدهم واستقلالهم الحضاري، فلم يروا ضرورةً تدعوهم إلى تدوين هذا العلم الذي يعُد من أهم أهدافه حفظ الأمم، ووقايتها من الهلاك[2].

وأما المسلمون في العصر الحديث، فقد أهملوا هذا العلم، وأعرضوا عنه، على الرغم من حاجتهم الشديدة له، وحاجتهم الفائقة لتدوينه، وكثرة الأسباب الداعية لهذا التدوين، لذلك فقد انتقد رشيد رضا مسلمي عصره بشدّة، وأشار إلى «أنّهم أمسوا من أجهل الناس بسُنن الله، وأبعدهم عن معرفة خلق الله».

وقد أنَّبهم على تقصيرهم الكبير في هذا المجال، وخصوصاً عندما قارن ما وصل إليه حالهم في تحصيل هذا العلم، وهم أصحاب الكتاب الإلهي الذي دعا المؤمنين به إلى دراسة هذه السُّنن والأخذ بها، مع ما وصل إليه الأوربيون ـ رجال الاستعمار ـ في ميدان البحث عن سُنن الكون والمجتمعات، وقد شدّد على الإشارة إلى أنّ سبب تفوق الأوربيين على المسلمين في عصره، وسبب استيلائهم على معظم بلاد المسلمين، واستنزافهم لخيراتهم، هو استفادتهم مما كتبه ابن خلدون في «مقدمته» عن السُّنن، وزيادتهم عليه، وتوسّعهم الكبير في هذا العلم، في الوقت الذي قصّر فيه المسلمون في متابعة ما بدأه ابن خلدون بسبب ضعف العلوم الذي كان نتيجةً من نتائج التردي العام الذي أصاب الحضارة الإسلامية، وكان من أهم نتائج حالة التردّي هذه انصرافُ المسلمين بشكل ملحوظ عن هداية القرآن الكريم والسُّنّة الشريفة، والانشغال عنهما بما كتبه علماء التقليد في فروع الفقه ومسائل علم الكلام[3].

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٢٤٨).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ١٣٩، ٩/ ٥٧٩).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٤٩٩ـ ٥٠٠، ٨/ ٣١٤، ٥/ ٤٦٦ـ ٤٦٧).

يقول رشيد رضا: «ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السُّنن، وما ضاع ملكهم وعزُّهم إلاّ بجهلها الذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات»(١).

وقد قال في موضع آخر: «وقد سبق حكماء المسلمين إلى بيان بعضها [أي: السُّنن الإلهية]، وبدأ ابن خلدون بجعله علماً مدوَّناً يرتقي بالتدريج كغيره من العلوم والفنون، ولكنْ استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، وبنوا عليه، ووسّعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا منه كما كان يجب؛ لأنه كُتب في طور تدلّيهم وانحطاطهم، بل لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا في إقامة أمر مُلكهم وحضارتهم على ما أرشدهم إليه من القواعد وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ فيمن قبلهم»(٢).

ونظراً للأوضاع السابقة، فإنَّ رشيد رضا لم يتردد في دعوة المسلمين إلى الأخذ عن الأوربيين، واقتباس ما وصلوا إليه من إنجازات واكتشافات في مجال علم الاجتماع؛ أي: علم السُّنن، وهذه الدعوة لا تعني أبداً أنَّ رشيد رضا يدعو المسلمين إلى تقليد الغرب، فهذا آخر ما كان يفكر به، بل تعني دعوتهم إلى استئناف العمل بما أرشدهم إليه كتابهم، وقام به أسلافهم، حتى لو كان الآخرون قد سبقونا إلى العمل والأخذ به في الوقت الراهن، ولا حرج من العودة إلى الحق بغض النظر عن دين وجنسية هذا الذي نبهنا إليه في هذا العصر(٣).

---

(١) «**تفسير المنار**» (٩/ ٥٧٩)، وانظر: (١١/ ٣١٧، ١٢/ ٢٤٢).

(٢) «**تفسير المنار**» (٨/ ١١١).

(٣) انظر: «**مختارات سياسية من مجلة المنار**»، وجيه كوثراني (٢٢ـ ٢٣). وانظر أيضاً: =

من كل ما سبق نستطيع أن نستنتج أن علم السُّنن الإلهية في نظر رشيد رضا، هو علمٌ شرعي أصيل يستند إلى نصوص قرآنية ونبوية مُحكمة الدلالة، لذلك فهو يستحق العناية والتدوين، وهو من العلوم الضرورية التي يتوقف عليها مصير الأمة بأكملها، وقد ازدادت أهميته والحاجة إليه في العصر الحديث لإعادة إقلاع الأمة الحضاري من وهدة الجهل والضعف والتخلف التي ترتع فيها.

❑ ❑ ❑

= «تفسير المنار» (٩/ ٥٧٩).

الفصل الرابع

السُّنن الإلهية وعلاقتها بقضايا العقيدة عند رشيد رضا

تُعد موضوعات هذا الفصل من أهم المواضيع التي اعتنى بها رشيد رضا، وتعمَّق بدراستها، وكرر الكلام عليها في كل فرصة سنحت له، وذلك لِما لهذه المواضيع من علاقة وثيقة بقضايا العقيدة الإسلامية، ونحن نعرف أن الشيخ رضا كان يعدُّ تخليص العقيدة الإسلامية من الشوائب والبِدع التي اعترتها عبر العصور، والعودة بها إلى حالة النقاء والوضوح الأولى التي كانت تتمتع بها في عصر صدر الإسلام، من أهم أولويات المشروع الإصلاحي الذي جنَّد علمه وقلمه من أجل الدعوة إليه، لذلك كان من الطبيعي أن يُبدي رشيد رضا اهتماماً بالغاً بدراسة هذه الموضوعات، سواء من أجل رفع التعارض الظاهري بين مشيئة الله ـ تعالى ـ وقدرته، والمعجزات والتوكل، وبين اطّراد السُّنن الإلهية وثباتها، أو من جهة فهم ودراسة الشرك والتقوى والدعاء في ضوء السُّنن الإلهية.

ونحن هنا سنتناول كل قضية من هذه القضايا، ونحدّد طبيعة علاقاتها بالسُّنن الإلهية في نظر رشيد رضا في مبحث مستقل من مباحث هذا الفصل.

المبحث الأول
سُنن الله ـ تعالىٰ ـ ومشيئته وأقداره

اجتهد رشيد رضا في سبيل رفع التعارض الذي يمكن أن يتوهم الناس وجوده بين مشيئة الله وقدرته المطلقتين، وبين ثبات واطّراد السُّنن الإلهية على الشكل التالي:

- مشيئة الله - تعالىٰ - تجري وفق سُنن حكيمة :

إن مشيئة الله - عزَّ وجلَّ - مطلقة، لا يحدها حدٌّ، ولا يقيدها قيد، وقدرة الله - تعالىٰ - متطابقة معها، متعلّقة بها، فما شاء الله - تعالىٰ - كان، وما لم يشأ لم يكن، وكل ما يجري في هذا الكون هو بمشيئته واختياره[1]، هذا أمر مسلَّم به، لا يقبل النقاش ولا الجدل، ولكن المشكلة تكمن في فهم الناس المغلوط لهذه المشيئة، فهم يظنون أن مشيئة الله - تعالىٰ - في الكون تشبه مشيئة الحاكم المستبد؛ أي: إن الله يحابي من يريد، ويكافىء من يريد؛ لأسباب قد يعاقب عليها غيرهم، وقد يعاقب من يريد؛ لأسباب قد يكافىء عليها غيرهم، باختصار فهم يظنون أن مشيئة الله - تعالىٰ - تجري وفق رغبات غير مضبوطة، وغير مفهومة، لذلك فهم ينسبون كل ما في الكون من ظلم الناس بعضهم لبعض، والكوارث التي تحل بهم إلى مشيئة الله - تعالىٰ -، دون أن يخطر في بالهم أن مشيئة الله - عزَّ وجلَّ - نفسَها[2]، «إنما تنفذ على سُنن حكيمة وطرائق قويمة»[3]، «وأن مشيئته - تعالىٰ - لا تكون إلا بمقتضىٰ سننه في ارتباط الأسباب والمسببات»[4].

إذاً فإن رشيد رضا قد قرر بوضوح وجلاء أن مشيئة الله - تعالىٰ - عامة ومطلقة، و«أنَّ الله يفعل ما يشاء، وأن كل شيء يقع بمشيئته، ولكنْ تجري في العالم بمقتضىٰ سننه وتقديره»[5].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١٢/ ١٥٦)، وانظر: (١/ ١٧٩).
(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ١٤٠ـ١٤١).
(٣) «تفسير المنار» (٤/ ١٤١).
(٤) «تفسير المنار» (١٢/ ١٥)، وانظر أيضاً: (٢/ ٤٩٤ـ ٤٩٥، ٥/ ١٥٠، ٧/ ٢٦٢، ٥٧٦، ٩/ ٦).
(٥) «تفسير المنار» (٩/ ٤٠٩).

وهكذا فقد حرص رضا على التنبيه بأن إسناد الأمور إلى مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعني في حال من الأحوال الخروج عن السُّنن الإلهية التي أقام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليها نظام الكون، وبالتالي لا يجوز للمسلمين أبداً تبرير تقصيرهم في أمور حياتهم، ونسبة هذا التقصير إلى مشيئة الله ـ تعالىٰ ـ للتهرب من المسؤولية، فهذا الأمر لا يجوز شرعاً، ولا ينطبق البتة على حقيقة المشيئة الإلهية.

«إنَّ من الناس من يظن أن معنىٰ إسناد الشيء إلى مشيئة الله ـ تعالىٰ ـ هو أنَّ الله ـ تعالىٰ ـ يفعله بلا سبب، ولا جريان على سنة من سننه في خلقه، وليس كذلك؛ فإن كل شيء بمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1]؛ أي: بنظام وتقدير موافق للحكمة، ليس فيه جُزاف ولا خلل، ولا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير في إصلاح شؤوننا؛ فإنَّ مشيئته ـ تعالىٰ ـ لا تتعلق بإبطال سُننه ـ تعالىٰ ـ وحكمته في نظام خلقه»[2].

بناءً على الكلام السابق، فإن من يلتزم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ يكون قد التزم بمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ، ومن أعرض عن هذه السُّنن، يكون قد أعرض عن مشيئة الله ـ تعالىٰ ـ نفسها، وقام برفضها، فمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ بالنسبة إلينا ـ نحن البشر ـ غيبية لا شك في ذلك، ولكن يمكننا أن نعرفها ونلتزم بها، إذا تحرينا والتزمنا بما أفصح الله ـ تعالىٰ ـ به عن هذه المشيئة في كتاب التكليف (الوحي)، وكتاب التكوين (السُّنن).

إذاً فدراسة السُّنن والالتزام بها هو في الحقيقة استجلاءٌ لإرادة الله ـ تعالىٰ ـ

---

(١) سورة الرعد: ٨، وتمام هذه الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

(٢) «تفسير المنار» (٢/ ٤٧٨ـ ٤٨٠).

ومشيئته في الكون، والتزامٌ بها[1]، وإذا لاحظنا أيَّ تعارض أو تنافٍ في الظاهر بين مشيئة الله ـ تعالىٰ ـ وبين سُننه، يجب علينا اتهام تفكيرنا وتأويلنا البشري بالقصور والنقص بدل ادعاء التعارض بينهما[2].

ـ رفع التعارض بين السُّنن والأقدار الإلهية:

أما من حيث رفع التعارض بين جريان السُّنن وبين الأقدار الإلهية، فإنَّ رشيد رضا قد رفع هذا التعارض أيضاً بشكل جذري وكامل عندما فسر الأقدار الإلهية نفسها على أنها هي نظام الله ـ تعالىٰ ـ المرتبط بنظام الأسباب والمسَبَّبات والسُّنن، وبهذا تكون الأقدار هي السُّنن ذاتها، وبذلك لا يمكن أن يوجد أي تعارض بينهما، «والقدرة عبارة عن جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات»[3]، و«الأقدار الإلهية هي السُّنن التي يقوم بها النظام»[4]، إذاً فالأخذ بالأسباب والسُّنن هو عملٌ بمقتضىٰ الأقدار الإلهية، ولا يضادّها في أي حال من الأحوال.

وقد أشار رشيد رضا بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض إلى أن قضاء الله ـ تعالىٰ ـ وقدره ما هما في الحقيقة إلا نظام السُّنن والأسباب الساري في هذا الكون، وما أراده الله ـ تعالىٰ ـ، واختاره وفق مشيئته المطلقة، ونفَّذه بقدرته البالغة[5]، مع التأكيد على أنَّ هذا النظام لم يُوجبه أحد على الله، فهذا محال عقلاً وشرعاً، ولكن الله ـ تعالىٰ ـ صاحب المشيئة المطلقة هو الذي أوجبه على

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ١٤١).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٦/ ٣٩٠، ٨/ ٥٤ـ٥٥، ١٢٦)، وانظر أيضاً: «السُّنن التاريخية في القرآن» باقر الصدر (٦٨ـ ٧١).

(٣) «تفسير المنار» (٥/ ٢٥٣).

(٤) «تفسير المنار» (٤/ ١٦٧).

(٥) انظر: «تفسير المنار»، (١١٠/ ٢٠).

ذاته العليّة؛ كما أخبرنا بذلك في الآيات القرآنية العديدة التي تشير إلى السُّنن وثباتها، لذلك فلا يوجد أدنى مساس بمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ، ولا قدرته، ولا كماله المطلق ـ جلّ وعلا ـ؛ «فإنَّ الممنوع أن يجب عليه ـ تعالىٰ ـ شيء بإيجاب موجب ذي حكم أو سلطان يطالبه به، ويحاسبه عليه، فهذا مُحال عقلاً وشرعاً، أما ما أوجبه الله ـ تعالىٰ ـ من النظام، وسنن التدبير العام للمخلوقات بمقتضى علمه وحكمته ومشيئته، ونفذه بقدرته واختياره في خليقته، فهو حكمه وقضاؤه وقَدَره بسلطانه، ولا حكم عليه بسلطان غيره، وهو كمالٌ مطلقٌ لا شائبة للنقص فيه»[1].

وانطلاقاً من هذا التفسير السُّنني للأقدار، فقد دعا رشيد رضا المسلمين إلى التحرر والانعتاق من الفهم الجبري للأقدار الذي يكبِّل طاقاتهم، ويحول بينهم وبين الأخذ بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في نهوض الأمم وسيادتها وعزتها[2].

من كل ما سبق نستنتج أن رشيد رضا قد أكَّد عدم تعارض إرادة الله ومشيئته وأقداره مع السُّنن الإلهية، وأكّد أن هذا التعارض غير موجود أصلاً؛ لأن كل هذه الأمور مصدرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده لا شريك له، ولا يمكن تصور صدور أي شيء يتناقض مع غيرها من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الحكيم القدير، فكل من السُّنن والمشيئة والأقدار هي إرادة إلهية، وهذه الإرادة لا يمكن أن تختلف، أو تتناقض فيما بينها، وإلا نكون قد نسبنا العجز أو الضعف إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهذا مُحال بحقه ـ تعالىٰ ـ، ويدخل في باب الاستحالة العقلية والشرعية والوجودية؛ أي: في جميع أنواع الاستحالات، تَعَالىٰ الله عن ذلك عُلواً كبيراً.

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ١١١).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ١١١).

المبحث الثاني

السُّنن الإلهية والخوارق

يجب التنويه في بداية هذا المبحث، إلى أننا لا نقوم هنا بتحديد وتحليل موقف رشيد رضا من مسألة المعجزات بشكل عام، فهذا أمر لا يتعلق بصورة مباشرة بموضوع دراستنا من جهة، وقد تناولته دراسات أخرى باستفاضة واستيعاب(١) من جهة أخرى، ولكنني سأكتفي هنا بتحليل، ورصد موقف رشيد رضا من علاقة السُّنن بالمعجزات بشكل خاص، والخوارق الكونية بشكل عام.

قد ذكرنا ـ في المبحث الخاص بخصائص السُّنن الإلهية ـ أنَّ رشيد رضا يصفها بالعموم والثبات والاطّراد، وهذا يعني أنّ السُّنن مستمرة عبر الزمان، وفي جميع الظروف، ومع كل الأشخاص، وستكرر كلما تكرّرت دواعيها وشروطها؛ أي: إن السُّنن قطعية ومستمرة وعامة، ولكن هل هذا يعني أنّ رشيد رضا ينكر وجود خوارق لهذه السُّنن، وينكر إمكان حدوث هذه الخوارق؟ وهل المعجزات التي أيَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها رسله ـ عليهم السلام ـ تُعد من خوارق السُّنن أم لا ؟ وكذلك الأمر بالنسبة إلى كرامات الأولياء، وهل يُعد السِّحر من الخوارق التي ترفع نظام السُّنن، وتُوقِفه عن عمله ؟.

سنجيب عن كل هذه التساؤلات من خلال عرض وتوضيح موقف رشيد رضا من الخوارق بعامة، ومن المعجزات والكرامات والسحر بشكل خاص في هذا المبحث ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

يجب التذكير قبل الخوض في عرض موقف رشيد رضا من علاقة السُّنن

---

(١) انظر على سبيل المثال: «**رشيد رضا المفسّر**»، حسيب السامرّائي، بغداد، دار الرسالة للطباعة، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، (٣١٣ـ٣٢٤).

بالخوارق، بالملاحظات المنهجية التالية التي عرضها رشيد رضا كأساسٍ للتعامل مع هذه المسألة:

ـ لا يجوز قياس السُّنن الروحية على السُّنن المادية:

إن لله ـ تعالىٰ ـ سُنناً عامة في كل ما خلقه ـ تعالىٰ ـ في عالَمي الغيب والشهادة، أو عالمي الأجساد والأرواح، أو المادة وما وراء المادة، على اختلاف الاصطلاح، وبكلمة أخرى فإن لله ـ عزَّ وجلَّ ـ سُنناً تجري في العالم المادي بكل ما فيه من مخلوقات وأفراد ومجتمعات، وسُنناً أخرى تجري وتحكم عالم الروح، وكل ما يتصل به من طاقات النفس الروحية، مع العلم بأن السُّنن المادية ـ إذا جاز التعبير ـ تختلف بطبيعتها وتكوينها عن السُّنن الروحية، ولذلك لا يجوز قياس أحدهما على الآخر، ولا فرق بين ما لا نعلمه من هذه السُّنن الروحية، وما نعلمه من السُّنن المادية في كون كل منهما من فعل مُبدع الأرواح وخالق الأجسام والكائنات، ولا يصح أن يُعترض بإحداهما على الأخرى عند المسلم الذي يؤمن بأن الخالق واحدٌ، وهو واضع السُّنن ومُقدِّرها[1].

ـ حكمة خرق السُّنن بشكل مؤقت للرسل ـ عليهم السلام ـ فقط:

الأصل في نظام العالم هو جريانه وفق السُّنن العامة والثابتة والمطّردة، وهذا الأصل هو مقتضىٰ مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واختياره، ومنسجم تماماً ـ كما بينا سابقاً ـ مع أقداره ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولكن هذا الأصل الثابت، شاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمحض إرادته أن يخرقه، وبشكل محدود ومؤقت لرسله الكرام فقط؛ ليجعل من هذا الخرق «دليلاً حسياً على اختياره ـ تعالىٰ ـ في جميع أفعاله، وكون سُنن النظام في خلقه خاضعة له لا حاكمةً عليه، ولا مُقيِّدة لإرادته

(١) انظر: «تفسير المنار»، (١١/ ٢٢٤).

وقدرته»[1] من جهة؛ ليجعل هذه الخوارق (المعجزات) دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه، ونذراً للمعاندين لهم من الكفار، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم، أو تقع منهم باستعداد روحي، لَما كانت آية على صدقهم»[2]، وليلفت نظر العقل البشري إلى حقيقة علمية، وقاعدة منهجية، وهي «أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة، والأمور المعهودة، والسُّنن المعروفة، لا يقتضي أن يكون مُحالاً يُجْزَم بعدم وقوعه، وبكذب المُخبِر به، مع قيام الدليل على صدقه، وإنما غايته أن يكون الأصل فيه عدم الثبوت، فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح، وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر»[3].

إذاً «فالسُّنن مقتضى حكمته وإتقانه لكل لشيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة، ولولا هذا الاختيار، لكان العالم كالآلات التي تتحرك بنظام دقيق لا علم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه»[4]، وهذا الأمر قد يدفع كثيراً من الناس إلى الاعتقاد بأن هذا الكون يجري بأسلوب ونظام مستقل عن تَدَخُّل وإدارة أيّ إرادةٍ ومشيئةٍ أخرىٰ من خارجه، الأمر الذي قد يدفع بعضهم إلى الاعتقاد سفهاً وبغير علم إلى إنكار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خالقِ ومدبِّرِ هٰذا الكون بكل ما فيه ومَنْ فيه.

ـ الأصل في نظام الكون اطِّرادُ نظام السُّنن وثباتُه:

إنّ سُنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الكون والبشر والمجتمعات سُنن كثيرة، لا يستطيع أن يحيط بها أحد غير الله ـ تعالىٰ ـ، وما زال الناس يكتشفون كل يوم

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٤٢).
(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٢٤٢).
(٣) «تفسير المنار» (١١/ ٢٤٢).
(٤) «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٣).

ما لم يكونوا يعلمونه بالأمس، أو حتى يتخيّلون وجوده من السُّنن، لذلك يجب ألاّ نحكم على الظواهر التي لم يتوصل الناس إلى معرفة السُّنن التي تفسّرها بعدم وجود هذهِ السُّنن؛ لأن عدم معرفة السُّنن لا يعني بحال من الأحوال عدم وجودها.

يقول رشيد رضا: «ومَنْ ذا الذي أحاط بحكمه [تعالىٰ] أو بسُننه علماً؟ وإن الذي يقضي به العقل ألاّ نصدق بوقوع شيء على خلاف السُّنن الثابتة المطردة في نظام الأسباب العامة، إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل، وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين، وعلماء المادة، وعلماء النفس، وغيرهم»[(١)].

فالأصل ـ كما قلنا سابقاً ـ هو جريان السُّنن واطّرادها في كل ظواهر الكون وحوادثه، وهذا هو مقتضىٰ حكمته ومشيئته ـ عزَّ وجلَّ ـ، «إن الأصل في كل ما يحدث في العالم يكون جارياً على نظام الأسباب والمسببات، وسُنن الله التي دل عليها العلم، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل»[(٢)]، وكل خروج عن هذا الأصل الثابت يحتاج من أجل إثباته إلى دليل علمي قطعي، «إن ما منحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير، وسُنن التدبير، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه، وأنه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة، لا عن خلل، ولا عن عيب»[(٣)]، وهذا ما لا ينطبق إلا على المعجزات التي أيّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها رسله الكرام دون خلقه جميعاً، وانتهت مع خاتم الأنبياء محمد ﷺ، كما سنلاحظ ذلك بعد قليل.

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٣٢ـ٢٣٣).
(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٢٣٨).
(٣) «تفسير المنار» (١١/ ٢٤١).

ـ قسما الخوارق الكونية عند رشيد رضا:

وبناء على هذه الملاحظات المنهجية التي أسهب رشيد رضا في توضيحها وبيانها، فإنه قسَّم الخوارق الكونية إلى قسمين كبيرين على الشكل الآتي:

أولاً ـ خوارق كسبية: أي: حدوث ظواهر يُظن بها على أنها خارقة للسُّنن الكونية، ولكنها في حقيقتها غير ذلك، إذ هي من كَسْب الناس، وتقع تحت دائرة إمكانياتهم، وتجري وفق السنن الكونية، ولا تخرج عن نظامها[1]، ولكن الناس ظنوا أنها خارقة بسبب أحد العوامل التالية:

١ـ عدم معرفة الناس للسُّنّة التي تحكمها من الداخل، وهذا كثير؛ فإن عدم معرفة الناس لسُننٍ كثيرة من الظواهر الكونية، حملهم في السابق على اعتقاد أنها من المستحيلات، ومن الخوارق، في حين أنها غير ذلك، وكل ما في الأمر أن الناس في ذلك الوقت لم تبلغ درجة تطورهم العلمي المرحلة اللازمة للكشف عن السُّنن الحاكمة لهذه الظواهر.

٢ـ ومن الممكن أن يكون الذي ينقل هذه الخوارق، يخترعها من محض خياله كذباً وافتئاتاً على الحق من أجل إدراك غايات دنيئة له، يتوسل إليها باختراع قصص خارقة للعادة تؤثّر على عامة الناس، فتحملهم على فعل ما يريد.

يقول رشيد رضا: «وجملة القول: إن أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإنه قد وجد في كل عصر وقائع غريبة تُعد من هذه الأسرار الجارية على غير نظام السُّنن الإلهية في الخلق بحسب ما يتراءىٰ للجمهور بادي الرأي، وإن ما يتناقله الجمهور المولع بالغرائب منها ما هو كذب محض،

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٥ـ٢٢٦).

ومنها ما له أسباب علمية أو صناعية خفيّة يجهلها الأكثرون»[1].

٣ـ ظَنُّ كثير من الناس أنَّ بعض الأفعال خارقة بسبب وقوعهم تحت طائلة الوهم والتخييل الذي يقوم به رجال الشعوذة، وهذه الخوارق المزعومة كلها مما يستطيع أي إنسان أن يقوم بها إذا تعلَّم صناعتها، ووقف على أسرارها، ويقف في مقدمة هذا النوع من الأفعال السِّحر الذي قال عنه رشيد رضا بأنه: «خداع باطل، وتخييل يُري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق؛ فقد نصَّ القرآن على أنَّ السحر تخييل لما ليس واقعاً، وأنه كيد ومكر، وأنه يُتعلَّم تعلماً[2]، والخوارق لا تكون بالتعلُّم»[3].

٤ـ هناك ظواهر يُظن أنها خارقة، ولكنها بعد الدراسة والتحليل تظهر أنَّها ثمرة من ثمرات قوىٰ النفس، وتأتي نتيجة تأثير أقوياء الإرادة في ضعفائها، ويمكن أن نعد في هذا الباب «المكاشفة في بعض الأمور، والتنويم المغناطيسي، وشفاء بعض المرضىٰ، ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم»[4].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ رشيد رضا قد ربط بين نمو اعتقاد الناس بهذه الخوارق الكسبية المزعومة، وبين درجة تخلُّفهم العلمي وجهلهم بتواريخ الأمم

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٣٣).

(٢) يشير رشيد رضا بقوله: «إن القرآن الكريم نصَّ على أن السحر تخييل ومكر وتعلُّم» إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ سورة طه: ٦٦ـ ٧١.

(٣) «تفسير المنار» (٧/ ٣١٢) وانظر: مناقشة رشيد رضا لمسألة السحر في: «تفسير المنار» (٩/ ٤٥ـ ٦٠).

(٤) «تفسير المنار» (١١: ٢٢٥).

التي تُظهِر أنَّ هذه الخوارق إنما تناقلها أبناء هذه الأمم في مرحلة من مراحل تاريخهم، ولكنهم تخلصوا من معظمها في مراحل لاحقة بسبب تطور مداركهم العقلية، ومكتسباتهم العلمية[1].

وهكذا يمكننا أن نستنتج أنّه بمقدار درجة التقدم العلمي والازدهار الحضاري بشكل عام في مجتمع ما، بمقدار ما تنحسر ظاهرة الاعتقاد بمثل هذه الخوارق المزعومة، والعكس صحيح، أي: إنه بمقدار تخلّف مجتمع ما، وتأخره في الميدان العلمي والحضاري بشكل عام، تكون نسبة الاعتقاد بمثل هذه الخوارق المكذوبة أعلى، ورواجها وانتشارها أسرع.

إذاً كل هذه الخوارق إنما هي خوارق مزعومة، ووليدة ظروف تاريخية وحضارية ساعدت على انتشارها، لذلك فهي لا تصمد أمام التّحري العلمي، والتمحيص النقدي، ولا يصح الاحتجاج بها على خرق السُّنن؛ إذ إنها كلها محكومة من داخلها بسُنن قابلة للكشف والتسخير، ولكنَّ أصحابها يحتالون على الناس بإخفاء هذه السُّنن من أجل الوصول إلىٰ أغراض خاصة بهم، أو إنها ظواهر لم يتصل العلم بعد إلى فضِّ أسرارها، واكتناه أعماقها، والوقوف على سُنتها التي تنظم حركتها، وتضبط سيرها.

ثانياً ـ خوارق حقيقية: وهي ظواهر وأحداث تجري على خلاف السُّنن المعروفة للبشر يجريها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على يد بعض خلقه بمحض قدرته العليّة، وهذه الخوارق تقسم بدورها إلى قسمين:

١ـ خوارق لا تجري وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ المادية، ولا سُننه الروحية، بل تجري بمحض قدرة الله ـ تعالىٰ ـ فقط، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على المعجزات التي أجراها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ يد أنبيائه ـ عليهم السلام ـ[2]، «إن

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٥).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٥).

آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الأعمال الصناعية الغريبة، لا كَسْبَ لأحدٍ من البشر، ولا صنع لهم فيها»[1].

٢ـ وخوارق لا تجري وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ المادية، ولكنها تجري وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الروحية؛ أي: إنها تخرق السُّنن المألوفة للبشر في عالم المادة والكون، ولكنها تجري وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الروحية التي لا يقف على حقيقتها معظم الناس ـ وإن كانت في حقيقة ذاتها قابلة للفهم والتفسير العلمي ـ، لذلك تلتبس عليهم، ويُلحقونها بالخوارق الحقيقية، ومن هذه الخوارق الكرامات التي يُجريها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على يد بعض عباده الصالحين.

يقول رشيد رضا:

«المعجزات كلها من الله ـ تعالىٰ ـ، لا من كَسْبِ الأنبياء، كما نطق به القرآن، ولكنها بحسب مظهرها قسمان: قسم لا يعرف له سُنة إلهية يجري عليها، فهو يشبه الأحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات، أو ما يكون بإرادة سَنيّةٍ من الملوك لمصلحة خاصة، ولله المثل الأعلىٰ، وقسم يقع بسُنة إلهية روحانية لا مادية»[2].

وهكذا نفهم ـ من وجهة نظر رشيد رضا ـ أن خوارق السُّنن تُقسم إلى قسمين: خوارق كسبية؛ أي: ظواهر يُظن أنها خارقة للسُّنن المادية والروحية، ولكنها في الحقيقة غير خارقة لها البتة، وتقبل الكشف والتفسير، وخوارق حقيقية، وهذه تُقسم بدروها إلى قسمين: إلى خوارق حقيقية كاملة ـ إذا صح التعبير ـ، وهي التي تخرق جميع السُّنن المادية والروحية على السواء، ولا دَخْلَ للإنسان وكسبه واستعداداته فيها من قريب أو بعيد، وهي من

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٦)

(٢) «تفسير المنار» (٢٣٤).

أفعال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الخالصة، وهذه الخوارق إنما هي معجزات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقط.

وخوارق حقيقية نسبية، وهي الظواهر التي يقتصر خرقها على السُّنن المادية دون الروحية منها؛ أي: إنها لا تقبل الفهم والتفسير من خلال السُّنن المادية، ولكنها تقبل ذلك بالاستعانة بمعرفة السُّنن الروحية القابلة للفهم بحدِّ ذاتها، ولكن هذا الفهم يعسر على معظم البشر؛ نظراً لعدم خضوع عالم الروح للملاحظة والتجريب المباشر، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، ومن هذه الظواهر كرامات الأولياء ضمن شروط محدَّدة ـ سنتعرف عليها بعد قليل ـ.

وفي المحصِّلة يمكننا أن نقول: إنَّ رشيد رضا يُقر بوجود خوارق حقيقية تامة للسنن، وهي المعجزات، ولكن لا يعني وجود هذه الخوارق أنَّ نظام السُّنن أصبح نظاماً فارغاً لا معنىٰ له ـ معاذ الله تعالىٰ أن يكون ذلك ـ لأن متعلَّقات أفعاله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يمكن ـ كما قلنا ـ أن تتناقض مع بعضها، لذلك حرص رشيد رضا على توضيح بعض الملاحظات المتعلّقة بالسُّنن والمعجزات والرسل ـ عليهم السلام ـ من أجل ضبط قضية خرق السُّنن من قِبَل المعجزات بشكل علمي قرَّر فيها في النهاية أنَّ الأصل المعمول به في الكون هو السُّنن والثبات، وهذا مقتضىٰ مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإرادته، وأنَّ الاستثناء هو المعجزات، وهي من مقتضىٰ كمال قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحكمته البالغة، والاستثناء ـ كما هو معلوم ـ لا قيمة له إذا لم تكن هناك قاعدة عامة، وأصولٌ ثابتة معمولٌ بها، وعلى هذا الأساس، فإن الاستثناء يؤكد القاعدة، ولا يُلغيها.

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

ـ ملاحظات رشيد رضا حول علاقة السُّنن الإلهية بمعجزات الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ:

١ـ إن الخوارق التي يُجريها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أيدي رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هي من أفعال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المحضة، وقدرته المطلقة، ولا توجد أي علاقة بين هذه الخوارق وبين أفعال الرسل؛ أي: إن هذه الخوارق ليست من كسبهم، ولا من أفعالهم؛ كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

يقول رشيد رضا: «تقدَّم أن الرسل رجال من البشر في جميع الشؤون الفطرية، ليسوا أرباباً، ولا شركاء لرب العباد في علم الغيب، ولا في تصرفه في تدبير أمر الخلق، وقد بيّن للناس أن ما يؤيّدهم به من الآيات ليس في استطاعتهم، ولا من مقدورهم؛ لأن سنة الله ـ تعالىٰ ـ في قدرتهم كسنته في سائر البشر، كما أن سنته في علمهم كذلك، فلا الوحي الذي اختصهم به من كسبهم، واستنتاج عقولهم، ولا الآيات المثبِتة له من عملهم»[2].

٢ـ لا يملك الرسل ـ عليهم السلام ـ جلب نفع، أو دفع ضرر لأنفسهم أو للآخرين بعيداً عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في ارتباط الأسباب بالمسببات، فلا يعني حدوث بعض الخوارق على أيديهم أنهم يملكون التصرُّف في الكون من حولهم بعيداً عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العامة والثابتة في هذا الكون، فهم أولاً وأخيراً بشر، وكل ما يمتازون به عن غيرهم من البشر، أنّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد اختارهم لتبليغ رسالاته إلى خلقه، وأيدهم ببعض الخوارق لتكون دلالة على صدقهم،

---

(١) سورة العنكبوت: ٥٠.
(٢) «تفسير المنار» (٨/ ٢٨٢).

ودفعاً للمستعدين للهداية إلى الإيمان بهم، وإنذاراً للمكذبين وتخويفاً لهم، وفيما عدا ذلك لا توجد لهم أي سلطة غيبية تتجاوز سنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأسباب والمسببات الممكِنة للبشر جميعاً[1]، فهم قد أُرسلوا «للتبليغ والهداية، لا للتصرف في نظام الكون، وتحويل سُنن الاجتماع»[2].

٣ـ لا تَثْبت الخوارق التي تُنسب إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إلا بآيات القرآن الكريم القطعيّة الدلالة، فلا يمكن الركون إلى صحة أي خارقة تُنسب إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إلا الوارد ذكرها بشكل صريح وقاطع في القرآن الكريم؛ لأن الأصل هو عدم وجود الخوارق، فإذا حدث استثناء، فلا يجوز التصديق به إلا عن طريق علمي قاطع، ولا يوجد سوى القرآن الكريم ـ بالإضافة طبعاً إلى الأحاديث النبوية الثابتة والصحيحة ـ من دليل علمي يُوثق به من أجل الإقرار بهذه الخوارق[3].

يقول رشيد رضا: «إنه لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عَقَلها ردّها إلا هذا القرآن العظيم، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها.

إن الثابت بنصوص القرآن الكريم من آيات الأنبياء المرسلين المعيَّنة قليل جداً، فما كانت دلالته قطعية من هذه النصوص، فَصرْفُه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية، ارتداد عن الإسلام، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية، وجب حَمْله على ظاهره، إن لم يعارضه نص مثله، أو أقوى منه، فإن عارضه، فحينئذٍ يُنظر

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٤٨٨ـ٤٨٩)، وانظر: (٩/ ٥٠٨ـ٥٠٩).

(٢) «تفسير المنار» (٥/ ٢٧١).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٣٢ـ٢٣٣، ٢٣٩ـ٢٤٠).

في الترجيح بين المتعارضين بالأدلة المعروفة، والخروج عن ذلك ابتداع»[1].

٤ـ يجب الانتباه إلى أن معجزات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، لم تكن لتؤدي دورها في إقناع الناس إلا على قاعدة ثبات السُّنن وعمومها؛ أي: لولا ثبات السُّنن وعمومها واطّرادها، لَما كان هناك أي قيمة لأي خرق أو تغيير في السُّنن؛ لأن اعتياد الناس على هذا الخرق يُبطل احتجاج الرسل بهذه المعجزات، وبالتالي تفقد هذه المعجزات قيمتها والهدف منها[2].

٥ـ وأخيراً يجب الانتباه أيضاً إلى أن رشيد رضا قد ركّز بشكل واضح على أن المعجزات بوصفها خوارق للسُّنن، انتهت بانتهاء زمن النبوات، وهذا شيء منطقي، وذلك لأن المعجزات إنما أتت من أجل إثبات النبوات، وبالتالي فإنه إذا انتهت النبوات، فلا حاجة للمعجزات بعد ذلك، إذاً فالمعجزات هي خوارق مؤقتة ارتبطت بزمن النبوات، وقد انتهت ولن تعود بعد انقطاع النبوة وختمها، وهكذا فالمعجزات التي أجراها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على يد رسوله محمد ﷺ هي خاتمة الخوارق التي أجراها الله ـ عزّ وجلّ ـ على يد أنبيائه ـ عليهم السلام ـ، ولن تكون هناك خوارق أخرى، ولا يوجد داعٍ أصلاً لوجود هذه الخوارق، وخصوصاً إذا علمنا بأن أعظم معجزة أعطاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسوله الكريم محمد ﷺ هي معجزة عقلية علمية، تخاطب العقول والنفوس في كل مكان، وإلى أبد الآبدين، وهي القرآن الكريم[3].

وبناءً على هذه الملاحظات التي أدلى بها رشيد رضا نؤكّد مرة أخرىٰ بأنه يُنكر وقوع المعجزات الخارقة لسُّنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في الكون، بشرط ثبوتها بالنص القرآني، أو النبوي القطعي الدلالة، وهو يقسّمها ـ كما لاحظنا ـ

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٣٩ـ ٢٤٠).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٢٧ـ ٢٢٨).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٣٨ـ ٢٣٩).

إلى: معجزات لا تسري وفق أي سُنة من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ المادية أو الروحية على السواء، وهي معجزات مؤقتة انتهت بختم النبوة، وإلى معجزات تخرق السُّنن المألوفة للناس في عالمهم المادي؛ أي: تخرق السُّنن المادية، ولكنها تجري وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في عالم الروح الذي تختلف طبيعة سُنته عن طبيعة عالم المادة، ولذلك لا يجوز إطلاقاً قياس هذه السُّنن بعضها على بعض، فلكلٍّ طبيعتُه وقوانينُه الخاصة به.

ـ موقف رشيد رضا من كرامات الأولياء:

وأما الكرامات[1]، فإن رشيد رضا يعدها ـ كما رأينا ـ من الخوارق للسُّنن المادية المألوفة، ولكنها تجري وفق سُنن إلهية روحية تتعلق بقوى النفس، وطاقاتها الكامنة، وكرامات الأولياء لا تعني في حال من الأحوال أنهم «يتصرّفون في الخلق بما يخالف سُنن الله ـ تعالىٰ ـ فيه، أو يبدلها بغيرها، ويحولها عما وُضعت له»[2]، فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يُؤْتَوْا هذه القدرة، فكيف يُؤْتَوْنها هم![3].

ويشترط رشيد رضا للقبول بالكرامة ـ فضلاً عن جريانها على يد عبد صالح ـ شرطين هما:

١ـ عدم إظهارها؛ لأنها ثمرة من ثمرات ارتقاء الروح والنفس في مدارج

---

(١) عرّف الجرجاني، علي بن محمد (ت٨١٦هـ/ ١٤١٣م) الكرامة بقوله: «هي ظهور أمر خارق للعادة من قِبل شخص غير مُقارن لدعوىٰ النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوىٰ النبوة يكون معجزة»، «**التعريفات**»، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، (٢٣٥ـ٢٣٦).

(٢) «**تفسير المنار**» (١١/ ٢٢٩).

(٣) انظر: «**تفسير المنار**» (٧/ ٤٢٥).

الكمال الإنساني، لذلك يجب عدم إفسادها بإبلاغها للناس كيلا تفتنهم وتحملهم على الاعتقاد بأنهم قادرون على أشياء لا قدرة لهم عليها، وهم في الحقيقة غير قادرين إلا على ما يقدر عليه جميع البشر باستخدام السُّنن والأسباب المتاحة لهم جميعاً.

٢ـ امتناع تكرارها؛ لأنها إذا تكررت، فستصبح شيئاً عادياً، وبالتالي يَبْطُل اعتبارها أمراً خارقاً للمألوف[١].

وإذا كان رشيد رضا يُقر بإمكانية حدوث الكرامة ـ طبعاً ضمن الشروط التي حدَّدهاـ، فهو لا يُوجب بحالٍ من الأحوال على المسلم الاعتقاد بوقوع الكرامة، ولا يجعل الاعتقاد بوقوعها جزءاً من عقيدة المسلم التي يحاسب عليها يوم القيامة؛ لأنه لم يَرِد نصٌّ صريحٌ بوجوب الاعتقاد بها، والعقائد لا تَثبُت إلا بالنصوص القطعية، بل يدعو المسلمين بشكل غير مباشر إلى إهمال قضية الكرامات، وعدم التعويل عليها؛ إيماناً منه بأن التعامل مع السُّنن الإلهية الثابتة هو الأصل الذي اختارته المشيئة الإلهية، وهو المنهج الذي يجب على المسلم الأخذ به في حياته الفردية والاجتماعية، ويتعامل به مع الكون من حوله[٢].

يقول رشيد رضا: «إذا كان لا يجب على المسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ، فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أنَّ ما يدَّعيه الناس من الخوارق في جميع الأمم أكثره كذب، وبعضه صناعة علم، أو شعوذةُ سحرٍ، وأقلّه من خواص الأرواح البشرية العالية»[٣].

---

(١) انظر: «تفسير المنار»، (١١/ ٢٢٨).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٢٥٤ـ ٢٥٥).

(٣) «تفسير المنار» (١١/ ٢٤٠).

- رشيد رضا يدعو إلى تضييق الاعتقاد بالكرامات:

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن رشيد رضا كان يحاول ما أمكنه تضييق الاعتقاد بالكرامات؛ لأنه كان يخشىٰ أن يتسرَّب كثير من الدجالين عن طريق الادِّعاء بالكرامات ليعتدوا على أعراض وأموال الناس، ويحاولوا السيطرة على عقولهم، والتحكم في مصائرهم، الأمر الذي يترك أسوأ الآثار على المجتمع الإسلامي بأكمله، ومن أفجع هذه الآثار التي أشار إليها:

١- الإعراض عن الأخذ بسُنن الله - تعالىٰ - في الخلق؛ وهي المعبِّرة عن مشيئة الله - تعالىٰ - في الكون، وأقداره الغالبة، والتي على أساسها يكون التكليف في الدنيا، والحساب في الآخرة، والإعراض عن سُنن الله - تعالىٰ - يعني - فيما يعنيه - إبطال الثقة بالعقل، وترك أعماله، وفي هذا ما فيه من الآثار الضارة المفسِدة لحياة الأفراد والمجتمعات.

٢- إضعاف ركن الإيمان الأول؛ أي: التوحيد الإلهي، وذلك باعتقاد أنه يوجد أناس يمتلكون النفع والضر للناس بعيداً عن نظام السُّنن والأسباب الذي قدَّره الله - تعالىٰ - في هذا العالم، مما يؤدي بالمصدِّقين بهذا الكلام إلى الخضوع إلى أصحاب الكرامات، وبالتالي يتحول هؤلاء إلى شركاء فعلاً لله - عزَّ وجلَّ - الذي حصر النفع والضر بيده، وبما قدّره لنا من الأسباب والسُّنن.

٣- والخروج عن حدود الشريعة، وذلك بارتكاب المحرَّمات، واستحلال المحارم من قبل أدعياء الكرامة، على اعتبار أن ما يفعلونه ويرتكبونه من المحرَّمات والفواحش إنما هو إكرامٌ من الله - عزَّ وجلَّ -، وليس كما يُظَن به بأنه خروجٌ عن حدود الشريعة وأحكامها.

٤- ترك الاهتمام والانشغال بشؤون الأمة الإسلامية وقضاياها، اعتقاداً بأن هذه المهمة العظيمة قد وَكَلَها الله - عزَّ وجلَّ -، وأسندها إلى أوليائه الصالحين فقط، وقد دفع هذا الاعتقاد الباطل كثيراً من أبناء المسلمين إلى التقاعس عن

واجب الجهاد والتضحية، والاشتغال بالشؤون العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ اتكالاً على قدرات أوليائهم المزعومة، فكان ما كان من خسائر فادحة حلَّت بالأمة الإسلامية شعوباً ومجتمعات[1].

وهكذا فقد لاحظنا أن رشيد رضا يُقر بإمكانية وجود الكرامات ضمن شروط محدّدة ومنضبطة، على اعتبار أنها جارية وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الروحية، ولكنه في الوقت نفسه يرفض المبالغة بادعائها، والخروج بها عن حدودها المعترف بها، ويحذّر ـ في الوقت نفسه أيضاً ـ من استغلالها من قبل بعض الأدعياء والمفسِدين لإصابة الأمة بفساد العقيدة، والاستهتار بالعقل والعلم، والوَهَن الحضاري العام، فكرامات الأولياء لا تستطيع تغيير أو تبديل أي سُنة من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الكون والإنسان والمجتمعات؛ لأنها بطبيعتها تنتمي إلى عالم الروح وسُننه الخاصة به، وهذا العالم ليس له علاقة مباشرة مع عالم المادة والشهادة بكل ما فيه من كائنات وبشر ومجتمعات، فكرامات الأولياء إنما هي إكرام من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم بحسب سُننه الروحية، وليست معابر للخروج عن سُنن الله الكونية، والأولياء مثل غيرهم خاضعون لهذه السُّنن، ولا يملكون مثل غيرهم التصرّف إلا في دائرة الأسباب والمسببات التي أَقْدَرَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليها البشر جميعاً، وأي اعتقاد بغير هذا، فقد يجر صاحبه إلى الشرك وفساد العقيدة، «فمن اعتقد أنّ إنساناً يَقدِر على تدبير شيء من أمور الخلق، والتصرف فيها بقدرته الذاتية، غير مقيد بسنن الله في الأسباب والمسببات كأمثاله من أبناء جنسه، فقد اتخذه رباً»[2].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ١٥٤، ٧/ ٤٢٤ـ ٤٢٥، ١١/ ٢٢٩ـ ٢٣٠)، وانظر أيضاً: «السيد محمد رشيد رضا»، محمد أحمد درنيقة (٢٣٨ـ ٢٤٠).

(٢) «تفسير المنار» (١٠/ ٣٧٠).

المبحث الثالث
السُّنن الإلهية والشرك

سبق أن قلنا وأكّدنا أنَّ رشيد رضا كان يعد موضوع تنقية العقيدة الإسلامية من أهم المواضيع التي صرف لها جهده واجتهاده الفكري، وضمن هذا الاتجاه كان من الطبيعي أن يحظىٰ عنده موضوع الشرك والتوحيد ـ وهو رأس موضوعات العقيدة ـ بأعظم اهتمام وأوسعه؛ لأن التوحيد هو أساس الدّين كله، فإذا صلح هذا الأساس، صلح أمر الدّين كله، وصلحت من ورائه حياة الناس والمجتمعات، وإذا فسد هذا الأساس، فسد أمر الدّين كله، وفسدت من ورائه حياة الناس والمجتمعات[١].

ونحن في هذا البحث الموجز لن نتعرض إلى كل القضايا التي أثارها رشيد رضا في أثناء معالجته لمسألة التوحيد والشرك، فهي كثيرة ومتشعبة جداً، لذلك سنكتفي بتحليل جانب مهم منها، وهو طبيعة العلاقة الجوهرية التي تربط بين السُّنن الإلهية، وبين مفهومي الشرك والتوحيد عند رشيد رضا، وسنلاحظ في نهاية هذا التحليل أنَّ التعامل مع السُّنن الإلهية والأخذ بها على اعتبارها إرادة الله ـ تعالىٰ ـ ومشيئته في هذا الكون هو أحد المكونات والمعايير الرئيسة للتوحيد، وأن الاستهتار بها، والتحايل عليها، هو أحد المزالق الكبرىٰ إلى حفرة الشرك ـ أعاذنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منه ـ.

ـ معنى الشرك وآثاره عند رشيد رضا:

عرَّف رشيد رضا الشرك بأنه «الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب والسُّنن المعروفة في الخلق، بأن يُرجىٰ صاحبها، ويُخشىٰ منه ما تعجز المخلوقات عن

---

(١) انظر أهمية التوحيد في حياة الفرد والمجتمع في: «أهمية التوحيد وخطر الشرك»، زكريا عبد الرزاق المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، (١٥ـ٤٢).

مثله، وهذه السلطة لا تكون لغيره ـ تعالىٰ ـ، فلا يُرجىٰ غيره، ولا يُخشىٰ سواه في أمر من الأمور التي يراها وراء الأسباب المقدورة للمخلوقين عادةً؛ لأن هذا خاص به ـ تعالىٰ ـ، فمن اعتقد أن غيره يشركه فيه، كان مؤمناً مشركاً ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1].

وقد حدَّد في مكان آخر حقيقة الشرك بأنه هو: «الشعورُ بسلطةٍ وتأثيرٍ وراء الأسباب والسُّنن الكونية لغير الله ـ تعالىٰ ـ، وكل قول وعمل ينشأ عن ذلك الشعور»[2].

إذاً فإن الشرك هو اعتقاد بعض الناس أنَّ لبعض المخلوقات ـ سواء أكانوا ملائكة، أم رسلاً، أم أولياء، أم زعماء، أم أصناماً ـ تأثيراً في الكون، وقدرة على التصرُّف فيه، وبالبشر الذين فيه تصرُّفاً غير مقيد بنظام الأسباب والسُّنن الذي أَخْضَع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمشيئته وإرادته الكون بما فيه له، وهذا الاعتقاد يدفع هؤلاء الناس إلى الخضوع لهذه المخلوقات، والذل لها «بدافع الشعور بأنها ذات سلطة عليا فوق سنن الكون وأسبابه، وأن رضاءها وطاعتها هو عين طاعة الله ـ تعالىٰ ـ، أو شعبة منها لذاتها»[3]، وينتج عن هذا الاعتقاد، وتحكمه وتصرفه في أنفسهم وأموالهم ومصالحهم تصرُّف السيد المالك القاهر بالعبد الذليل الحقير، ويترتب على هذا الاعتقاد أيضاً انتشار الأخلاق الدنيئة والفاسدة في صفوف المشركين والخاضعين لهذا الاعتقاد، مثل الذل والمهانة والتملق، وبكلمة مجملة: انتشار أخلاق العبيد.

إذاً فظاهرة الاستبداد الخطرة، وانتشار أخلاق وقِيم الذل والهوان

---

(١) «تفسير المنار» (٥/ ٨٢). والآية الكريمة من سورة يوسف: ١٠٦.

(٢) «تفسير المنار» (٥/ ١٤٨).

(٣) «تفسير المنار» (٥/ ١٤٩).

والاستخذاء بين الناس هي آثار طبيعية تترتب على الشرك بهذا المعنى[١]، ولذلك، وبناءً على كل هذه الآثار المدمِّرة لعقول الناس وأفكارهم وأخلاقهم وكرامتهم، فقد قضىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعدم مغفرة الشرك[٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[٣].

يقول رشيد رضا: «أما الحكمة في عدم مغفرة الشرك، فهي أنّ الدّين إنما شُرع لتزكية نفوس الناس، وتطهير أرواحهم، وترقية عقولهم، والشرك هو منتهىٰ ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم ونفوسهم، ومنه تتولد جميع الرذائل والخسائس التي تفسد البشر في أفرادهم وجمعياتهم»[٤].

ـ من صور الشرك:

ومن صور الشرك التي ألَّح رشيد رضا على بيانها والتحذير منها: اتخاذ غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولياً، وإنما يتحقق هذا الاتّخاذ «في صورة واحدة، وهي أن يُطلب من غيره النصرُ، أو غيرُ النصر؛ من ضروب التصرّف في النفع والضر؛ فعلاً وتركاً فيما هو فوق كسب ذلك الغير وتصرّفه الذي منحه الله لأبناء جنسه»[٥].

وكذلك من صور الشرك عند رشيد رضا: اتخاذ الأنداد، والندُّ هو «من يُطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»[٦]، ومعنى هذا الكلام: أنّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نظم الكون وفق نظام ارتباط الأسباب بالمسبّبات، وجعل الطريق

---

(١) انظر: «تفسير المنار» الموضع نفسه.
(٢) انظر: «تفسير المنار» (٥/١٤٨ـ١٤٩، ٤٢٠).
(٣) سورة النساء: ٤٨.
(٤) «تفسير المنار» (٥/ ١٤٨).
(٥) «تفسير المنار» (٧/ ٢٣٠).
(٦) «تفسير المنار» (٢/ ٦٦).

إلى الوصول إلى المطالب والحاجات عن طريق أسبابها المرصودة لها، وهذه الأسباب هي مقتضىٰ حكمة الله ـ تعالى ـ ومشيئته وإرادته في هذا الكون ـ كما رأينا سابقاً ـ، ولا يقدر على التصرف والتأثير في هذا الكون إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واضعُ هذه السُّنن وحده لا شريك له، فمن اعتقد ـ على الرغم من كل هذه الحقائق ـ بأنه يوجد في الكون مَن يقدرون على خرق نظام السُّنن، أو أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يخرق هذه السُّنن إكراماً لهم، وبالتالي يستطيعون التصرّف في هذا الكون، وفق إرادتهم هم، بعيداً عن إرادة الله ـ تعالىٰ ـ وسُننه، أو بالاشتراك مع إرادة الله ـ تعالىٰ ـ، أو بالتأثير فيها؛ فقد اتخذ هؤلاء الناس أنداداً لله ـ تعالىٰ ـ، وشركاء له.

يقول رشيد رضا: «إن للأسباب مسبَّبات لا تعدوها بحكمة الله في نظام الخلق، وإنّ لله ـ تعالىٰ ـ أفعالاً خاصة به، فطلب المسبّبات من أسبابها ليس من اتخاذ الأنداد في شيء، مع اعتقادنا بأن الأسباب كلها من فضل الله ـ تعالىٰ ـ علينا، ورحمته بنا؛ إذ هو الذي جعلها طرقاً للمقاصد، وهدانا إليها بما وهبنا من العقل والمشاعر، فمن قصَّر في اتخاذ الأسباب اعتماداً على الله، فهو جاهل، ومَن التجأ إلى ما ليس بسبب من دون الله، فهو مشرك بالله، وهذا الذي يُلجأ إليه من إنسان مكرّم؛ كالأنبياء والصالحين، أو مَلَك من الملائكة المقربين، أو ما دون ذلك من مظاهر الخليقة، أو صنم أو تمثال، يُسمىٰ نداً لله، وشريكاً له، ووليّاً من دونه»[1].

وقد عدَّ رشيد رضا تَوَجُّه الوثنيين من العرب، وكثير من أهل الكتاب بالدعاء والنداء إلى معبوداتهم وأنبيائهم، وصلحائهم، طالبين منهم الشفاعة عند الله ـ تعالىٰ ـ، والتوسط عنده من أجل قضاء حاجاتهم؛ مثل النصر على الأعداء، والشفاء من الأمراض، والتوسعة في الأرزاق، شركاً بالله ـ تعالىٰ ـ؛ بسبب

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٦٨).

اعتقادهم أنَّ «حصول المطلوب من غير أسبابه العادية التي مضت بها السُّنن الإلهية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء، وإرادة الله ـ تعالىٰ ـ، فمقتضىٰ هذا الاعتقاد أن إرادة الله ـ تعالىٰ ـ ما تعلَّقت بفعل ذلك الطلب إلا بالتَّبع لإرادة الولي الشافع، أو المُتَّخذ ولياً شفيعاً، والحق أن إرادة الله ـ تعالىٰ ـ أزلية، لا يمكن أن تؤثّر فيها المحدَثات»[1] من مخلوقين، حتى ولو كانوا من ذوي الخواص الرفيعة، فالكل خاضع ومقهور للنواميس والسُّنن العامة التي قام بها النظام العام، وأنَّ تفاوت الناس في صفةٍ ما «لا يقتضي أن يُرفع الأقوىٰ في هذه الصفة على الأضعف رفَع الإله على المألوه، والربِّ على المربوب»[2]، وهو لا يكون بذلك رباً، ولا إلهاً، ولا خارجاً عن سُنن الكون، بل الكل عبيد مسخرون لسُّنن الله ـ تعالىٰ ـ، ويستفيدون منها بقدر علمهم وطاقاتهم واجتهادهم[3].

ويجب ألاّ يحملنا حدوث بعض الخوارق على أيدي بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على تغيير هذا الاعتقاد؛ لأن هذا الحدوث ـ كما رأينا سابقاً ـ كان من تصرف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده، أظهره على يد أنبيائه ـ عليهم السلام ـ الذين لا دَخْلَ لهم فيه بقليل أو كثير؛ كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[4]، ومن جهة أخرىٰ، فإذا كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو المالك الحقيقي للسموات والأرض، «كان حقيقاً بأن يكون له الأمر كله في السموات والأرض، ولا يمكن أن يكون لأحد

---

(١) «تفسير المنار» (٧/ ٢٣١).
(٢) «تفسير المنار» (٥/ ٢٧٧).
(٣) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٢٧٨).
(٤) سورة إبراهيم: ١٠ ـ ١١.

من أهلهما شِركة معه، ولا رأي أو وساطة تأثير في تدبيرهما، وإن كان مَلَكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، إلا من سخَّره ـ تعالىٰ ـ للقيام بشيء، فإنه يكون خاضعاً لذلك التسخير، لا يستطيع الخروج فيه عن السُّنن العامة التي قام بها نظام الكون ونظام الاجتماع»[1].

وبناءً على كل ما سبق، فإنَّ رشيد رضا يؤكّد أنَّ أصل الشرك «هو الغُلو في تعظيم الصالحين، والتبرك والتوسل بأشخاصهم لإبطال سُنن الله تعالىٰ»[2]، من أجل هؤلاء الغُلاة، سواءٌ في الدنيا بأن يعطيهم ربهم ما يريدون، ويقضي جميع حوائجهم بدون كسب ولا سعي ولا التزامٍ منهم بالأسباب التي جرت بها سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، أو في الآخرة بأن يعفو عن المسيئين منهم، ويترك عقابهم، بل ويمنحهم الجنة ونعيمها دون استحقاق، كل هذا علىٰ الرّغم من أنَّ الله ـ تعالىٰ ـ أكد مراراً وتكراراً بأنه لن يغير سُننه لأحد[3]، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[4]؛ لذلك فإنَّ رشيد رضا قد حكم على كل من يلجأ إلى قبور الصالحين لدعائهم أو التوسل بهم بأنهم «يجهلون جميع عقائد القرآن، وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ فيه»[5].

ـ حقيقة التوحيد وآثاره عند رشيد رضا:

وإذا كان الشرك يعني الاعتقاد بقدرة بعض المخلوقات على الخروج عن مقتضىٰ السنن الإلهية، فإنَّ التوحيدَ على العكس من ذلك، فهو الاعتقاد الجازم بأنّ كل ما يكون في الكون من بشر ومخلوقات أخرى خاضعون خضوعاً تاماً

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ١٢٠).
(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٦).
(٣) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢٤٦).
(٤) سورة فاطر: ٤٣.
(٥) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٧).

لسنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق، لا يستطيعون الخروج عنها قيد أنملة، وأنّ المتصرِّف الوحيد في الكون هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واضع هذه السُّنن، ومبدع نظامها.

يقول رشيد رضا: «وأما التوحيد الخالص، فهو الإيمان الجازم بأنَّ الله يفعل ما يشاء، ويختار بمحض إرادته الأزلية المنزَّهة عن تأثير الحوادث فيها، وأنَّ جميعَ الخلق مسخرون بإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، ولا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئاً، إلا في دائرة الأسباب التي جعلها الله بينهم شرعاً، وأن الواسطة بين الله وعباده محصورة في تبليغ رسالته إليهم»[1].

وإذا كان الاستبداد والاستعباد، وانتشار أخلاق وقِيم الذلّ والهوان والاستخذاء آثاراً طبيعية تترتَّب على الشرك بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإنَّ التوحيد على النقيض من ذلك، فهو يجعل أصحابه «أعزَّ الناس نفساً، وأعظمهم كرامة»[2]، وإنّ الموحِّد «لا يقبل أن يستبدَّ فيه حاكم، ولا أن يستعبده سلطان ظالم، وما قَوِي الاستبداد في المسلمين إلا بضعف التوحيد فيهم»[3]، وإذا كان الشرك هو منتهىٰ ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم ونفوسهم، فإنّ التوحيد هو «منتهى ما تصل إليه النفوس البشرية من الارتقاء والكمال»[4].

وأخيراً فقد أشار رشيد رضا إلى أنَّ الشرك قد يكون سبباً طبيعياً لوقوع الرعب في قلب صاحبه، وأنه يملأ عقله بالأوهام والخرافات؛ لأن المشرك قد

---

(١) «تفسير المنار» (٧/ ٤١٠).
(٢) «تفسير المنار» (٥/ ٢٧٧).
(٣) «تفسير المنار» (٥/ ٢٧٧).
(٤) «تفسير المنار» (٥/ ٢٧٧).

«يعدُّ الوساوس أسباباً، ويرى الهواجس مؤثّرات وعِللاً؛ قياساً على اتخاذه بعض المخلوقات أولياء، وجَعْلِهم وسائط عند الله وشفعاء، واعتياده بذلك أن يرجو ما لا يُرجى منه خير، ويخاف ما لا يُخاف منه ضير»[1]، وأما الموحِّد، فهو مطمئن النفس، مرتاح الضمير، ذو نظرة علمية واقعية للأشياء والأحداث من حوله؛ لأنه «يعلم أنه لا فاعل إلا الله ـ تعالىٰ ـ، وأنه من رحمته قد هدىٰ الإنسان إلى السُّنن الحكيمة التي تجري عليها في أفعاله، فإذا أصابه ما يكره، بحث في سببه، واجتهد في تلافيه من السُّنة التي سنَّها الله ـ تعالىٰ ـ لذلك»[2].

وهكذا، وبناءً على كل ما سبق، نستطيع أن نقرِّر على لسان رشيد رضا أنَّ التعامل مع السُّنن الإلهية والأخذ بها، والانسجام والتقيد بمقتضياتها ـ باعتبارها إرادة الله ـ تعالىٰ ـ، ومشيئته النافذة الثابتة في هذا الكون ـ هو أحد المكونات والمعايير الرئيسة للتوحيد الذي هو في حقيقة أمره أكبر الضمانات لرقيّ العقل البشري، وتحريره من كل الأوهام، وتحرير الإرادة البشرية من كل المخاوف والهواجس، ووصول الإنسان فرداً ومجتمعاً إلى أقصىٰ درجات كماله الإنساني، وتحقيق الطمأنينة والسعادة له في الدنيا والآخرة، أما الاستهتار بالسُّنن الإلهية، والتحايل عليها بمختلف الحجج، فهو أحد المزالق الكبرى إلى وهدة الشرك، وبالتالي إلى الوقوع في قبضة القلق والأوهام، وما يترتب على ذلك كله من انهيارٍ شاملٍ لكل القِيم النبيلة، وتصدُّع حقيقي يصيب بنيان الفرد والمجتمع، ويعصف بهما معاً، ويقدِّمهما لقمة سائغة لأنياب الشقاء والضياع والهلاك في الدنيا والآخرة.

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ١٧٨)، وانظر: (٤/ ١٧٩ـ ١٨٠).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٤٢٧)، وانظر: (٢/ ٢٤، ٣/ ٣٨).

المبحث الرابع

السُّنن الإلهية والتوكل

حرص رشيد رضا في أثناء حديثه عن التوكل على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أن يرفع أي تعارض موهوم بين حقيقة التوحيد وإخلاص العبادة لله ـ تعالىٰ ـ، وبين الأخذ بالأسباب، لأن سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، والتي قلنا عنها بأنها متطابقة مع إرادة الله ـ تعالىٰ ـ وأقداره في هذا الكون، قضت بأنه لا يمكن الوصول إلى مسبَّبٍ ما في هذا الكون إلا عن طريق سببه، وبالتالي فإنَّ الذي يسير وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ وإرادته وأقداره لا يمكن إلا أن يكون موحِّداً خالصاً، وبذلك وصل رشيد رضا إلى نتيجة حاسمة، وهي أنه لا منافاة البتة بين توحيد الله ـ تعالىٰ ـ، وبين الأخذ بالأسباب والاستعانة بها في قضاء الحاجات.

وبناءً على هذا الكلام، فقد حرص رشيد رضا أيضاً علىٰ إزالة أي وهم بوجود تعارض بين التوكل، وبين العمل بالأسباب؛ لأن التوكل في الحقيقة هو أعلى مقامات التوحيد، ولا يوجد ولا يمكن أن يوجد ـ كما قلنا ـ أي تعارض بين التوحيد، وبين العمل بالأسباب، بل قرر بأن التوكل لا يكون توكلاً حقيقياً إلا بعد الالتزام بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ والأخذ بالأسباب[1].

ـ هل الاستعانة بالآخرين تنافي حقيقة التوكل ؟

يقول رشيد رضا: إنَّ كمال توحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والثمرة الأولى لإخلاص العبادة له، يكمن في عدم الاستعانة بغيره ـ تعالىٰ ـ، وذلك لأن جوهر معنى العبادة هو: «الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العامة الموهوبة من الله ـ تعالىٰ ـ لعباده كافة هي لله وحده»[2]، فلا قدرة لمخلوق على

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١٠/ ١٢٧، ٢/ ٦٦ـ٦٧).

(٢) «تفسير المنار» (١/ ٦٠).

التأثير وراء ما أقدره الله ـ تعالى ـ عليه من الأسباب العامة، لذلك فلا يجوز الاستعانة بغير الله ـ تعالىٰ ـ في كل مالا يدخل في دائرة الأسباب والمسببات المقدورة لجميع البشر، وبالمقابل فإنَّ رشيد رضا قد أشار إلى أنَّ الاستعانة بالمخلوقين فيما يدخل تحت دائرة كسبهم، يدخل أيضاً في باب الاستعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده، وذلك بالنظر إلى أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل نظام خلقه ـ كما بيَّنا ـ يقوم وفق نظام ارتباط الأسباب بمسبباتها، وأنَّ لكل مُسبب سبباً لا يعدوه، ولا يتخلف عنه، وعليه فإن طلب المسبَّبات ـ ومن جملتها المنافع والمصالح ـ عن طريق الأخذ بأسبابها ـ ومن جملة هذه الأسباب البشر وما جعله الله ـ تعالىٰ ـ في نطاق قدرتهم وكسبهم العادي ـ لا يكون من قبيل الاستعانة بأحد غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أو اتخاذ أنداد له، بل هو استعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن طريق الاستفادة من نظام خلقه، والخضوع لسننه فيه، ولكن على الإنسان أن يعتقد أنَّ من الأسباب ما يَعقِل منها؛ كالبشر، وما لا يَعقل منها؛ كبقية الموجودات، والحوادث لم تكن أسباباً إلا بتسخير الله ـ تعالىٰ ـ لها، وأنّ ما يصل إليه الإنسان من خير ومنفعة باستخدامه لهذه الأسباب، إنما هو من فضل الله ـ تعالىٰ ـ الذي سخَّرها بقدرته العليَّة طرقاً للمقاصد، وأقدره عليها، وأرشده إليها بما وهبه له من وسائل المعرفة والإدراك[1].

يقول رشيد رضا: «الاستعانة ترادف التوكل على الله، وتحلُّ محله، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة، فمن كان موحداً خالصاً، لا يستعين بغير الله قط، فما كان من أنواع المعونة داخلاً في حلقات سلسلة الأسباب، كان طلبه بسببه طلباً من الله ـ تعالىٰ ـ، ولكنه يحتاج في تحقيق ذلك إلى قصدٍ وملاحظةٍ وشهودٍ قلبي، وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل، وبين الأخذ

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٦٦ـ٦٧، ١٠/ ١٢٧ـ١٢٨، ٩/ ٥٩٢ـ٥٩٣).

بالأسباب وإقامة سُنن الله فيها، بل الكمال والأدب في الجمع بينهما»[1].

ويقول في مكان آخر: «وجب على الإنسان أن يسعىٰ في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقداً أن الأسباب ـ ما يَعقِل منها كالإنسان، وما لا يعقل ـ لم تكن أسباباً إلا بتسخير الله ـ تعالىٰ ـ، وأن ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخَّرها، وجعلها أسباباً، وعلَّمه ذلك»[2].

إذاً فإذا استخدم الإنسان الأسباب ـ أياً كانت ـ من أجل الوصول إلى حاجاته، فإنه يكون قد التزم بما أمره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ به، أمراً تكوينياً بما قام عليه نظام الكون من الخضوع لسننه التي لا تتبدل، وأمراً تشريعياً تكليفياً، وذلك من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية العديدة التي دعته إلى العمل والكسب والأخذ بالأسباب.

«فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب، أن يطلب كل شيء من سببه، خضوعاً لسننه ـ تعالىٰ ـ في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره أن يطلبها أمراً تكوينياً قَدَرياً، وتشريعياً وتكليفياً»[3].

وهكذا فإنَّ الاستعانة بأحدٍ بما يدخل في دائرة كسبه، وقدرته العادية ضمن نظام السنن العام، أو الأخذ بالأسباب الأخرىٰ، لا يكون من قبيل الخروج عن مقتضىٰ التوحيد، بل هو تنفيذ والتزام بما أمر الله ـ تعالىٰ ـ به عباده تكويناً وتكليفاً بالجمع بين التوحيد، وبين الأخذ بالسنن والأسباب.

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٦٠ـ ٦١).
(٢) «تفسير المنار» (٩/ ٥٩٣).
(٣) «تفسير المنار» (١٠/ ١٢٧).

- حقيقة التوكل تقتضي الجمع بين الاعتماد على الله - تعالىٰ -، وبين الأخذ بالسنن الإلهية:

وقد دعم رشيد رضا قوله بضرورة الجمع بين الاعتماد على الله - تعالىٰ - وبين العمل بالسُّنن، وأنَّ حقيقة التوكل لا تكتمل إلا بهذا الجمع بعدة أدلة، منها:

١- مَنْ يُوكَل إليه أمر ما، يجب أن يُطاع، ومن يطلب من الله - عزَّ وجلَّ - أن يكون وكيلاً عنه، يجب أن يطيعه، ومِنْ طاعة الله - تعالىٰ - العمل بسُننه في الخلق، والتزام أحكام دينه، فيما أمر به الإنسان من الأعمال النافعة، والابتعاد عن الأعمال الضارة[١].

٢- لا يوجد أدنى تعارض بين الاعتماد على الله - عزَّ وجلَّ - وبين الأخذ بالأسباب، وضرورة الكسب والعمل الإنساني؛ ذلك لأن التوكل على الله - تعالىٰ - إنما يكون في قلب المؤمن وضميره، وأما العمل بالأسباب، فمحله الأعضاء والجوارح، ولا يوجد أيُّ مانع يحول بين إعمال قلب الإنسان وجوارحه في آن معاً[٢].

٣- إنَّ توجُّه الإنسان إلى العمل أمر فطري يجد الإنسان نفسه مضطراً إليه بسائق من فطرته التي فطره الله - تعالىٰ - عليها، وهو في الوقت نفسه واجب شرعي أمر الله - تعالىٰ - به عباده بآيات كثيرة، منها قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[٣]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[٤]، وأحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ: «لو أنكم كنتم تتوكلون على الله

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٦/ ٢٧٨).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٢٠٧).

(٣) سورة الملك: ١٥.

(٤) سورة الأنفال: ٦٠.

حقَّ توكله، لَرَزَقَكُم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بِطاناً»[1].

قال رشيد رضا ـ بعد أن استشهد بهذا الحديث الشريف ـ: «وقد استُدِلَّ به على أن التوكل يكون مع السعي؛ لأنه ذكر أن الطير تذهب صباحاً في طلب الرزق، وهي خِماص البطون؛ لفراغها، وترجع ممتلئة البطون، ولم يقل: إنها تمكث في أعشاشها في أوكارها، فيهبط عليها الرزق من غير أن تسعىٰ إليه»[2].

٤ـ من المعلوم شرعاً وعقلاً وطبعاً بأن لكل إنسان كسباً اختيارياً، يستطيع الإنسان العمل به كيف يشاء، لذلك يجب عليه أن يسعىٰ في تحصيل مصالحه ومنافعه، ولا يمكنه تحصيل هذه المصالح إلا بحسب سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في نظام الأسباب وارتباطها بالمسبَّبات[3].

٥ـ لا يمكن إنجاز أي عمل، وإنجاحه، بمجرد تهيئة كل الأسباب المتعلقة به مباشرة؛ لأن الموانع والظروف الخارجية قد تتدخل في أي لحظة، وتمنع إمكانية تحقيقه، وهذه الموانع لا يحيط بها، ولا يقدر عليها إلا الله ـ تعالىٰ ـ، فلا بد للمؤمن من الاعتماد على الله ـ تعالىٰ ـ، وتفويض الأمر له، في دفع هذه الموانع والعوائق حتى تنجح أعماله[4].

---

(١) رواه الترمذي، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الزهد (٢٧)، باب في التوكل على الله (٣٣)، رقم (٩٢٣٤٤)، (٤/ ٥٧٣). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه ابن ماجه، «**السُّنن**»، كتاب الزهد (٢٧)، باب التوكل واليقين (١٤)، رقم (٤١٦٤)، (٢/ ١٣٩٤). تغدو: تخرج من أول النهار. تروح: تعود في آخره. خماصاً: جمع خميص، وهو ضامر البطن، أي: جائع، وبطاناً: جمع بطين، وهو عظيم البطن، أي: شبعان.

(٢) «**تفسير المنار**» (٤/ ٢١٠).

(٣) انظر: «**تفسير المنار**» (٩/ ٢٩٢).

(٤) انظر: «**تفسير المنار**» (٤/ ٢٠٥).

وقد ضرب رشيد رضا مثلاً بليغاً لمن يُعرِض عن العمل بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ بحجة الاعتماد علىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: «وأما تَرْك الأسباب، وتنكُّبُ سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق، وتسمية ذلك توكلاً، فهو جهلٌ بالله، وجهل بدينه، وجهل بسُننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول، ومَثَله فيه كَمَثل مَنْ أمره مَلِكُه أو مالكه بأن يُعوِّل في طعامه وشرابه وسائر حاجته عليه، ولا يطلب من غيره شيئاً، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعدَّ له ولأمثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم، فتنطّع هو وامتنع عن الاختلاف إلى المائدة مع أمثاله زاعماً أنَّ هذا عصيانٌ لأمر الملك في التعويل عليه، وانتظر أن يُرسِل إليه طعاماً خاصاً ـ أي: إنه يطلب من ربه أن يُبْطل سُننه في خلقه لأجله ـ فما أعظم جهله وغروره به!»[1].

ـ الحالات التي تظهر فيها حقيقة التوكل على الله ـ تعالىٰ ـ:

وتظهر حقيقة وكمال التوكل على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عند رشيد رضا في حالات معينه يعجز فيها الإنسان عن تحصيل مقاصده عن طريق العمل، واتباع نظام الأسباب والسُّنن المعروفة والمقدورة بالنسبة إليه، ففي هذه الحالات يجب على الإنسان أن يرفع أمره إلى الله ـ تعالىٰ ـ مستعيناً ومتوكلاً عليه وحده، من أجل تحصيل حاجاته، وإنجاح أعماله.

وقد قسَّم رشيد رضا هذه الحالات التي يجب أن يَظهر فيها كمال توكل المسلم على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى حالتين:

١ـ في حالة وجود أسباب لم يتوصل الإنسان بعدُ إلى إدراكها، ولكنه إذا أدركها، فإنه يقدر على تسخيرها والإتيان بها، أي: تدخل تحت دائرة كسبه، ففي هذه الحالة يجب أن يتوجه إلى الله ـ تعالىٰ ـ، ويطلب منه أن يوفقه إلى

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٥٩٣)، وانظر: (١/ ٦١).

إدراكها ومعرفتها عن طريق الاستفادة من وسائل ومصادر العلم المعروفة، وأن يُعينه بعد ذلك على حُسن تسخيرها والاستفادة منها في سبيل إنجاح أعماله.

٢ـ في حالة وجود أسباب قد يعرفها الإنسان، وقد لا يعرفها، ولكنها في الحالتين لا تدخل تحت دائرة كسبه، وليس في إمكانه اكتسابها، مثل إنزال الأمطار بالنسبة إلى المزارع، فيجب على المسلم في هذه الحالة أن يفوِّضَ أمرَه إلى الله ـ تعالىٰ ـ، ويتوجه إليه بقلب صادق، داعياً إياه أن يكفيه أمر هذه الأسباب، ويتولى عنه تسخيرها للوصول إلى حاجاته[1].

إذاً فالتوكل عند رشيد رضا هو: أن يعمل المسلم كل ما يستطيع عمله، ويدخل تحت دائرة كسبه، مع أخذٍ بالأسباب والسُّنن، مع اعتقادٍ كامل بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمحض فضله ورحمته هو الذي سخَّر لنا الأسباب، وجعلها بقدرته وسائل للحصول على الغايات، وأما ما يعجز عنه، فعليه أن يدعو الله ـ تعالىٰ ـ أن يُعينه ويوفّقه إلىٰ إدراك الأسباب التي لا يعرفها، والتي يمكن أن تدخل تحت دائرة كسبه إذا عرفها، وأخيراً أن يُفوِّضَ له الأمر بالكليّة مع الدعاء الصادق، والاعتقاد الكامل بقدرته على أن يكفيه أمر الأسباب التي لا يقدر على تسخيرها دفعاً أو جلباً، سواء أَمكَنَ له أن يعرفها أو لا يعرفها.

ـ رفع التعارض بين التوكل على الله ـ تعالىٰ ـ وبين الأخذ بالأسباب:

يقول رشيد رضا موضحاً خلاصة رأيه في علاقة التوكل على الله ـ تعالى ـ، والعمل بالأسباب والسُّنن: «إن للأسباب مسبّبات لا تعدوها بحكمة الله ـ تعالىٰ ـ في نظام، وإن لله ـ تعالىٰ ـ أفعالاً خاصة به، فطلب المسببات من أسبابها ليس من اتخاذ الأنداد في شيء، وإن هناك أموراً تخفىٰ علينا أسبابها، ويعمىٰ علينا

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١٠/١٢٧ـ ١٢٨، ٢/٦٦ـ ٦٧، ٨/٩، ٥٩٢، ٥٩٣، ١/٦١).

طريق طِلابها، فيجب علينا بإرشاد الدين والفطرة أن نلجأ فيها إلى ذي القوة الغيبية، ونطلبها من مُسبِّب الأسباب؛ لعله بعنايته ورحمته يهدينا إلى طريقها، أو يبدلنا خيراً منها، ويجب مع هذا بذل الجهد والطاقة في العمل بما نستطيع من الأسباب حتى لا يبقى في الإمكان شيء، مع اعتقادنا بأن الأسباب كلها من فضل الله ـ تعالى ـ علينا، ورحمته بنا؛ إذ هو الذي جعلها طرقاً للمقاصد، وهدانا إليها بما وهبنا من العقل والمشاعر»[1].

ويوضح رشيد رضا رأيه هذا من خلال بيان الموقف التالي: «لا يسمح الدّين للناس أن يتركوا الحرث والزرع، ويدعوا الله ـ تعالىٰ ـ أن يخرج لهم الحب من الأرض بغير عمل منهم؛ أخذاً بظاهر قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[2]، وإنما يهديهم إلى القيام بجميع الأعمال الممكنة لإنجاح الزراعة؛ من الحرث والتسميد والبذر والسقي وغير ذلك، وأن يتكلوا على الله ـ تعالى ـ بعد ذلك فيما ليس بأيديهم، ولم يهدهم لسببه بكسبهم؛ كإنزال الأمطار، وإفاضة الأنهار، ودفع الجوائح، فإن استطاعوا شيئاً من ذلك، فعليهم أن يطلبوه بعملهم، لا بألسنتهم وقلوبهم، مع شكر الله ـ تعالىٰ ـ على هدايتهم إليه، وإقدارهم عليه»[3].

ـ رشيد رضا يُحذّر من الأخذ بالأسباب الوهمية:

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أنه إذا كانت حقيقة التوكل لا تكتمل إلا بالعمل بالأسباب التي جعلها الله ـ تعالىٰ ـ وسائل ضرورية للمسببات، فإنّ رشيد رضا قد حرص أيضاً على تنبيه المسلمين إلى عدم الأخذ بالأسباب الوهمية لقضاء حاجاتهم؛ أي: عدم الأخذ بالأمور التي يظن الناس جهلاً منهم

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٦٦).
(٢) سورة الواقعة: ٦٤.
(٣) «تفسير المنار» (٢/ ٦٦).

أنها أسباب ووسائل صالحة للحصول على مقاصدهم في هذه الحياة، وهي ليست كذلك.

يقول رشيد رضا: «وليس من التوكل ترك الأسباب الصحيحة في المعيشة والكسب والتداوي والحرب وغيرها، بل هو لا يتحقق بدونها، ولكن ينافيه الأخذ بالأمور الوهمية كالرُّقية والطِّيَرَة[1]»[2].

وقد أشار في موضع آخر إلىٰ أن الرُّقيَة «ليست من الأسباب الحقيقية للشفاء، وإنما يطلبها طُلابها ـ عند الجهل بالأسباب، والعجز عنها ـ على أنها من المؤثرات الغيبية، وإنما المطلوب شرعاً وعقلاً أن يُطلَب الشيء من سببه الحقيقي الذي يستوي فيه كل من تعاطاه»[3].

المبحث الخامس
السُّنن الإلهية والدعاء

ـ معنى الدعاء وشروطه عند رشيد رضا:

إنّ تصور الدعاء ومدى انسجامه مع السُّنن الإلهية ونظام الأسباب، يُعد في نظر رشيد رضا أثراً طبيعياً من آثار مفهوم التوحيد عنده، فإذا كان التوحيد يقتضي عنده ـ فيما يقتضي ـ اعتقاد المسلم بانفراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده، بالقدرة على التصرف فيما وراء الأسباب العادية المقدورة للناس جميعاً، فإنّ الدعاء عنده هو أن يطلب المسلم من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ طلباً صادراً عن الشعور

---

(١) الرُّقية: هي التمائم والعُوذَة التي يُعالج بها المريض، والطِّيَرة: هي التيمُّن والتشاؤم بحركات الطير، انظر: «**المعجم الوسيط**»، إبراهيم مصطفى، وآخرون، ط٣، دمشق، تصوير مكتبة النوري، د.ت، (١/ ٣٨٠، ٢/ ٥٩٥).

(٢) «**تفسير المنار**» (١٠/ ١٢٨).

(٣) «**تفسير المنار**» (٤/ ٢٠٩).

بالحاجة إليه، إيصالَ خير له، أو دفع شر عنه، بشرط أن يكون هذا الخير أو الشر من الأمور التي تقع وراء دائرة الأسباب المسخَّرة للعباد عادةً، والتي يمكن أن يصلوا إليها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها، «فإن ما نعجز عن نيله بالأسباب المسخَّرة لنا لا نطلبه إلا من الخالق المسخِّر للأسباب»[1] القادر على هدايتنا إليها، أو تسخيرها لنا[2]، وكل من يطلب من غير الله ـ تعالىٰ ـ أمراً يعجز هو وأمثاله عنه من طريق الأسباب؛ كالشفاء من المرض بغير التداوي، فقد اتخذه إلهاً؛ لأنه قد وقع في ظنه أن هذا المخلوق، مَلَكاً كان أم نبياً أم ولياً، يمتلك قسطاً من السلطة التي انفرد الله ـ تعالىٰ ـ بها، فيما وراء الأسباب العادية، وهذا الأمر شرك بالله ـ تعالىٰ ـ كما سبق أن بيّنا[3].

إذاً فالدعاء عند رشيد رضا لا يكون إلا بعد استنفاد الجهد والطاقة، والعمل بمقتضىٰ الأسباب والسنن الجارية في الكون، فإذا عجز المسلم بعد ذلك عن تحقيق ما يريد من جلب نفع له، أو دفع ضرر عنه، ففي هذه الحالة يجب عليه أن يتوجه إلى الله ـ تعالىٰ ـ بدافع الإحساس والشعور بالحاجة له، بأن يهديه إلى السُّنن والأسباب التي يتوقف عليها تحقيق مراده، ولم يقدر هو على معرفتها، أو يطلب منه أن يسخر له الأسباب التي يعجز هو عن تسخيرها.

يقول رشيد رضا: «ولا شك أن العارف بالله ـ تعالى ـ، والعالمَ بشرعه وسُننه في خلقه لا يقصد بدعائه ربه إلا هدايته إلى الطرق والأسباب التي جرت سُننه ـ تعالىٰ ـ بأن تحصَّل الرغائب بها، وتوفيقه ومعونته فيها، فهو إذا سأل الله ـ تعالىٰ ـ أن يزيد في علمه، أو في رزقه، فلا يقصد أن يكون العلم وحياً يُوحى، ولا أن تمطر السماء ذهباً ولا فضة، وكذلك إذا سأل الله شفاء مرضه أو مريضه

---

(١) «تفسير المنار» (٧/ ٤٥٣).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٣٠٨).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٤٥٧ـ٤٥٨).

الذي أَعَيا علاجه، فإنه لا يريد بذلك أن يخرق الله له العادات، أو يجعله مؤيَّداً بالمعجزات والآيات، وإنما يريد المؤمن العارف بالدعاء ما ذكرنا من توفيق الله إياه إلى العلاج، أو العمل الذي يكون سبب الشفاء»[1].

وهكذا فإن الدعاء عند رشيد رضا هو: طلب اللسان المطابِق «لِما في النفس من الشعور بالحاجة إلى الله ـ تعالىٰ ـ، بعد الأخذ بالأسباب في الطرق التي مضت بها سنة الله ـ تعالىٰ ـ»[2].

وانطلاقاً من هذا التعريف، فقد اشترط رشيد رضا حتى يكون الدعاء صحيحاً ومقبولاً عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أن يكون «بما هو جائز في شرع الله وسُننه في خلقه، فلا يجوز سؤال ما هو محرَّم، وما هو مخالف لسُنن الله ـ تعالىٰ ـ القطعية بما يقتضي تبديلها ولا تحويلها، وقلب نظام الكون لأجل الداعي، ولكن يجوز الدعاء بتسخير الأسباب وتوفيق الأقدار للأقدار، والهداية إلى العلم بالمجهول من السُّنن والنظام مع ما يؤدي إلى ذلك من الأعمال»[3].

ـ معنى الاعتداء في الدعاء:

يشترط رشيد رضا حتىٰ يكون الدعاء مقبولاً أنْ يكون منسجماً مع ما قضت به سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في الخلق، وأي دعاء بما يخالفها، يُعد في نظره من أنواع الاعتداء في الدعاء المنهي عنه شرعاً، استناداً إلى قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4]؛ أي: لا يحب المعتدين في الدعاء.

---

(1) «تفسير المنار» (٢/ ١٧٠).
(2) «تفسير المنار» (٢/ ٢٤٠).
(3) «تفسير المنار» (١٢/ ٨٥).
(4) سورة الأعراف: ٥٥.

«ومن الاعتداء في الدعاء طلب المُحال الشرعي أو العقلي؛ كطلب إبطال سُنن الله في الخلق، وتبديلها أو تحويلها، ومنه طلب النصر على الأعداء، مع ترك وسائله؛ كأنواع السلاح والنظام، والغنىٰ بدون كسب»[1]، ويُعد الدعاء بما يؤدي إلى إبطال السُّنن اعتداءً؛ لأن المسلم بدعائه هذا كمن يطلب من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تغيير إرادته التي قضت بثبات السُّنن وعدم تغييرها[2]، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[3].

وكما اشترط رشيد رضا العمل والأخذ بالأسباب والسُّنن حتى يكون الدعاء مقبولاً ومُجاباً عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقد اشترط أيضاً العلم بالشريعة وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ، حتى لا يطلب الداعي من الله ـ تعالىٰ ـ شيئاً قد يخالفهما، فيقع في الاعتداء المنهي عنه، هذا بالإضافة إلى أنَّ العلم بهما ضروري ولازم من أجل العمل بهما، فلا عمل صحيحاً بدون علم صحيح كما هو ثابت شرعاً وعقلاً.

«وتوقُّف الدعاء على العمل يستلزم توقفه على العلم، فلا يكون الداعي داعياً حقيقة كما يحب الله ويرضىٰ إلا إذا كان قد عرف ما يجب عليه من الشريعة وسُنن الاجتماع، واتبعه بقدر استطاعته»[4].

إذاً فالداعي الحقيقي ـ في نظر رشيد رضا ـ هو الذي يخص الله ـ تعالىٰ ـ بالدعاء، ويلتجىء إليه التجاءً حقيقياً، ويشعر بقلبه أنه لا ملجأ له إلا إليه، وهذا الداعي لا يطلب ما لا يجوز شرعاً، أو ما يخالف سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الثابتة في خلقه، «وإنما يمتثل أمر الله ـ تعالىٰ ـ باتخاذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة، وهي لا تتحقق إلا بالعلم والعزيمة والعمل، فإن تمَّ للعبد ما يريد

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٤٥٩).
(٢) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٤٥٦ـ٤٥٩، ١/ ٤٥٦).
(٣) سورة فاطر: ٤٣.
(٤) «تفسير المنار» (٣/ ١٥٢).

بذلك»[١]؛ أي: عن طريق أخذه بالأسباب الممكنة له، «فقد أعطاه الله ـ تعالىٰ ـ من خزائنه التي يفيض منها على جميع متَّبعي سُننه في الخلق»[٢]، فالمعطي له في هذه الحالة هو الله ـ تعالىٰ ـ وحده، لا سواه؛ لأن الله ـ تعالىٰ ـ هو الذي نظَّم السُّنن والأسباب، ورتَّب النتائج وفقاً لها، وهذه الأسباب والسُّنن لم تكن طرقاً للوصول إلى هذه النتائج إلا بجعْلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لها كذلك، لذلك فإن المعطي الحقيقي عن طريق اتّباع الأسباب والسنن هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[٣]، ولكنْ إذا بذل المسلم جهده، واستفرغ طاقته، ولم يظفر بحاجته، فما عليه إلا أن يلجأ إلى مُسبب الأسباب، وهادي القلوب إلى ما غاب عنها، وخفي عليها، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده ملكوت كل شيء»[٤]، وذلك بأن يهديه إلى الأسباب المؤدية إلى حاجته، ولم يتمكن من معرفتها، أو بأن يسخِّر له بقدرته النافذة الأسبابَ التي عجز عن إدراكها أو معرفتها أو تسخيرها.

المبحث السادس

السُّنن الإلهية والتقوىٰ

ـ تعريف رشيد رضا للتقوىٰ:

يعرِّف رشيد رضا التقوىٰ لغةً بأنها: البعد، أو التباعد عن المُضِرِّ، أو مدافعتُه، وبما أن كلمة التقوى في القرآن الكريم وَرَدَت بشكل عام مُضافة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾[٥]، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ١٧٠ـ ١٧١).

(٢) «تفسير المنار» (٢/ ١٧١).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٣٨).

(٤) «تفسير المنار» (٢/ ١٧١).

(٥) جزء من قوله تعالىٰ: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، إذاً فتقوىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تعني اتقاء عذابه وعقابه، وعقابُ الله ـ تعالىٰ ـ الذي يجب اتقاؤه ينقسم إلى قسمين: دنيوي، وأخروي، وكل منهما له أسبابه الخاصة به، ويُتقىٰ بأسلوب خاص به أيضاً، فعقاب الله ـ تعالىٰ ـ في الآخرة، سببه مخالفة شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الواضح والمفصَّل في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويُتقى هذا العقاب بالعقيدة السليمة والعمل الصالح، واجتناب كل ما ينافي ذلك من الشرك والكفر وجميع أنواع المعاصي والرذائل، وكل ذلك واضح بيِّن في الكتاب الكريم والسُّنة الشريفة.

أما عقاب الله ـ تعالىٰ ـ في الدنيا بالآلام والأمراض والمصائب بالنسبة إلى الأفراد، وضياع السيادة، وذهاب الاستقلال والهزيمة بالنسبة إلى الجماعات والأمم، فسببه مخالفة سنن الله ـ تعالىٰ ـ في نظام خلقه الجارية في عوالم المادة والإنسان والجماعات على حد سواء، وهذا العقاب يُتّقىٰ بالعلم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ نفسها التي أدت مخالفتها إلى استحقاق هذا العقاب[2].

وبناءً على هذا الفهم الشامل لعقاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدنيا والآخرة، وأسبابه وطرق الوقاية منه، نجد أن رشيد رضا يصف تعاريف معظم المفسرين السابقين للتقوى بأنها ليست أكثر من فعل الطاعات وترك المعاصي، بأنه تعريف مجمل ومبهم، ولا يكفي البتة لتغطية ما تشمله التقوىٰ من معان ومجالات، ولذلك وجدناه يحرص في أكثر من موضع في تفسيره على تقديم تعريف شامل للتقوىٰ، يشمل في الوقت عينه جميع مجالاتها الواردة في القرآن الكريم، إذ

= بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ سورة البقرة: ٤١.

(١) جزء من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ سورة البقرة: ١٩٧.

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١/ ١٢٤ـ ١٢٥)، وانظر: (١٢/ ٢٤٣).

إنها «قد ذُكرت في التنزيل في سياق الأوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات، وآداب وقتال وسنن اجتماع وطعام وشراب وعشرة وزواج»[1]، فتقوىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تكتسب معناها التفصيلي حسب السياق الذي ترِد فيه.

من تعاريف رشيد رضا للتقوىٰ قوله بأنها هي: «اتقاء كل مايفسد العقائد والأخلاق الخاصة والعامة، وتحرِّي مايصلحها بهدي الكتاب والسنة، وماأرشد إليه من سنن الله ـ تعالىٰ ـ في حياة الأمم وموتها، وقوتها وضعفها، وبقاء دولها وزوالها، وكون هذه السُّنن مطّردة في جميع الشؤون العامة من منزلية ومدنية وحربية وسياسية، لا تبديل لها ولا تحويل، ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنِّحَل»[2].

ومن تعاريفه الجامعة لمعاني التقوىٰ أيضاً: «التقوىٰ: اتقاء ما يترتب على مخالفة دين الله وشرعه، وتنكُّبِ سُننه في خلقه من ضرر وفساد»[3].

نلاحظ من هذين التعريفين أن التزام سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، واتقاء كل ما يترتب على مخالفتهما من مفاسد وأضرار، يشكّل ـ مع الالتزام بهدي الكتاب والسُّنة، واجتناب كل ما يخالف هذا الهدي ـ ركني التقوىٰ في نظر رشيد، وهذا الأمر مفهومٌ ومنطقيٌّ جداً بالنسبة إليه، وخصوصاً إذا تذكرنا أنه يعد سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه بمثابة أوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكوينية التي تمشي وتنسجم تماماً مع أوامره التكليفية المودَعَة في الكتاب الكريم والسنة الشريفة.

ونلاحظ أيضاً ـ من خلال هذين التعريفين ـ: أن التقوىٰ عند رشيد رضا تشمل كافة الميادين والمجالات، فهناك تقوىٰ في المجالات الدينية الخالصة من عقائد وأخلاق، وهناك تقوىٰ تخص الأفراد والجماعات والأمم، فلكلٍّ

(١) «تفسير المنار» (٨/ ١٩٧)، وانظر: (٥/ ٤٥٢).
(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٣).
(٣) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٣).

تقواه الخاصة به، والمناسِبة لمضمونه، ومن الأمثلة الكثيرة التي ذكرها رشيد رضا على تنوع معنى التقوى حسب السياق الذي وردت فيه، ما قاله عندما فسَّر كلمة المتقين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]: «والمتقون في هذا المقام، مقام استعمار الأرض والسيادة في الممالك، هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد، وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأمة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل، والصالحون في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض، وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي»[2].

ـ شرطا التقوىٰ:

وبما أن التقوىٰ ـ عند رشيد رضا ـ تقوم على عدم مخالفة ما جاء في الكتاب والسنة، وعلى التقيُّد بموجب السُّنن الإلهية في الخلق، فمن الطبيعي أن يشترط لتحقيق التقوىٰ، وللوصول إلى مرتبة المتقي الحقيقي: ضرورة العلم الواسع والعميق بالكتاب والسُّنة، بالإضافة إلى الوقوف ما أمكن على سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في خلقه، وخاصة السُّنن المتعلقة بالأفراد والمجتمعات[3]، فإذا أخذ المسلم نصيباً وافراً من العلم بالكتاب والسُّنَّة، والسُّنن الإلهية، فلا شك أنه سيظفر بدرجة التقوىٰ، وسيكرمه الله ـ تعالىٰ ـ نتيجة ذلك الظفر بإيتائه مَلَكة الفرقان، وهي مَلَكة من العلم والحكمة يفرق بها صاحبها بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وبين الخير والشر، ويميِّز بين المصلحة والمفسدة، ويفصل فيها بين ما يجب قبوله، وما يجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله،

---

(١) جزء من الآية الكريمة: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سورة الأعراف: ١٢٨.

(٢) «تفسير المنار» (٥/ ٤٧٩).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٩/ ٦٤٨ـ ٦٤٩)، (٦/ ٣٦٩).

وما يجب تركه في كافة مجالات الحياة[1]، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2]، وسيكرمه الله ـ تعالىٰ ـ أيضاً بأن يجعل النجاح والفوز والبقاء من نصيبه دائماً؛ لأن «المتقي هو صاحب الحق، وبقاؤه هو الأصلح، والعاقبة له في كل ما ينازعه به الباطل؛ لأن من أصول التقوىٰ اتقاء جميع أسباب الفشل والخذلان»[3].

ـ معنىٰ الفسق عند رشيد رضا:

وإذا كانت التقوىٰ عند رشيد رضا تعني عدم الخروج عن أوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكوينية والتكليفية، فإنه يصف من يخرق هذه الأوامر، ويخرج عنها بالفاسق، والفسوق عنده وفق هذا التصور هو: «الخروج عن هداية الله ـ تعالىٰ ـ في سننه في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وبكتابه»[4].

ويصبح الفاسق في هذه الحالة هو كل من لم يتّبع أوامر الله ـ تعالىٰ ـ المودَعة في شرعه المحكَم، ولم يراعِ سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق التي تؤدي إلى «تقويم البنية البشرية، وإنمائها، وإبلاغها قواها ومَلَكاتها حدَّ الكمال الإنساني المكمِّل لها»[5].

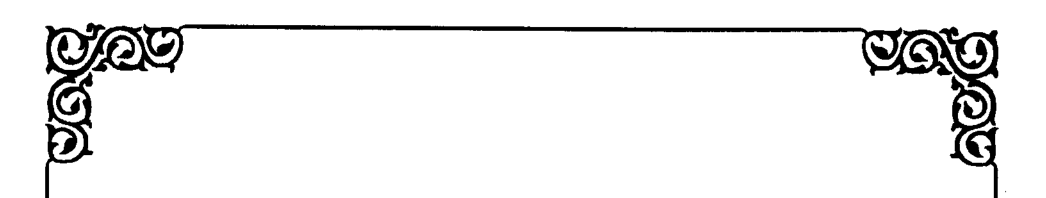
وهكذا يمكننا أنْ نقول بكلمة موجزة: إنَّ التقوىٰ ـ حسب رشيد رضا ـ هي تعبيرٌ عن حالة التوافق والانسجام بين المسلم، وبين أوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المسطورة في نصوص كتابه الكريم، وسُنّة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ،

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٩/٦٤٨ـ٦٤٩، ١٠ـ١٣٧).
(٢) سورة الأنفال: ٢٩.
(٣) «تفسير المنار» (٢/٢١٣، ٤/١٤٥).
(٤) «تفسير المنار» (١/٢٣٨).
(٥) «تفسير المنار» (١/٢٤٢).

والمبثوثة في كونه ومخلوقاته، وكل خروجٍ عن مقتضىٰ هذه الأوامر يكون هو الفسق بعينه، وبالتالي فهو مَدْرَجة الإنسان نحو الشقاء والتردّي في الدنيا والآخرة.

❑ ❑ ❑



الباب الثالث

السنن الإلهية في شؤون الأفراد والأمم عند محمد رشيد رضا

الباب الثالث

يقسم هذا الباب إلى فصلين

سأتناول في الفصل الأول منهما: سنن الله تعالىٰ في البشر والشؤون المتعلقة بهم.

وسأتناول في الفصل الثاني: السنن الإلهية العاملة في ميدان الأمم والمجتمعات البشرية.

وسأمهد لهذا الباب بما يبين أن هذا الباب هو الثمرة العملية لدعوة رشيد رضا إلى دراسة واستخراج السنن الإلهية.

تمهيد

السُّنن الإلهية في الاجتماع البشري عند رشيد رضا

تنبغي الإشارة منذ البداية إلى أنّ هذا الباب يُعد بمثابة الثمرة العملية لدعوة رشيد رضا إلى دراسة واستخراج السُّنن الإلهية، والهدف من مناقشته وقراءته لكثير من القضايا والمسائل العقائدية ـ كما سبق أن رأينا ـ في ضوء علاقتها بالسُّنن الإلهية، فغاية رشيد رضا من هذا وذاك هي تحرير وعي وإرادة المسلمين وعزيمتهم، وإعادة إطلاقهم من جديد في سبيل العمل على تغيير حياة المسلمين ومجتمعاتهم نحو الأفضل والأقوم، وذلك لن يكون ـ في نظره ـ إلا إذا تم التعرّف والالتزام بأوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكوينية العاملة في الاجتماع البشري، كما هو الأمر والحال بالنسبة إلى الالتزام بأوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكليفية الواردة في الكتاب والسُّنّة، ولن يستطيع المسلمون التخلص من آفات واقعهم، والخروج من مستنقعات التخلّف الاجتماعي والسياسي والاقتصادي التي يتخبطون فيها الآن إلا إذا اعتصموا بأوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، واستكشفوا سُننه التي أجرى عليها أمور خلقه في اجتماعهم البشري، وعملوا بها.

وانطلاقاً من هذا التصور، وإحساساً بالمسؤولية نحو أمته، فقد استفاض رشيد رضا أيّما استفاضة، وأجهد نفسه أيّما إجهاد في سبيل كشف اللثام عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة في الأنفس والمجتمعات، تلك السُّنن التي أشار إليها القرآن الكريم، ونبَّه إليها بشكل واضح، ولكن ـ للأسف الشديد ـ غفل عن هذه

الإشارة مَنْ غفل من المفسرين والعلماء السابقين والمتأخرين، الأمر الذي دفع رشيد رضا إلى توجيه اللوم إليهم في أكثر من موضع في تفسيره[1]، من هذه المواضع قوله:

«ولم يقصِّر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصَّروا في بيان ما هدىٰ إليه القرآن والحديث من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك، والحثّ على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام، لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها، وهو مالا يغني عنه التوسّع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة والسَّلَم[2] والإجارة، فإن العلم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله ـ تعالىٰ ـ وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله، وإنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بهاأعزاء أقوياء سعداء»[3].

وهكذا فإنّ دراسة واستكشاف والأخذ بالسُّنن الإلهية العاملة في الاجتماع البشري، تُعد في نظر رشيد رضا ـ بحق ـ جزءاً لا يتجزأ من دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي تعبَّد الناس به، وأمراً ضرورياً ولازماً من لوازم اتباع السُّنة والكتاب، وهكذا فإنّه لا يمكن بحال من الأحوال إهمال وتجاهل هذا الجزء الضروري، والادّعاء بعد ذلك بالالتزام بالإسلام كله.

❑ ❑ ❑

---

(١) انظر على سبيل المثال: «تفسير المنار» (٩/ ٣٠ـ ٣١، ١١/ ٣١٧).

(٢) السَّلَم: نوع من البيوع يُعجَّل فيه الثمن، وتُضبط السلعة بالوصف إلى أجلٍ معلوم، انظر: «**القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً**»، سعدي أبو جيب، دمشق، دار الفكر، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، (١٨٢).

(٣) «تفسير المنار» (٧/ ٤٩٩ـ ٥٠٠).

الفصل الخامس

السُّنن الإلهية في شؤون البشر

يُعد هذا الفصل بمباحثه الخمسة امتداداً طبيعياً واستكمالاً موضوعياً لمواضيع الفصل السابق التي تدور جميعاً حول مسائل العقيدة الإسلامية، وعلاقتها بالسُّنن الإلهية، ولكن ـ وعلى الرغم من ذلك الامتداد والتواصل ـ فقد رأيتُ أنه من الأفضل إفراد فصل مستقل للمسائل المدروسة هنا، وذلك بالنظر إلى الجامع الذي يوحِّدها جميعاً، وهو ارتباطها وعلاقتها الحميمة بشؤون الإنسان ونظام خلقه.

ففي المبحث الأول سنتعرّف ـ من وجهة نظر رشيد رضا بالطبع ـ على سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في خلق الإنسان مختاراً.

وفي المبحث الثاني سندرس سُنة الله ـ تعالى ـ في أعمال البشر والجزاء عليها.

وفي المبحث الثالث سنتعرّف على أهم وأخطر موضوع يتعلق بمصيرالإنسان ومستقبله، ألَا وهو سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في هداية الإنسان وضلاله.

وفي المبحث الرابع سنتعرَّف على سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في اختلاف البشر، وما يتولّد عنها من ظهور المجتمعات البشرية.

وفي المبحث الخامس سنتعرّف على سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في ابتلاء البشر وتمحيصهم تحقيقاً لمصالحهم الفردية والجماعية في الدنيا والآخرة.

المبحث الأول

سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في خلق الإنسان مختاراً

ـ موقف بعض الفِرَق الإسلامية من قضية اختيار الإنسان وأفعاله :

تُعدّ قضية اختيار الإنسان وقدرته على القيام بأفعاله ومسؤوليته عنها من أعوص القضايا في تاريخ الفكر الإسلامي، فهي تبحث في إرادة الإنسان، ومدى حريته في أفعاله، وفي صلة هذه الإرادة بالإرادة والمشيئة الإلهية، تُرىٰ هل هي مستقلة أو خاضعة لها ؟

وتجدر الإشارة إلى أن الفكر الإسلامي قد شهد جدلاً واسعاً في محاولةٍ منه لمعرفة وتحديد موقف الإسلام من هذه القضية، ومن أشهر المحاولات في هذا المجال محاولة الجبرية والمعتزلة والأشاعرة التي يمكن إيجاز رؤية كلٍّ منها على الشكل التالي :

ـ **الجبرية**: وهم الذين نفوا وجود أيّ قدرة للإنسان إلى جانب قدرة الله ـ تعالىٰ ـ خالق البشر وأعمالِهم، ونسبوا كل الأفعال والأعمال التي يقوم بهاالبشر إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبذلك أصبح الإنسان في نظرهم مُجبراً على القيام بأفعاله، وقالوا بأن الأفعال تُضاف إلى الإنسان إضافة مجازية لا حقيقية، كأن نقول: أثمرت الشجرة بإضافةِ وإسناد الإثمار إلى الشجرة، مع أنّ الذي أَثمرَ الشجرةَ هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا غير.

ـ **المعتزلة**: وهم الذين قالوا: إنّ الإنسان حر في إرادته، وقادر على الفعل، وإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد فوّض للإنسان أنْ يفعل، أو أنْ يتركَ ما يشاء بقدرته الذاتية المستقلة، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلم من الأزل ما سيكون من هذا الإنسان من فعلٍ أو تركٍ، وسيجازيه على أفعاله كلّها بسبب ما أعطاه من حريةٍ وإرادةٍ وقدرةٍ على اختيارها وفعلها، وهذا الجزاء بعد ذلك العطاء هو عين العدل الإلهي.

ـ **الأشاعرة**: وهم الذين حاولوا التوسّط بين الجبرية والمعتزلة، فقالوا بقدرة الإنسان على كسب أفعاله لا غير، ومعنىٰ الكسب عندهم هو: أنّ قدرة الإنسان التي تظهر في أثناء مباشرة الفعل، ليست هي السبب المباشر لحدوث الفعل؛ لأنها لم تكن موجودة أصلاً، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي خلقها عند تحرّك رغبته وتوجهه نحو فعلٍ ما، فالإنسان لا يباشر أفعاله بقدرته الذاتية المودَعة في أصل خلقه، بل بخلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهذه القدرة عند مباشرة الأفعال، ومن ثَمَّ بخلق الأفعال ذاتها، وهكذا اكتفىٰ الأشاعرة بإسناد دورٍ رمزي للإنسان في العمل لا أكثر.

ويجدر القول: إن أصحاب كل موقف من هذه التيارات الثلاثة، كانوا يحتجون على كلامهم بالآيات القرآنية الكريمة، التي يتفق ظاهرها مع ما ذهبوا إليه، وكانوا يعمدون إلى إجراء تأويلٍ متعسّفٍ لكل آيةٍ كريمةٍ لا يشير ظاهرها إلى ما ذهبوا إليه من رأي[(١)].

ـ موقف رشيد رضا من قضية اختيار الإنسان وأفعاله:

أما الشيخ رشيد رضا الذي عُرِفَ عنه تأكيده الشديد على أنّ القرآن الكريم فوق المذاهب جميعها، وقبلها كلها، وأنّه لا يجوز استجلاء الإسلام من أي قضية بالعودة إلى آراء أصحاب المذاهب، ثم العودة إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم على ما يرونه، بل كان يرىٰ أن الواجب على العالِم العودة أولاً إلى القرآن الكريم، إلى نَظْمه وبيانه النبوي، وسُننه الإلهية المقرَّرة، ثم بعد ذلك

---

(١) انظر: «**القرآن والفلسفة**»، محمد يوسف موسىٰ، ط٤، القاهرة، دار المعارف، د.ت، (١١٠ـ ١٣٨). وانظر: «**علم الكلام وبعض مشكلاته**»، أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، القاهرة، دار الثقافة، (١٩٧٩م)، (١٣٤ـ ١٥٢).

مناقشة ومحاكمة أقوال أصحاب المذاهب في ضوء ما قرره البيان القرآني والنبوي، وما جاءت به السُّنن الإلهية[1].

وفي هذه القضية بالذات، حلَّ رشيد رضا مشكلة تعارض ظاهر الآيات القرآنية الكريمة التي يوحي بعضها بالجبر[2]، ويوحي بعضها الآخر بقدرة الإنسان على الفعل[3] بالانطلاق من الحقيقة القرآنية القائلة بأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الكون بمقتضى سُننه، وبالتالي فإن كل ما يحدث في هذا الكون هو أثر لازمٌ لجريان هذه السُّنن وثباتها واطّرادها[4].

يقول رشيد رضا: «إنه ـ تعالىٰ ـ هو خالق كل شيء، الذي بيده ملكوت كل شيء، وبمشيئته يجري كل شيء، فلا قاهر له على شيء، وهو القاهر فوق كلّ شيء، وإنّ خلقه وتدبيره إنما يجري بحسب مشيئته وحكمته على سُنن مطّردة ومقادير معلومة»[5].

ومن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ الفاعلة في هذا الكون أنّه اختار ـ عزَّ وجلَّ ـ بمحض إرادته ومشيئته المطلقة أنْ يكون الإنسان مختاراً مسؤولاً عن أفعاله، لذلك فإنَّ ما يقوم به الإنسان، وما يفعله في حياته، إنما هو أثرٌ من آثار هذه القدرة على

---

(١) انظر: **«تفسير المنار»** رشيد رضا، (٩/ ٦٢٢، ١٠/ ١٩٨).

(٢) من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ سورة الأنفال: ١٧، كذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ سورة الواقعة: ٦٣ـ ٦٤.

(٣) من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ سورة الأنعام: ١٠٤، وكذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ سورة آل عمران: ١٦٥.

(٤) انظر: **«تفسير المنار»** رشيد رضا (٦/ ٢٨٧).

(٥) **«تفسير المنار»**، رشيد رضا (٤/ ١٨٩).

الاختيار، والقدرة على الفعل اللّتين زوده الله ـ تعالىٰ ـ بهما بمحض مشيئته المطلقة.

يقول رشيد رضا: «إنّ في جملة سُننه [تعالى] في خلقه وقَدَره في تدبير عباده: أنّ الإنسان خُلق ذا علم ومشيئة وإرادة وقدرة، فيعمل بقدرته وإرادته ما يرىٰ بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خيرٌ له، وهو ليس في ذلك معارضاً لمشيئة الله، ولا مُزيلاً لها، بل مشيئته تابعة لمشيئة الله، ومظهرٌ من مظاهرها؛ كما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، وقد جرت سُنته بأن يشاء لنا أن نعمل عندما يترجح في علمنا أنّ العمل خير من تركه، وأنْ نترك عندما يترجح في علمنا أنّ التركَ خير من الفعل؛ كما هو معلوم لكل من يعرف ما هو الإنسان»[2].

وهكذا يصح أن تكون أفعالُ الإنسان منسوبةً إليه مباشرة على اعتبار أنّه هو الذي اختارَ، وفعلَ بقدرته الذاتية التي منحه الله ـ تعالىٰ ـ إياها، ويصح أيضاً أن ننسب هذه الأفعال إلىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مباشرة؛ لأنها من آثار سُننه التي أقامها بملء إرادته، وجعل الإنسان بموجبها قادراً علىٰ الاختيار والفعل.

يقول رشيد رضا: «والله ـ تعالىٰ ـ يُسند الأمور إلى أسبابها تارةً، وإليه ـ تعالىٰ ـ تارةً، من حيث إنه خالق كل شيء، وواضع سُنن الأسباب والمسببات، ويختار هذا أو ذاك في البيان بحسب سياق الكلام»[3].

وبناءً على هذا التصور السليم، فإنّ رشيد رضا يَعُدُّ ظاهر الآيات التي تَنسب الأفعال إلىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صحيحاً لا يحتاج إلى تأويل، على اعتبار أنّ الله

---

(١) سورة الإنسان: ٣٠.

(٢) «**تفسير المنار**»، رشيد رضا (٤/ ١٨٩ـ ١٩٠)، وانظر أيضاً: (٩/ ٤٠٦).

(٣) «**تفسير المنار**»، رشيد رضا (٩/ ٦٣٦)، وانظر أيضاً: (١٠/ ١٩٨ـ ١٩٩).

ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي صمّم نظام السُّنن، وبالتالي فإن ما ينتج عن هذا النظام ـ ومن جملته أفعال الإنسان ـ، فهو من فعل صاحب النظام ذاته، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

إذاً فما يكون ويحدث بمقتضىٰ سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق يمكن أن ينسبه الله ـ تعالىٰ ـ إلى ذاته العليّة؛ باعتباره هو الذي أقام هذه السُّنن، وأَجرىٰ الخلق عليها، وليس لأنه هو الذي أجبرهم عليها، ذلك لأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ ترك لهم باب الاختيار مفتوحاً في البداية، فهو لا يُجبر الإنسان على عملٍ ما ابتداءً، لكن الإنسان إذا اختار أمراً، فإن آثار اختيار هذا الأمر ستنعكس عليه بالضرورة، وسيتحمّل نتائجه بموجب سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في ارتباط الأسباب بمسبباتها، وإذا اختار أمراً آخر يكون قد جنَّب سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه مختاراً، قبل أن يختار، ويفعل أيَّ أمر، فإذا اختار، وفعل أمراً ما، فإنه يفقد حريته، ويخضع لنتائج هذا الذي اختاره، وفعله هو بموجب سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في ارتباط الأسباب بنتائجها.

بهذه الرؤية العلمية المستندة إلى السُّنن الإلهية أثبت رشيد رضا أنّه لا تعارض البتة بين قدرة العباد على أفعالهم، واختيارهم لها، وبين قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومشيئته المطلقة، دون الدخول إلى نفق التأويلات المتضاربة التي غرق فيها الجبرية والمعتزلة والأشاعرة على السواء، والتي جرّت على المسلمين تخبطاً كبيراً في هذه القضية، انعكس أثره السيىء على حياة أفرادهم ومجتمعاتهم، وفتح الطريق أمام تسرّب الوهن والعجز والتخاذل إلى إرادة وقدرة مجموع الأمة وعامّتها، وهذا الأمر ـ مع أمور أخرىٰ ـ هو الذي مهّد الطريق أمام تدفق جحافل الغزاة الذين تكالبوا على العالم الإسلامي، وتغلغلوا بيسر وسهولة في أحشائه، وعاونهم على ذلك بعضُ أصحاب الطرق الصوفية، وحشْدٌ من العلماء المقلّدين الذين تركوا النظر المستقل في القرآن الكريم،

وبيانه النبوي، والسُّنن الإلهية، واكتفوا بما قاله علماؤهم، وما قرّروه من آراء، حتى ولو كانت هذه الآراء تؤدي إلى شلِّ فاعلية الأمة أفراداً وجماعات، وإلى الحدِّ من قدرتها الذاتية على مواجهة التحديات النابعة من ظروفها الداخلية، والمفروضة عليها من قِبل الآخرين[1].

المبحث الثاني
سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في أعمال البشر والجزاء عليها

ـ سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في أعمال البشر:

تقرَّر معنا في المبحث السابق أنّ من سُنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الثابتة في خلقه، أنَّ الله ـ تعالىٰ ـ قد خلق الإنسان مختاراً مسؤولاً عما يأتي ويترك من أفعال بموجب قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومشيئته التي اقتضت ذلك، ومعنى هذا أن الإنسان بموجب القدرة والحرية اللتين أعطاهما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له، قادرٌ على إنجاز الأعمال التي يريدها، وقادرٌ على ترك الأعمال التي لا يريدها، وبالتالي فهو مسؤول عن هذه الأعمال، ومحاسَب عليها وفق سُنن الله ـ تعالىٰ ـ المتعلقة بأعمال البشر والجزاء عليها[2].

وقد أعطىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الإنسان كل الوسائل الضرورية لمساعدته علىٰ اختيار الأعمال النافعة له، وهذه الوسائل هي: القدرة والحرية والفطرة السليمة التي أودعها الله ـ تعالىٰ ـ في ذاته، بالإضافة إلى العقل والدّين السليم، وهذه الوسائل جميعاً هي هداياتٌ للإنسان للوصول إلى ما ينفعه ويفيده في الحياة الدنيا والآخرة، فإذا أحسن استعمالها واستخدامها، استطاع أن يختار الطريق

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢٨٦ـ ٢٨٧).
(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ١٨٩ـ ١٩٠).

السليم، ويحصل على كل ما ينفعه، ويصلح شأنه في الدنيا والآخرة، وإذا أساء استعمالها، فلن يحصد نتيجة ذلك إلا الضرر والمصائب، في العاجل والآجل على السواء[1].

وقد قرَّرَ رشيد رضا أن أعمال البشر ما هي في الحقيقة ـ وبحسب سُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في الخلق ـ إلاّ آثار طبيعية ولازمة للعقائد الراسخة والصفات النفسية الثابتة التي يكتسبها الإنسان بالحرية والقدرة التي متَّعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهما، دون إجبارٍ أو إكراهٍ منه ـ عزَّ وجلَّ ـ على اكتسابها[2].

يقول رشيد رضا: «إن المعروف من سُنّة الله في الإنسان أنّ عقائده الراسخة اليقينية لها السلطان الأعلىٰ علىٰ أعماله البدنية، ولا عمل إلا عن فكرٍ من العقل، أو وجدانٍ من القلب»[3].

وبحسب نوعية وطبيعة هذه العقائد والصفات تكون نوعية وطبيعة أعمال الإنسان، فمَنْ كانت عقائده وصفاته صالحة، أثمرت أعمالاً صالحة، ومَنْ كانت عقائده وصفاته فاسدة، فأعماله بالضرورة فاسدة.

وقد أشار رشيد رضا إلى أنّ نفسَ عقائد الإنسان وصفاته النفسية هذه، تزداد رسوخاً في النفس بمقدار العمل بها، فهي إذاً تدفع الإنسان إلى العمل وفقها، وإذا قام به (أي: العمل)، فإن نتيجة هذا القيام تعود عليها بالثبات والرسوخ والاستقرار في عقل الإنسان ونفسه.

يقول رشيد رضا: «إن سنته ـ تعالىٰ ـ في البشر أنَّ العمل بما يقتضيه النفاق يمكّن النفاق ويقويه في القلب، كما أنّ العمل بمقتضىٰ الإيمان يزيده قوةً

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٤٨٣ـ ٤٨٥).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٤٦٤ـ ٤٦٥، ١٠/ ٥٨٢، ٥٩٠ـ ٥٩١ـ ٤٧١).

(٣) «تفسير المنار» (٣/ ٢٥٠).

رسوخاً في النفس، وهكذا جميع صفات النفس وعقائده تَقْوَى وترسخ بالعمل الذي يصدر عنها»[1].

إذاً فإن أساس عمل الإنسان ومنطلقه بحسب سُنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الخلق هو عقيدته اليقينية، وصفاته النفسية الراسخة في أعماق ذاته.

وبكلمةٍ أخرىٰ يمكننا أن نقول: إنَّ أفكارَ الإنسان وتصوراته وقناعاته وخصائصه النفسية الثابتة هي التي تُحدّد سلوكه وأعماله[2]، وهنا نلاحظ أنّ كَشْفَ رشيد رضا عن هذه السُنّة الإلهية ينسجم تماماً مع ما يقرره القرآن الكريم من أن تغيير حياة الإنسان، وكل ما يحيط به من خارجه إنما يبدأ بتغيير الإنسان لأفكاره وذاته من الداخل، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3]؛ أي: إنَّ عملية تغيير الإنسان فرداً وجماعة، إنما تبدأ بتغيير ما زرعه الإنسان بيده ـ وبملء إرادته وحريته ـ في داخله من أفكار وقيم أثمرت أنماطاً سلوكية معينة، لا تتغير إلا إذا تغيَّر مصدرها؛ أي: الأفكار والقِيَم المنتِجة لها، فتغيير سلوك الإنسان ومسلكه في الحياة، وما يترتب على هذا السلوك والمسلك من ردود فعل اجتماعية، وما ينشأ عن هذا السلوك وهذه الردود من علاقات اجتماعية متشابكة وعديدة، كل هذا تابع بشكل قاطع لِما في

---

(١) «تفسير المنار» (١٠/ ٥٥٩)، وانظر أيضاً: «تفسير المنار» (٤/ ٢٥٠ـ ٢٥١).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١٠/ ٣٧ـ٣٨، ١٣٨).

(٣) سورة الرعد: ١١. لقد خصص جودت سعيد كتاباً كاملاً لتحليل مضمون ومعطيات هذه الآية الكريمة في كتابه: «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، وقد قدّم في هذا الكتاب مساهمة فكرية أصيلة سَعت إلى استجلاء معالم سنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في تغيير الإنسان والمجتمعات من خلال القرآن الكريم، وقد أكّد أنّ منهج التغيير القرآني المنطلِق من النفس ابتداءً هو المنهج الأرشد والأصوب في عمليات التغيير الفردي والاجتماعي والحضاري.

داخل الإنسان من أفكار وقيم هو المسؤول الأول عن اكتسابها، وهوالقادر ـ إنْ أراد ـ على تعديلها أو تغييرها وفق الوجهة التي يريد.

ـ سنة الله ـ تعالىٰ ـ في الجزاء على أعمال البشر:

أشار رشيد رضا إلى أن سُنّة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الخلق قد قضت بأنْ يكون لكل عمل يقوم به الإنسان باختياره وكسبه أثر في نفس صاحبه يزكيها ويطهّرها، أو يدنّسها؛ حسب نوعية العمل الذي قام به، «فالدين قد علمنا أن نجري على ما أودعته الفطرة من أن سعادة الناس وشقاءهم في الدنيا بأعمالهم، وأن عمل كل نفس يؤثر فيها التأثير الحسن الذي يزكيها إن كان صالحاً، أو التأثير السيىء الذي يدسّيها ويفسدها إن كان فاسداً»[1]، وهكذا فإن العقائد الصحيحة، والعلوم الثابتة، والأخلاق الحسنة، والأعمال الفاضلة تؤثر في نفوس أصحابها وتزكيها، وبالعكس فإن العقائد الفاسدة، والأفكار الرديئة، والأخلاق السيئة، والأعمال القبيحة تؤثر في نفوس أصحابها وتدسيها أيضاً، وقد رتَّب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على هذا الأثر الذي تتركه الأعمال في نفوس أصحابها جزاءين: أحدهما في الدنيا، والآخر في الدار الآخرة، أما الذي في الدنيا، فهو جزاء فطري طبيعي يترتب على آثار أعمال الإنسان واعتقاداته في نفسه بالضرورة، فالأثر الحسن المستقر في النفس بسبب الأعمال الحسنة، يستتبع بالضرورة حياة حسنة سعيدة لصاحبه، والأثر السيىء الراسخ في النفس بسبب الأعمال الفاسدة، يستتبع هو الآخر أيضاً حياة شقية وتعيسة لصاحبه، وذلك لأن لجميع «أعمال البشر الاختيارية غايات وآثاراً اضطرارية تُفضي وتنتهي إليها بطبيعتها بحسب نظام الأسباب والمسببات كما يُفضي الإسراف في الشهوات أو التعب أو الراحة

---

(١) «تفسير المنار» (٨/٢٤٦)، وانظر أيضاً: (٩/١٩٩، ٤/٣٠٩).

إلى بعض الأمراض في الدنيا»[1]، وكما تفضي الرياضة والنظافة والتغذية السليمة والراحة النفسية إلى صحة الجسم واعتدال مزاجه[2]، إذاً فإن الإنسان حرٌّ مختار في اكتساب أعماله وأفعاله، ولكن آثار هذه الأعمال والأفعال في النفس ـ وما يترتب عليها من جزاء ـ حتمية واضطرارية كما تؤكد حقيقة ذلك الوقائع المشهودة.

ونستطيع هنا أن نؤكّد أنَّ ما أشار إليه رشيد رضا من أن الارتباط الوثيق بين العمل وأثره، وبين الجزاء عليه بحسبه، قد أشار إليه القرآن الكريم في آيات كريمة كثيرة، ويؤكّد مضمونها أنّ لكل ساع ثمرةً من سعيه، سواء أكان سعيه صالحاً أم فاسداً، وهذا هو عين عدل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3]، وهناك آيات كريمة أخرىٰ تؤكد ارتباط السعادة بالعمل الصالح، وارتباط الشقاء بالعمل الفاسد، كما أشار إلى ذلك رشيد رضا، من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[4].

وقد انتبه رشيد رضا إلى أنَّ هذا الجزاء الدنيوي الفطري الطبيعي هو عامٌّ،

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٣٢٥ـ٣٢٦).

(٣) سورة الإسراء: ١٨ـ ٢٠.

(٤) سورة طه: ١٢٣ـ ١٢٤.

ويسري على جميع البشر من حيث المبدأ[1]، ولكنه غير مطّرد من حيث التنفيذ في حياة البشر في الدنيا، وعدم الاطّراد هذا لم يأت بسبب محاباة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لبعض البشر دون بعضهم الآخر، تَعَالىٰ الله عن ذلك عُلواً كبيراً، ولكن بسبب أنّ بعض الأعمال ـ سواء أكانت ضارة أم حسنة ـ قد تحتاج إلى وقت طويل تظهر آثارها في نفوس أصحابها، وقد يموت هؤلاء الناس قبل أن تظهر فيهم هذه الآثار، وينالوا الجزاء العادل عليها، لذلك كان لا بدَّ من أن يكون هناك وقت آخر لظهور آثار هذه الأعمال في الأنفس، ونيل الجزاء العادل عليها، وبذلك يأخذ كل مستحق حقه[2]، وهذا ما تكفّل به الجزاء الآخر، وهو جزاء الآخرة.

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[3]: «إنه ـ تعالىٰ ـ أقسم ليجمعنّكم، إذ لو لم يجمعكم للحساب والجزاء، لَظلَّ كثير من المحسنين منكم مغبونين محرومين، وكثير من المظلومين مهضومين، وكثير من الظالمين المسيئين غير مؤاخذين، ذلك بأن ما يترتب على الأعمال الحسنة في الدنيا من حُسن الأثر، وعلى الأعمال السيئة من قُبح الأثر، ليس عاماً مطّرداً في جميع الأفراد ـ كما تقدّم آنفاً ـ، وهو يُعلَم من الاختبار، ومن سُنن الله الاجتماعية والكونية، وذلك ينافي الرحمة، كما ينافي العدل والحكمة، فمن مقتضىٰ كتابته ـ سبحانه ـ الرحمة على نفسه أنْ يجمع الناس للفصل بينهم، وجزاء كل منهم بما يقتضيه العدل»[4].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٤٣٤) في هذه الصفحة يقول رشيد رضا: «الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل، لا يتخلّف في أتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون».

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٣٢٧ـ ١٠/ ٣٧ـ٣٨).

(٣) سورة الأنعام: ١٢.

(٤) «تفسير المنار» (٧/ ٣٢٧).

إذاً فإن الجزاء الثاني على أثر أعمال البشر في نفوسهم، هو جزاء الآخرة، وهو عام مطّردٌ في جميع البشر دون استثناء، وهو جزاء تابعٌ لجزاء الدنيا، ومُترتّب عليه، وقد أنشأه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بموجب عدله وإحسانه[1].

وهذا الجزاء قسمان:

«**أحدهما**: ما يزيد الله المحسنين من الكرامة والنعيم بفضله على ما استحقوه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة بحسب وعده.

وثانيهما: القصاص في الحقوق، وإن قلّت، وما يقتص به ـ تعالىٰ ـ للمظلومين بحسب عدله، ولّما كان مقتضىٰ الرحمة والفضل أعمَّ وأسبق من مقتضىٰ العدل، كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، وإنما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[2]، ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[3]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[4]»[5].

وقد دعم رشيد رضا استنتاجاته للسُّنّة الإلهية القاضية بأنَّ الجزاء مبنيٌّ على الأثر الثابت الذي تتركه الأعمال في نفوس أصحابها، لا على الأعمال نفسِها، بدليلين: عقلي ونقلي، أما الدليل العقلي، فهو أنَّ العمل يفنىٰ بمجرد حدوثه وانتهائه، ولا يبقىٰ منه إلا أثره في النفس، لذلك فمن الطبيعي أن يتعلّق الجزاء بهذا الأثر الباقي بعد ذهاب عين العمل.

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٣٢٦).
(٢) سورة الأنعام: ١٦٠.
(٣) سورة يونس: ٢٦.
(٤) سورة النساء: ١٧٣.
(٥) «تفسير المنار» (٧/ ٣٢٦).

يقول رشيد رضا: «إنَّ حركة الأعضاء به [أي: العمل] فَنِيَتْ، ولكن صورته في النفس بقيت، فكانت منشأ الجزاء»[1].

وأما الدليل النقلي، فهو ما أشار إليه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في مُحكم قرآنه الكريم بأنّه سيجازي خلقه يوم الحساب بحسب أوصافهم: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2]، ومن المعلوم أنَّ صفات الإنسان ما هي في الحقيقة إلا محصّلة أعماله وآثارها في نفسه، وقد فسَّر رشيد رضا معنى هذه الآية الكريمة بقوله: «ومعنى الجملة: سيجزيهم الله بمقتضىٰ حكمته في الخلق، وعلمه بشؤونهم وأعمالهم ومناشئها من صفاتهم بأن يجعل عقابهم عينَ ما يقتضيه وصفُهم ونعتهم الروحي، فإنّ لكل نفسٍ في الآخرة صفاتٍ تجعلها في مكان معين من علّيين، أو سجّين في أسفل سافلين، كما أن صفة الجسم السائل الخفيف تقتضي بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ أن يكون فوق الجسم الثقيل؛ كما نرى في الزيت إذا وُضع في إناء مع الماء، فمنشأ الجزاء نفس الإنسان باعتبار عقائدها، وسائر صفاتها التي يطبعها العمل عليها»[3].

ـ الفرق بين جزاء الله ـ تعالى ـ، وبين جزاء الحكّام في الدنيا:

وتجدر الإشارة إلى أن رشيد رضا قد فرّق تفريقاً واضحاً بين جزاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الأعمال في الدنيا، وبين جزاء الحكّام في الدنيا، فجزاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدنيا طبيعي[4]، تستوجبه طبيعة الأعمال نفسها وفق نظام ارتباط

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣١٠).

(٢) سورة الأنعام: ١٣٩.

(٣) «تفسير المنار» (٨/ ١٣٠).

(٤) أما جزاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الآخرة، فهو وضعي شرعي؛ أي: أنشأه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عدلاً منه وفضلاً. انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٣٢٥).

المسببات بأسبابها بِجَعْل الله ـ تعالىٰ ـ وإرادته ذلك النظام، أما جزاء الحكّام، فهو وضعي؛ أي: إنهم يُنشئون العقوبة عند حدوث أيّ مخالفةٍ لقوانينهم، مع أنه قد تكون هذه المخالفة لا تستلزم هذا الجزاء، هذا بالإضافة إلى أنّ جزاء الحكام مرتبط بمدى اطلاعهم على أعمال الناس، وهذا الاطلاع محدود دون أدنىٰ شك، وقد يعتري جزاءهم ما يعتريه من المحاباة والتخاذل أمام الأقوياء وأصحاب النفوذ، والظلم والاضطهاد للضعفاء.

يقول رشيد رضا: «ولولا أنّ للأعمال البدنية آثاراً في النفس تزكّيها أو تدسّيها، لَما آخذ الله ـ تعالىٰ ـ في الآخرة أحداً عليها؛ لأنه ـ تعالىٰ ـ لا يعاقب الناس حباً في الانتقام، ولا يظلم الناس شيئاً»[1]، «وليس ـ أي: الجزاء ـ أمراً وضعياً كجزاء الحكام بحسب قوانيهم وشرائعهم»[2]، «ولا كما يفهمه بعض الجاهلين لسُنن الله ـ تعالى ـ في الجزاء الإلهي؛ إذ يظنون أنه من قبيل الجزاء الوضعي المرتّب على مخالفة الشرائع والقوانين في الدنيا، وقد بيّنا مراراً أنه ليس كذلك، وإنما هو من قبيل الأمراض والآلام المرتّبة على مخالفة قوانين الطب، وهذا أمر معقولٌ في نفسه، مطابق للواقع ولحكمة التكليف، وجامعٌ بين النصوص»[3].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ رشيد رضا قد أشار إلى أنه لا يوجد أي تعارض بين تفسيره السابق للجزاء؛ باعتباره أثراً طبيعياً للعمل لازماً للأعمال، وبين كون الجزاء بفضل الله ـ تعالىٰ ـ ورحمته، وذلك لأن الذي جعل الجزاء نفسه أثراً طبيعياً للعمل هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقضائه وتقديره الحكيم في نظام خلقه، ولولا

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ١٤٠).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٠٩).
(٣) «تفسير المنار» (٣/ ٢٨٢).

جعْلُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأمر هكذا، لَما كان موجوداً أصلاً[1]، فوجوده إذاً هو من فضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورحمته بالناس.

يقول رشيد رضا: «إنّ كون الجزاء بفضل الله ورحمته لا يُنافي ما قلنا في معنى الجزاء والثواب؛ لأنّ كل ما يصيب العباد من خير في الدنيا، فهو من فضله ـ تعالىٰ ـ ورحمته، وإنْ كان قد جعل له أسباباً، هو أثرٌ طبيعي لها؛ كالمطر والنبات والصحة وغير ذلك، والله أكرم، وأرحم، وأعلم»[2].

وهكذا فقد دافع رشيد رضا عن حرية الإنسان من خلال تأكيده على أن سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلق الإنسان أن يكون حراً مختاراً قادراً، ولكنه في الوقت نفسه قد حمّله المسؤولية الكاملة عن أفعاله، وعن آثار أفعاله، وذلك بتأكيده أن سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في الأعمال تقتضي بأنْ يكون لكل عمل أثرٌ في نفس صاحبه، ويترتب على هذا الأثر جزاءان: أحدهما في الدنيا، والآخر في الدار الآخرة، بحسب نوعية هذا الأثر؛ عدلاً وفضلاً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

لذلك ـ وفي ضوء هذا الكلام الذي قرره رشيد رضا ـ فإنه يجب على الإنسان منذ البداية أن يُحسن اختيار عقائده وأفكاره وأخلاقه وأعماله حتى يحصد السعادة والهناءة في الدنيا والآخرة، وعليه أن يتجنّب اختيار العقائد والأفكار والأخلاق والأعمال الفاسدة؛ لأنّه لن يحصد إلا الخسارة والشقاء في الدنيا والآخرة، ولا يحق له في هذه الحالة أن يلوم أحداً؛ لأنه هو الذي اختار، وهو الذي فَعَل، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١٠/ ١٣٨).

(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣١١).

(٣) سورة العنكبوت: ٤٠.

المبحث الثالث

سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في هداية الإنسان وضلاله

تعرفنا في المبحثين السابقين على مسألة اختيار الإنسان وقدرته على العمل، ومسألة العمل نفسه، والجزاء عليه من وجهة نظر رشيد رضا، وسنحاول في هذا المبحث التعرُّف على مسألة بالغة الأهمية تتفرّع بشكل طبيعي عن هاتين المسألتين، أقصد: مسألة ضلال الإنسان وهدايته، وكان لا بد من تخصيص مبحثٍ خاص لمناقشة هذه المسألة، والتعرّف عليها، على الرغم من أنها تندرج في سياق المسألتين السابقتين، وذلك بسبب الاهتمام الكبير الذي أبداه رشيد رضا نحو هذه المسألة، ويظهر هذا الاهتمام بشكلٍ جليٍّ من خلال عشرات الصفحات التي بثَّها في تفسيره، وتناول فيها بشيءٍ كثير من التفصيل والتكرار هذه المسألة، الأمر الذي يؤكّد أهميتها في مجمل تفكيره الإصلاحي، هذا التفكير الذي ينطلق من أنّ إصلاح دراسة العقيدة الإسلامية وفهمها فهماً علمياً نقياً وسليماً كما فهمها وتعامل معها رجال السلف الصالح، هي المهمة الأولىٰ التي يجب أن يضطلع بها رجال الإصلاح الذين يسعون بكل جد وصدق وإخلاص إلى تجديد الفكر والمجتمع الإسلامي، ومن دون إنجاز هذه المهمة الضرورية، فلا قيمة لأي إصلاح أو تجديد.

ـ أهمية مسألة ضلال الإنسان وهدايته في الفكر الإسلامي:

وتجدر الإشارة إلى أنّ اهتمام رشيد رضا بمسألة ضلال الإنسان وهدايته ليس مستغرباً، وخاصة إذا عرفنا أنها قد حظيت باهتمام بالغ في تاريخ الفكر الإسلامي، هذا الاهتمام الذي يظهر من خلال مدى الجدل والنقاش الذي دار حولها بين مدارس المتكلمين من أشاعرةٍ ومعتزلةٍ وغيرهم، وقد شارك أيضاً في

هذا النقاش كثيرٌ من رجال التصوف والتفسير والحديث[1]، وفي الحقيقة فإن هذا الاهتمام الكبير بهذه المسألة في الفكر الإسلامي يعكس مدى حيوية هذا الفكر وخصوبته وسعة آفاقه من جهة، ويعكس الأهمية الكبيرة التي تحظىٰ بها هذه المسألة، وخطورة الآثار المترتّبة عليها على جميع المستويات العقائدية والاجتماعية والسياسية من جهة أخرىٰ.

ـ رشيد رضا ينتقد آراء بعض المدارس الكلامية في مسألة ضلال الإنسان وهدايته:

قبل أن نستعرض موقف رشيد رضا الذي اتخذه في مناقشته لهذه المسألة، يجدر بنا أن نشير إلى الموقف النقدي الذي وقفه في وجه آراء بعض الفِرق تجاه هذه المسألة، وتحليله للأساس النظري الذي استندت إليه هذه الآراء.

وتنبغي الإشارة أيضاً إلى الموقف المنهجي والعلمي الذي قدّمه بديلاً عن المنهج الذي اعتمد عليه أصحاب الفرق السابقة، والذي أدّى بهم إلى الوصول إلى آراء متناقضة لا يمكن بأي حالٍ أن يقبل القرآن الكريم نِسبتها إليه، وهي على هذا الشكل من الاختلاف.

يمكننا تلخيص وجهة نظر رشيد رضا وتحديد موقفه النقدي من آراء بعض

---

(١) انظر في هذا الخصوص: «**القرآن والفلسفة**»، محمد يوسف موسىٰ (١٣٨ـ ١٥٤). و«**المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية**»، محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٧٢م)، (١٣٧ـ ١٥٠)، و«**إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية**»، علي عبد الفتاح المغربي، القاهرة، مكتبة وهبة، (١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م)، (٣١٩ـ ٣٣٥)، ولقد خصص محمد سعيد رمضان البوطي كتاباً كاملاً لمَن يريد التوسع في دراسة مسألة الجبر والاختيار وما يترتب عليها من قضايا، أهمها قضية الضلال والهداية، «**الإنسان مسير أم مخير**»، دمشق، دار الفكر، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، وانظر بشكل خاص: (٩٩ـ١١٨).

المدارس الكلامية نحو هذه المسألة على الشكل التالي: إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، وقرأنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن الهداية والضلال[1]، قراءة عابرة ومتعجّلة، يمكن أن تزلَّ بنا القدم، ويقع في وهمنا أنّ القرآن الكريم يقرر موقفين مختلفين في هذه المسألة: أحدهما يوحي بأن الإيمان والضلال لا يُسندان إلا إلىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقط، ولا علاقة ولا يد للإنسان في أمر هدايته أو ضلاله، والموقف الآخر يوحي بأنّ الإنسان هو المسؤول الأول والأخير عن إيمانه وهدايته، أو عن ضلاله وكفره، من دون أي تدخّل من جانب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذا الأمر، وفعلاً فهذا الذي حَدَث في تاريخ الفكر الإسلامي، فقد جنح بعض المتكلّمين إلى الأخذ بالموقف الأول، وقرروا أنّ الله ـ تعالىٰ ـ إذا أراد هداية امرىء، يخلق في صدره انشراحاً للإسلام، فيكون قبوله بخلْق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهذا الخلْق يَحدُث أُنُفاً؛ أي: جديداً غير مرتّب على تقدير وترتيب ونظام سابق، وإذا كان الأمر كذلك، فإسلام المرء ليس باختياره وكسبه، بل بفعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده.

ومن الأشعرية من يقول: إنّ للإنسان في الفعل الذي يقوم به كسباً يُنسب إليه، ولكن هذا الكسب هو بدوره مخلوق لله ـ تعالىٰ ـ، لا تأثير له في نفسه[2]،

---

(١) من هذه الآيات القرآنية قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ السجدة: ١٣، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ الأعراف: ١٤٦، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الأنعام: ٣٩، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الزمر: ٢٣.

(٢) للوقوف بدقة على موقف الأشاعرة في مسألة خلق الخلق والكسب، يمكن الرجوع إلى كتاب: «**مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**» لأبي الحسن علي بن إسماعيل=

وحاصل القولين واحد، ويقولون مثل هذا فيمن يريد أن يضلَّه، فيخلق له من ضيق الصدر والحرج ما يثبُت به علىٰ كفره، ويمتنع من قبول الإيمان.

وقد جنح بعض المتكلمين الآخرين إلى الأخذ بالموقف الآخر القائل بأنّ العبد هو المسؤول الأول والأخير عن هدايته وضلاله، وأن إيمانه أو كفره من فعله المستقل، ولا دخل لإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومشيئته في ذلك[1].

وقد برر أصحاب كل فريق موقفهم بالأخذ بظاهر الآيات الكريمة التي تؤكد كلامهم، وتأويل الآيات التي تخالف رأيهم وصرفها عن ظاهرها مستخدمين في ذلك ما طاب لهم من وسائل التأويل والتكلّف.

وقد أكد رشيد رضا تهافت وتداعي هذا المنهج الذي اعتمد عليه أصحاب الموقفين منطلقاً من القاعدة المسلّمة التي تقول بأنّ القرآن الكريم هو كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كتاب مُحكَم تتلاحم أجزاؤه وآياته بصورة متماسكة لا تدع مجالاً ـ عند النظر والتحقيق ـ للاختلاف في مضامينه ومدلول آياته الكريمة، هذا فضلاً عن التناقض فيها، تَعَالىٰ كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن ذلك عُلواً كبيراً[2]: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[3].

وقد كشف رشيد رضا عن الأساس النظري الذي أوقع هؤلاء المتكلمين في مثل هذا الاختلاف المذموم عندما قال: «وإنما وقع حُذَّق النُظّار في أمثال هذا الخلاف؛ لاتخاذ مذاهبهم أصولاً مسلّمة، ومحاولة حمل نصوص كتاب الله

= الأشعري (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)، نشر هلموت ريتر، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، (٥٣٨ـ ٥٤٢).

(١) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٤٤، ٢٨٦ـ ٢٨٧).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٤٥).

(٣) سورة النساء: ٨٢.

ـ تعالىٰ ـ، وأخبار رسوله ﷺ؛ لتصحيحها، وإبطال مذاهب خصومهم المخالِفة لها»[1].

ـ المنهج العلمي الذي تبَناه رشيد رضا في دراسة مسألة هداية الإنسان وضلاله:

أما المنهج العلمي الذي دعا رشيد رضا إلى استخدامه في دراسة هذه المسألة وغيرها من المسائل الدينية، فهو الانحياز للقرآن الكريم بمجمله، والالتزامُ بجميع ما جاء فيه، وعدم الأخذ ببعضه دون البعض الآخر؛ من أجل الوصول إلى الحقائق في كل مسألة تعرض لها القرآن الكريم، «فَهْمُ القرآن لا يكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد، الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الوجوه والاعتبارات التي ضلّت الفِرق بنظر كل منها إلى إحداها دون الأخرىٰ مطلقاً، أو جعلها ما وافق مذهبها أصلاً يُردُّ غيره إليه بالتأويل، قريباً كان أو بعيداً»[2]، «والقرآن فوق المذاهب وقبلها غنيٌّ بفصاحته وبلاغته عن هذه التأويلات كلها؛ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3]، وكلام الله فوق ما يظنون»[4].

ـ تفسير رشيد رضا السُّنني لمسألة الهداية والضلال:

وانطلاقاً من هذه القاعدة المنهجية السديدة التي ألزم رشيد رضا بها نفسه، فقد استعرض جميع الآيات الكريمة المتعلّقة بهذه المسألة، وقام بدراستها وتحليلها، وبناءً على ذلك، فقد قرَّر أن الرجوع إلى آيات الكتاب الكريم في مجملها يُوجب على المسلم الأخذ بالحقائق التالية مجتمعة:

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٤٤).
(٢) «تفسير المنار» (١٠/ ١٩٨).
(٣) سورة المؤمنون: ٥٣، وسورة الروم: ٣٢.
(٤) «تفسير المنار» (٩/ ٦٢٢).

ـ من سُنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في خلق الإنسان أنْ خَلَقه مستعداً للخير والشر، مستعداً لقبول الهداية وقبول الضلال، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[3].

ـ ومن سُنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في خلق الإنسان أنّه خَلَقه وجعله حرّاً مختاراً، وأعطاه القدرة اللازمة للعمل بموجب الاختيار الذي يستحسنه ويُرجّحه على غيره من بين عدة أمور متعارضة، تدخل جميعها ضمن استعداداته وإمكانياته الخاصة المحكومة جميعاً بنظام الأسباب والمسبَّبات، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[4]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[5].

وتأسيساً على هاتين السُنّتين السابقتين، فقد أشارَ رشيد رضا إلى أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ بيّن للإنسان في كتابه الكريم الصفات والأعمال التي جعلها بموجب مشيئته العليّة أسباباً للوقوع في شراك الكفر والضلال، فَمَنْ أخذ بها عن حرية واختيار، وعمل بموجبها، فإنه سيصل بموجب سُنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ارتباط

---

(١) سورة الإنسان: ٢ـ٣.
(٢) سورة الشمس: ٧ـ١٠.
(٣) سورة البلد: ٨ـ١٠.
(٤) سورة الكهف: ٢٩.
(٥) سورة الإسراء: ١٨ـ٢٠.

الأسباب بمسبباتها إلى حفرة الكفر، ويكون هذا الإنسان المتصف بهذه الصفات، والآخذ بهذه الأعمال، هو المسؤول عن هذا المصير، وليس الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي بيّن له كل شيء، وترك له الباب مفتوحاً للاختيار.

وفي المقابل فقد بيّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أيضاً للإنسان الصفات والأعمال التي جعلها بمشيئته المطلقة أسباباً للوصول إلى حَرَم الإيمان والهداية، ودعاه للأخذ بها، كما حذَّره من الأخذ بأسباب الضلال، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[(١)].

ومن بين الصفات التي جعلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أسباباً للوقوع في الكفر والضلال: «الغرور بالغنىٰ والجاه، والكِبْر، وهو غَمْطُ الحق، واحتقار المتكبِّر لمن يزدري من الناس، وتعصُّبه لِما كان عليه الآباء والأجداد، واتّباع الهوىٰ، وحبُّ الشهوات المانعة من طاعة الله»[(٢)]، واتخاذ الدّين شبكة للشهوات والأهواء، واعتياد الكذب والنفاق، وإلفة عصبية الخلاف والشقاق، وإيثار المنافع العارضة والزائلة كالمال والجاه على اتِّباع الحقائق، بشرط أن تتحول كل هذه الصفات إلى ملكات ثابتة، وأخلاق راسخة في نفوس أصحابها، وذلك بالعمل المتكرر والدائم بموجبها[(٣)].

ومن أسباب الهداية التي بيّنها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لعباده حتى يأخذوا بها: سلامة الفطرة، وطهارة النفس، و«استقلال الفكر الصادِّ عن تقليد الآباء

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) «تفسير المنار» (٢١/٧).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٦/ ٣٩٠ـ ٣٩١، ١٠/ ٢٣٦، ٨/ ٦٣٥ـ ٦٣٨، ٩/ ٤٠٦ـ ٤٠٧).

والأجداد، وقوة الإرادة الصارفة عن اتّباع الرؤساء أو مجاراة الأنداد»[1]، والاعتبار بأحوال الأمم السابقة، والتفكّر في السموات والأرض وما فيهنّ[2].

وأما أعظم أسباب الهداية، فهو تدبّر القرآن الكريم، واتّباع كل ما جاء فيه، «إن الله ـ تعالىٰ ـ قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية، وإنما جعله هدًى للمتقين لا الجاحدين المعاندين، فمن فقد الاستعداد للإيمان والهدىٰ بهذا الكتاب على ظهور آياته وقوة بيانه، فهو الذي أضلّه الله، أي: قضت سُنته في نظام خلق الإنسان وارتباط المسّببات في أعماله بالأسباب أن يكون ضالاً راسخاً في الضلال»[3].

وفي ضوء هذا الفهم السُّنني لمسألة الهداية والضلال، القائم على ارتباط الهداية والضلال بأسبابٍ تؤدي إليهما، وتدخُلُ في دائرة اختيار الإنسان وقدراته، وبالتالي فهو وحده المسؤول عنها، فقد فسَّر رشيد رضا مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بإضلال أو هداية بعض عباده الواردة في آيات عديدة، منها قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] كما يلي: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: من تعلَّقت مشيئة الله بإضلاله، يُضلله كما أضلَّ هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، فلم يستعملوا أسماعهم ولا أفواههم ولا عقولهم في آيات الله الدالة على حقيّة ما جاء به رسول الله ﷺ، وإنما إضلاله إياهم اقتضاء سُننه في عقول البشر وغرائزهم وأخلاقهم أنْ يُعرض المستكبرُ عن دعوة مَنْ يراه دونه، واتّباع من يراه مثله، وإنْ ظهر له أن الحقَّ معه، وأنْ يُعرض المقلّد عن النظر في الآيات

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٤٤).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٨٣، ١١/ ٣٥٩، ٤٨٥).

(٣) «تفسير المنار» (٩/ ٤٥٩).

(٤) سورة الأنعام: ٣٩.

والدلائل التي تُنصَب لبيان بُطلان تقاليده، وإثبات خلافها، ما دام مغروراً بها، مُكبِراً لمن جرى من الآباء والكُبَراء عليها، وليس معنىٰ ذلك أنْ يخلق الله ـ تعالىٰ ـ الضلال لمن شاء إضلاله خَلْقاً، ويجعله به غريزة وطبعاً، ولا أنْ يُلجئَه إليه إلجاءً، ويُكرِهه عليه إكراهاً، فيكون إعراضه عن الحق والخير، وإقباله على الباطل والشر كحركة الدم في الجسد، وعمل المعدة في الهضم.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: ومنْ يشأ هدايته واستقامته، يجعله على طريق مستقيم، وهو طريق الحق الذي لا يضل سالكه، ولا ينجو تاركه؛ بأن يوفّقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله في آيات الله المنزَلة، وآياته المكوَّنة، استعمالاً يعرف به الحق، ويعترف به، ويعرف به الخير، ويعمل به، بحسب سُننه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد والوجدانات النفسية، وليس معناه أن يخلق له الهداية خَلْقاً كما خلق روحه وبدنه، ولا أن يُجبَر عليها كارهاً غير مختار، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أنّ مشيئة الإضلال إنما تتعلق بأصحاب الأعمال الكسبية التي هي الضلال أو سبب الضلال، ومشيئة الهداية تتعلق بما يقابل ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[3]، كما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4]»[5].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٦.

(٤) سورة المائدة: ١٦.

(٥) «تفسير المنار» (٧/ ٤٠٢ـ٤٠٣).

وهكذا فإنَّ إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومشيئته بإضلال بعض العباد، أو إغوائهم، تعني اقتضاءَ سُنته فيهم أن يكونوا من الضالّين الغاوين بسبب الصفات والأخلاق والأعمال التي تخلّقوا بها، وارتكبوها بمحض حريتهم واختيارهم، لا بسبب خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الضلال والغواية فيهم «ابتداءً بغير عمل ولا كسب منهم لأسبابها، فإنَّ هذا مضادٌّ لمذهب أهل السُّنّة في إثبات خلق الأشياء مقدّرة بأقدارها، ترتبط أسبابها بمسبّباتها»[1]، وكذلك فإنَّ الهداية لا تكون من باب الإجبار والإكراه، بل «بحسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظام الاجتماع، فلو كان [أي: الإيمان] بالجبر والإكراه، لَما كان لهم فيه اختيار يستحقون به دخول الجنة والنجاة من النار، ولو كان بالخلق المُستَأنف، لَكان من قبيل المحاباة في التفضيل الإلهي المحض لبعضهم على بعض، وذلك ينافي العدل والحكمة، وحاش لله من ذلك»[2].

ـ إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أخبرنا بكلام محكم لا يحتمل أي تأويل أو تبديل بأنه ـعزَّ وجلَّ ـ بمحض إرادته ومشيئته المطلقتين قرَّر عدم إمكانية تغيير سُننه العاملة في خلقه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[3]، على الرغم من عموم وإطلاق قدرته العليّة من كل القيود، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي أخبرنا بأنه خلق الإنسان مستعداً للخير والشر، والهداية والضلال، لو أراد ألاّ يخلق الإنسان على هذه الشاكلة، ووفق هذه السُنة، لَفَعل، ولَخَلق الإنسان في أي صورة أخرىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[4]، لكنه ـ عزَّ وجلَّ ـ أخبرنا أنه لن يغيّر هذه

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٧٠).
(٢) «تفسير المنار» (١٠/ ١٩٦ـ١٩٧).
(٣) سورة فاطر: ٤٣.
(٤) سورة الانفطار: ٦ـ٨.

السُّنَّة بقوله ـ عزَّ مِنْ قائلٍ ـ مخاطباً رسوله الكريم محمداً ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهم جَميعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنينَ﴾[1]، ومفهوم هذه الآية الكريمة يؤكّد أنّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يشأ ذلك، أي: لم يشأ أن يُجبر الناس على الإيمان، ويُفقِدَهم الاستعداد للكفر والضلال.

يقول رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «إن سُنة الله في نوع الإنسان أن خَلَقه مستعداً للإيمان والكفر، والخير والشر، وله الاختيار نفسه، وإنّ الرسول الحريص على إيمان الناس لا يقدر على جعلهم مؤمنين؛ لأنّ اللهَ القادر على ذلك لم يشأ أنْ يجعلهم أمةً واحدةً على الإيمان وحده، ولا على الكفر وحده، وإنما جعل مدار سعادتهم على حُسن استعمال عقولهم باختيارهم في التمييز بين الكفر والإيمان، وما الرسول إلا بشير ونذير، يبيّن الطريق المستقيم للعقل المستنير، فالدين مساعِدٌ للعقل على حُسن الاختيار إذا أحسنَ النظر والتفكير»[2].

ـ رفع التعارض بين حرية الإنسان واختياره، وبين مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ:

وفي هذا الصدد نلاحظ أنّ رشيد رضا ـ كعادته دائماً ـ يؤكّد أنه يجب ألاّ يُفهم من حرية الإنسان وقدرته على اختيار الفعل أيُّ تعارض بين كل هذا، وبين مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفق سُننه الحكيمة، فـ «الناس عاملون بالإرادة والاختيار، ولكنهم خاضعون في أعمالهم للسُّنن والأقدار، فلا إجبار واضطرار، ولا تعارض بين عملهم باختيارهم وبين مشيئة الخالق ـ سبحانه ـ، ولا يُعدون به مشاركين له ـ تعالىٰ ـ في إرادته وقدرته، فإنّ صفاته ـ تعالىٰ ـ ذاتية

---

(١) سورة يونس: ٩٩، ومن الآيات الكريمة التي تؤكد معنى هذه الآية قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ سورة الأنعام: ٣٥.

(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٤٨٥ـ٤٨٦).

الوجود كاملة، وإرادة العباد وقدرتهم من عطاء الله وخَلْقِه حسب مشيئته، فهو الذي شاءَ أن يَخلق نوعاً من الخلق، ويجعله ذا قدرة محدودة ومشيئة تتوقف عليها أعماله الاختيارية»[1].

وهكذا فإن مشيئة الإنسان في عمومها، ومشيئته في اختيار الإيمان أو الكفر، والسير في طريق الهداية، أو السير في طريق الضلال، هي مشيئةٌ تابعةٌ لمشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] الذي شاء أن يختار الإنسان ويشاء ما يريد، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[3]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[4].

وهكذا تُفهم كلُّ الآيات القرآنية الكريمة التي تعلّق مشيئة الإنسان المخلوق على مشيئة الخالق العظيم وإذنه، من مثل قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[5].

وفي هذا السياق نفسه فإنَّ رشيد رضا يؤكد أيضاً أن المقصود من إشارة القرآن الكريم إلى عدم مقدرة الإنسان على الإيمان إلا بعد مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإذنه، هو أنّ الإنسان لا يستطيع اكتساب الإيمان أو الكفر مثلما لا يستطيع اكتساب أي شيء آخر إلا بموجب مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ القاضية بخضوع الكون والإنسان إلى نظام السنن والأسباب، الذي من جملته ما أشرنا إليه من سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلق الإنسان مستعداً للهداية والضلال، وجَعْلِه حراً مستطيعاً قادراً

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٢٨٦).
(٢) سورة التكوير: ٢٩.
(٣) سورة الكهف: ٢٩.
(٤) سورة التكوير: ٢٧ـ٢٨.
(٥) سورة الأنعام: ١١١.

ضمن دائرة الأسباب والمسبّبات المقدورة له، وليس المقصود نفي قدرة الإنسان على الاختيار والعمل بموجب اختياره.

يقول رشيد رضا في تفسير قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]؛ «أي: وما كان لنفس، ولا من شأنها ـ فيما أُشير إليه من استقلالها في أفعالها، ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداها من النجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريتين ـ أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضىٰ سُننه في استطاعة الترجيح بن المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتمَّ الاستقلال، بل مقيدة بنظام السُّنن والأقدار، فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام، لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له»[2].

وكذلك الأمر ـ وضمن هذا التصور والفهم نفسه ـ فقد وضَّح رشيد رضا أن إشارة القرآن الكريم إلى عدم إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هداية بعض خلقه، لا تعني أبداً أنّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يسدُّ طريق الهداية أمام بعض خلقه دون أسبابٍ أخذوا بها بملء إرادتهم واختيارهم، وأدّت بهم إلى الانزلاق إلى هاوية الكفر، وفق نظام ارتباط المسببات بأسبابها، وذلك لأن تعلُّق إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهداية هذا القسم من الناس المستحِق للضلال بموجب سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، يُحدث تعارضاً بين إرادتين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ أي: إرادته هنا بإنفاذ سُننه، وإرادته بنقض هذه السُّنّة، وهذا مُحال شرعاً.

يقول رشيد رضا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[3]؛ «أي: أولئك الذين بلغت منهم الفتنة هذا الحدّ، هم الذين لم

---

(1) سورة يونس: ١٠٠.

(2) «**تفسير المنار**» (١١/ ٤٨٤).

(3) سورة المائدة: ٤١، وصدْرُ هذه الآية الكريمة هو قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا=

تتعلق إرادة الله ـ تعالىٰ ـ بتطهير قلوبهم من الكفر والنفاق؛ لأن إرادته ـ تعالىٰ ـ إنما تتعلق بما اقتضته حكمته البالغة، وسننه العادلة، ومن سُنَنِهِ في قلوب البشر أنفسهم أنها إذا جرت على الباطل والشر، ونشأت على الكيد والمكر، وصار ذلك من مَلَكاتها الثابتة، وأخلاقها الموروثة الثابتة، تحيط بها خطيئتها، وتُطبق عليها ظلمتها، حتى لا يبقىٰ لنور الحق منفذٌ ينفذ منه إليها، فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار، والاستعداد للنظر والاعتبار، التي جعلها الله أسباب الاتعاظ والاهتداء بحسب سُنته الحكيمة في توفيق الأقدار للأقدار، فهذا هو سبب عدم تعلق إرادة الله ـ تعالىٰ ـ بأن يطهِّر قلوبهم مما طُبع عليها؛ لأن إرادته تطهيرَ قلوبهم، وهم متصفون بما ذكرنا، إبطالٌ للقَدَر، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السُّنن، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، لا أمراً أُنُفا، ولن تجد لسُنّة الله تبديلا[1].

ـ لماذا يُسند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هداية الإنسان وضلاله إلى ذاته العليّة أحياناً في القرآن الكريم؟

وأخيراً إذا سألنا رشيد رضا: طالما أنّ الضلال والهداية من أعمال البشر الاختيارية سبباً ومسبّباً، فلماذا نجد الكثير من آيات القرآن الكريم تُسندهما

= ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) «تفسير المنار» (٦/ ٣٩٠) وانظر كذلك: تفسير رشيد رضا لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ سورة هود: ٣٤. «تفسير المنار» (١٢/ ٧٠).

وتنسبهما إلى الله عزَّ وجلَّ؟[1] فإنه يجيبنا بقوله: بما أنّ كل ما يجري في الكون، وما يقوم به الخلق، يجري وفق سُنن عامة ثابتة مطّردة، إذاً فإنَّ كل ما يفعله الإنسان فهو نتيجة ضرورية لازمة لهذا النظام السُّنني المحكم، وأثر من آثاره، لذلك فمن الجائز أن تُنسب هذه الأعمال ـ ومنها الإيمان والهداية، والكفر والضلال ـ إلى الإنسان الذي اختارها وفَعلها بإرادته الحرة الموهوبة له من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومن المنطقي أيضاً أن ننسبها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي اختار بإرادته ومشيئته المطلقة هذا النظام، وأجرىٰ الكون والخلق عليه بقدرته النافذة، ولولا هذه المشيئة والإرادة والقدرة، لَما كان هذا النظام أصلاً، وبالتالي لَما استطاع الإنسان أنْ يختار ويفعل مااختاره وفَعَله.

والهدف من إسناد أعمال البشر الاختيارية أحياناً إلى الله في القرآن الكريم، هو تذكير البشر بأن الخالق الفعلي لهذا النظام الذي يعملون من خلاله، إنما هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والإنسان مهما عَلَت قيمته، فهو مُنفعِل وخاضع لهذا النظام، وليس في مقدوره البتة الخروج عليه، وهذا هو الفارق الكبير بين ألوهية وربوبية الخالق العظيم الفاعل في كل شيء، وبين عبودية الإنسان المنفعِل والخاضع لكل ما يفعله ويختاره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذا الكون بمن فيه من المخلوقات[2].

نلاحظ من كل ما سبق أنّ حِرص رشيد رضا الشديد على إثبات عدم

---

(١) من مِثل قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١/ ١٦٤ـ ٤٦٥، ٢/ ٤٧٨، ٥/ ٢٦٧ـ ٢٧١، ٨/ ١٨٧، ٩/ ٦٣٣ـ ٦٣٦، ١٠/ ١٣٨).

التعارض بين مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإرادته وقدرته، وبين سُننه ونظامه في خلقه نابع ـ من جهة ـ من حرصه البالغ على إثبات كمال التوحيد والتنزيه لله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي لا يمكن أن يُنسب إليه أمران متناقضان، تَعَالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، ونابعٌ ـ من جهة ثانية ـ من حرصه على إثبات صفة العدل المطلق لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمعنى أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يمكن أن يحابي بعض خلقه دون بعضهم الآخر بخلْق الإيمان في قلوبهم دون أخذٍ منهم بأسباب الإيمان، ولا يمكن أن يَظلم بعض خلقه بحرمانهم من الإيمان بعد العمل بأسبابه، أو بخلْق الكفر في نفوسهم دون أخذٍ منهم بأسبابه.

وينتج عن دفاع رشيد رضا الحثيث هذا عن كمال ووحدانية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتنزيهه وعدله المطلق، تحميلُ الإنسان المسؤولية الكاملة عن كل القضايا التي ترتبط بحياته ومصيره من هدايةٍ أو ضلالٍ، أو جلب نفعٍ أو دفع ضررٍ، وخاصة بعد أن زوَّده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا من كمال رحمته تعالىٰ ـ بكل الأدوات اللازمة لاختيار وانتهاج الصراط المستقيم والسبيل القويم، وذلك بإعطائه الوحي المحفوظ في الكتاب والسُّنّة، وإعطائه العقل، والفطرة السليمة، والاستعدادات المناسبة، وحرية الاختيار والقدرة على الفعل.

وفي الختام نستطيع أن نقول: إن كلَّ ما قدمه رشيد رضا من أفكار سليمة في معالجته لهذه المسألة، والمسألتين اللتين قبلهما: ـ سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في خلق الإنسان مختاراً، وسنته في أعمال البشر والجزاء عليها ـ يُؤكّد بكل وضوح وجلاء أنه كان يبذل كل ما يستطيع من جهد واجتهاد في سبيل تحرير إرادة المسلمين أفراداً ومجتمعاتٍ من كل ما يُكبّلها من الأفكار والتصورات الفاسدة التي تحول بينهم وبين الانطلاق في مناحي الحياة والأرض ليزرعوهما عملاً وإنتاجاً وفق ما يرضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورسوله الكريم ﷺ.

المبحث الرابع

سنة الله ـ تعالى ـ في اختلاف البشر

ـ الناس أمّة واحدة:

من سُنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في خلق نوع الإنسان: أنه قضىٰ على البشر بأن يكونوا مرتبطين بعضهم ببعض في تدبير أمور حياتهم ومعاشهم؛ بحيث لا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، ولا يمكن لأي إنسان أن يدبِّر كافة أموره، ومتعلّقات حياته إلا عبر شبكة من العلاقات المتنوعة مع أفراد آخرين، فالإنسان الفرد يعيش ويحيا بشيءٍ من علمه وكسبه، ولكن قواه الفكرية والنفسية والبدنية قاصرة عن توفية جميع ما يحتاج إليه، فلا بد له في الحالة هذه من الاستعانة بقوىٰ الآخرين وإمكانياتهم، وضمِّها إلى قواه وإمكانياته الخاصة حتى يحقّق لنفسه ما يريد وما يحتاج إليه، كما أن الآخرين هم بدورهم مضطرون إلى الاستعانة به وبقواه لتحصيل أمورهم الخاصة بهم.

فالبشر ـ وفق هذا القضاء الإلهي، وفي ضوء هذه الحقيقة ـ يشكّلون أمة واحدة لا يستغني بعضهم عن بعضهم الآخر[1]، وهم بموجب إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مضطرون للاجتماع والتعامل وتبادل المنافع والقوى بينهم، وهذا الاضطرار هو الدعامة الأولىٰ لاستمرار النوع الإنساني، وقيام الاجتماع البشري.

---

(١) استوحى رشيد رضا هذه المعاني من شيخه محمد عبده، انظر تفسير هذا الأخير لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة البقرة: ٢١٣، انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٧٥ـ ٢٩٧).

ـ أسباب الاختلاف بين البشر :

ولكنْ وفي الوقت نفسه الذي فطر الله ـ تعالىٰ ـ الإنسان فيه على ضرورة التعامل والاستعانة بأخيه الإنسان، قضت سُنته ـ تعالىٰ ـ فيه أن يكون حراً مختاراً فيما يريد وفيما يعمل، وفي الطريقة التي يحصِّل بها منافعه الخاصة، هذا بالإضافة إلى أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أراد أن يجعل البشر متفاوتي القدرة في الذكاء والعقل والفهم والاجتهاد، وما يترتب على هذا الأمر من التفاوت بينهم في شتىٰ المجالات[1]، وفي مقابل كل هذا لم يُرِد الله ـ تعالى ـ أن يجعل الإنسان مفطوراً على الأخذ بالحق والخير، بل أراد أن يمتلك الاستعداد الكامل لتقبُّل الحق والخير، كما يمتلك الاستعداد نفسه لتقبُّل الشر، والسير في طريق الباطل[2]: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3].

هذه الحرية المعطاة للبشر، وهذا التفاوت في الإمكانيات بينهم، وهذا

---

(١) استند رشيد رضا في تقريره لإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في جعل البشر متفاوتي الاستعدادات والإمكانيات في مختلف المجالات إلى قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ١٦٥ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾، حيث يقول: «إنّ سننه ـ تعالىٰ ـ في تفاوت الناس فيما ذُكر من الصفات الوهبية والأعمال الكسبية هي التي يظهر بها استعداد كلٍّ منهم ودرجة وقوفه في تصرّفه في النعم والنقم عند وصايا الدين وحدود الشرع»، «**تفسير المنار**» (٨/ ٢٥٠)، وانظر: (٩/ ٥٩٦). وقد أقرَّ العلم الحديث بهذا التفاوت بين البشر والاستعدادات والإمكانيات من خلال تقريره لمبدأ الفروق الفردية بين البشر، وخاصة في ميدان التربية والتعليم، ومما لا شك فيه أنَّ الفروق الفردية بين الناس في الإمكانيات تؤدي إلى فروق اجتماعية واقتصادية بينهم.

(٢) انظر: «**تفسير المنار**» (٧/ ٣٨٢ـ ٣٨٣، ١١/ ٥٠٤، ٢/ ٢٨١، ١١/ ٢٥٤ـ ٢٥٥).

(٣) سورة الشمس: ٧ـ ١٠.

الاستعداد المزدوج للخير والشر الممنوح لهم، مع اضطرارهم في الوقت عينه للاجتماع والتعامل والاشتباك فيما بين أفرادهم في ضروبٍ متنوعة وعديدة من المعاملات الاجتماعية، كل هذا أتاح للبشر أن يعملوا بمقتضىٰ آرائهم، وينحوا في أعمالهم نحوَ مصالحهم الشخصية، بغض النظر عن مصلحة المجموع الذي يعيشون فيه، هذا بالإضافة إلى أنَّ الكثير منهم ـ كما يؤكد ذلك الواقع المشهود ـ مستعدٌّ للإضرار بمصالح الآخرين من أجل جلب المصلحة إلى نفسه، بل مستعدٌّ إلى اصطناع الحيلة والمكر، أو استخدام القهر والعنف من أجل الاستئثار بالمنافع دون الآخرين، كل هذه العوامل مجتمعة أدّت إلى نشوء الاختلاف بين البشر، إذاً فالاختلاف بين البشر هو من مقتضيات سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلق نوع الإنسان، وهو أثر طبيعي لها[1].

يقول رشيد رضا: «قولهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2] نصٌّ في أنَّ سُنته ـ تعالىٰ ـ في البشر أن يتفرّقوا بمقتضىٰ الغريزة إلى شعوب وقبائل، ويكونوا مختلفين في العقول والأفهام والمنازع، وفي اللغات والأديان والشرائع، ومتنازعين في المصالح والمنافع»[3].

ولكنَّ هذا الإنسان المقضيَّ عليه بالاختلاف بموجب سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في تكوينه قد يُوصله هذا الاختلاف ـ كما يشهد بذلك التاريخ والواقع ـ إلى التباغض والتدابر، وقطع الأواصر والروابط الإنسانية، الأمر الذي قد يهدِّد الاجتماع الإنساني بأكمله، وبالتالي يهدِّد بقاء الإنسان نفسه؛ باعتباره

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٣/ ٧ـ٨، ١٢/ ١٩٣ـ١٩٤).
(٢) سورة هود: ١١٨، والآية بأكملها هي قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.
(٣) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٣٩).

لا يستطيع ضمان حياته وتأمين متطلّبات وجوده إلا ضمن هذا الاجتماع، لم يتركه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو الرحيم والرؤوف بعباده، يأكل نفسه بنفسه، ويدمِّر مجتمعه بيده، بل مدَّ له يد الرحمة واللطف، فأرسل له رسلاً، وأنزل معهم كتباً تبيِّن له المنهج القويم الذي يهديه إلى الحق عند الاختلاف، ويضع الحدود الزاجرة لكل من تسوِّل له نفسه من الأفراد والجماعات البغيَ والاعتداء على الآخرين[1].

إذاً فإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي اقتضت الاختلاف بين البشر، وابتلتهم به، هي نفسها التي تداركت هؤلاء البشر، وبيَّنت لهم ما يحميهم من غوائل الاختلاف، ويجنبِّهم آثاره السلبية التي يمكن أن تقضي على مجموعهم، وذلك بإرسال الرسل ـ عليهم السلام ـ إليهم، وإنزال الكتب السماوية معهم التي كان آخرها وأكملها القرآن العظيم، الذي أنزله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ[2].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٨٢ـ٢٨٥، ٦/ ٢٤٠).

(٢) لن أتعرَّض في هذا المبحث إلى الاختلاف في الدين نفسه، واختلاف الناس في تأويل الكتاب نفسه، وتفرقهم بسبب ذلك التأويل إلى مذاهب مختلفة متباينة، قد يصل الأمر بينهم إلى حد التفرّق والتعادي؛ لأن هذا التعرّض يخرج عن صلب الرسالة، فهو إلى الفقه وأصوله أقرب بكثير من علاقته بعلم السُّنن الإلهية، ولكنْ من أجل الاطلاع على موقف رشيد رضا الداعي بحقّ إلى نبذ الاختلاف في الدّين والتفرّق المذهبي، والداعي إلى الاستمساك بالكتاب والسُّنة، وما يعتمده أهل الحل والعقد في مصالح المسلمين الدنيوية التي لم يَرِد فيها نصٌّ من الكتاب والسُّنّة. وموقف رضا هذا يستند علمياً إلى قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ سورة النساء: ٥٩. انظر: «تفسير المنار» (٣/ ٩ـ١٢، ٢/ ١٠٧ـ١٠٩، ٧/ ٦٦٣ـ٦٦٤).

ـ حكمة الاختلاف بين البشر:

ولمَّا كان الاختلاف بين البشر حقيقة واقعة، وقضاءً إلهياً مبرماً، وسُنة ماضية بينهم لا تبديل ولا تحويل لها، ورأينا ما قد يترتّب عليه، وينشأ عنه من آثار سلبية، ولمَّا كانت أفعال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منزَّهة عن النقص، موصوفة بالحكمة والعدل وكل صفات الكمال، كان من المتوقع أنْ يشير رشيد رضا إلى الحِكم الإلهية المرجوة من قضاء الله ـ تعالىٰ ـ بالاختلاف بين البشر في استعداداتهم ومَلَكاتهم، وهذا الذي حصل بالفعل، فقد أشار رضا إلىٰ أنَّ هذا الاختلاف في المَلَكات والاستعدادات، إلى جانب حرية الاختيار، هو الذي سيؤدي إلى الاختلاف في الأفكار والعلوم والأعمال والإنجازات البشرية، الأمر الذي يعني تغطية جميع احتياجات البشر المختلفة، والقدرة على تسخير جميع إمكانيات الكون لمصلحة البشر، فحاجات البشر المتنوعة في مختلف المجالات العلمية والعملية والاجتماعية لا يمكن لها أن تُلَبَّىٰ إلا بقدرات وإمكانيات وكفاءات مختلفة، ومظاهرُ الكون المتنوعة والمتعدِّدة في السماء والأرض والبحار والجبال لا يمكن تسخيرها والانتفاع منها إلا إذا تعدَّدت الإمكانيات والمهارات والكفاءات، واستطاعت تغطية جميع هذه الجوانب المختلفة.

من هنا نعلم أنَّ الاختلاف ضرورة للبشر، ونعمة من نِعَم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الكبرىٰ على نوع الإنسان، ولولاه لَما استطاع الإنسان تلبية جميع احتياجاته، وتسخير الكون بكل ما فيه لمصلحته، هذا فضلاً عن أنَّ هذا التنوع والاختلاف في إمكانيات البشر وإنجازاتهم هو مظهر من مظاهر علم وقدرة الخالق العظيم اللتين تعلّقتا بإيجاد هذا الكم الهائل من الإمكانيات المختلفة المحقّقة لمصالح النوع الإنساني، والقاضية بحفظه واستمراره[1].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٦/ ٣٤٠).

يقول رشيد رضا متحدثاً عن الحِكم الإلهية من تفاوت البشر في الاستعداد: «أن يكون منهم العالم والجاهل، والحكيم والحاكم، والمسوس والسائس، والقائد والجندي، والمخدوم والخادم، والزارع والصانع، فلولا العمال مثلاً، لَما اتسعت مسائل العلوم بالأعمال، ولَما أمكن الانتفاع بما كشف العلماء من أسرار الطبيعة وخواص المخلوقات، ولولا ذلك لَما عُرفت نِعم الخالق وسُننه، ودقائق علمه وحكمته في الأشياء، وغير ذلك من معاني الصفات والأسماء، وموجبات الحمد والشكر والثناء[1]».

ويقول في مكان آخر: «وحكمته [في اختلاف البشر] أنْ يكونوا مظهراً لأسرار خلقه المادية والمعنوية في الأجسام والأرواح، وسُننه في الأحياء، وتعلُّق قدرته ومشيئته بخلق جميع الممكنات، وبهذا كانوا خلفاء الأرض»[2].

إذاً يجب أن نرفع أيادي الحمد والشكر والثناء لله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي أنعم على الإنسان بهذه النعمة التي أهَّلته مع نِعَم أخرىٰ إلى أن يكون سيدَ مخلوقات الله ـ تعالىٰ ـ في أرضه.

والذي يؤكد أنَّ الاختلاف ـ بهذا المعنىٰ ـ ضرورة ونعمة، بل آية من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الكون، وطريقة لإظهار عظمة الخالق الحكيم، هو قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[3]، ونلاحظ من منطوق هذه الآية الكريمة أنَّ اختلاف البشر في اللغات والألوان، هو آيةٌ تدل على وجود وعظمة الخالق، لا تقلُّ في دلالتها على ذلك عن آيةِ خلق السموات والأرض على عِظَم أمرها.

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٣٤١).
(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ١٩٤).
(٣) سورة الروم: ٢٢.

وهكذا فالاختلاف بين البشر أعطىٰ الإنسان القدرة على إشباع جميع حاجاته، وتسخير الكون بكل ما فيه لمصلحته، وأهم من هذا وذاك، فهو طريق لإظهار أسرار الله ـ تعالىٰ ـ في الكون، وحكمته في خلق جميع الكائنات، الأمر الذي يفتح الطريق أمام الإنسان، ويأخذ بيده إلى الإيمان بهذا الخالق العظيم، «فالاختلاف في العلم والرأي والشعور وجدان طبيعي فيهم، ومن لوازمه النافعة اشتغال كل فريق منهم بنوع من الأعمال، وبذلك يُظهرون أسرارَ الله وحِكمته في الكائنات، وينتفعون بما سخَّره لهم من أنواع المخلوقات»[1].

ـ الآثار المدمِّرة لإساءة استخدام الاختلاف:

ولكنَّ الإنسان الذي أكرمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا النوع والاختلاف بين أفراده، قد يسيء استخدام هذه النعمة بسبب قدرته على الاختيار والكسب الحر، وبسبب عدم إجباره على اختيار الحق والخير، وقد يحوِّل هذه النعمة إلى نقمة فتّاكة به وبنوعه؛ كما فعل كثيرٌ من أفراده بنعمة العقل، فعوضاً عن شكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على هذه النعمة، واستثمارها فيما يعود بالنفع والخير العام علىٰ الإنسانية في معاشها ومعادها، استخدم كثيرٌ من الناس هذه النعمة استخداماً مدمِّراً أدّى بهم إلى إنكار الخالق العظيم، وإلى حروب وويلات وأزمات عانت منها البشرية كثيراً وما زالت تعاني.

إذاً فالمشكلة لم تكن في يوم من الأيام بسبب نِعَم الله ـ تعالىٰ ـ على الإنسان ـ إذ هي سبب وأصل كل خير يصيب الإنسان ـ، ولكنَّ المشكلة تكمن دائماً في حُسن استخدام الإنسان لهذه النِّعم، أو إساءة استخدامه لها بمحض حريته وكسبه.

وهكذا يمكننا أن نلخِّص ماسبق بقولنا: إنَّ الاختلاف بين البشر ضرورة

---

(١) «تفسير المنار» (٦/ ٣٤٠).

ونعمة؛ إذ أنَّ تنوّع إمكانيات البشر، واختلاف قدراتهم وتوجهاتهم يتناسب مع المتطلبات الوجودية لإعمار الأرض من جميع النواحي، وبالتالي يساعد الإنسان على القيام بأعباء الخلافة في الأرض، ولكنه قد ينقلب إلى نقمة وفتنة عندما يؤدي إلى الحسد والتباغض والتنازع والاستضعاف والاقتتال بين الأفراد والجماعات والأمم، وهنا لا بد له من مُلجمٍ ورادع حتى لا يشتطّ ويؤدي إلى هلاك الإنسان فرداً ونوعاً، وإلى تقويض مجتمعاته.

والزّاجر الرادع في حالة البشرية الراهنة هو الأخذ بنصوص الوحي المعصومة التي أوصت بالعدل والقصاص، ودفع الظلم ورد الفتنة الباغية.

يقول رشيد رضا: «الاختلاف طبيعي بين البشر، وفيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية مالا تظهر مزايا نوعهم بدونه، وفيه غوائل ومضار، شرُّها وأضرها التفرق والتعادي به، وقد شرع الله لتكميل فطرتهم، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، الحكم بكتاب الله الذي لا مجال فيه للاختلاف»[(١)].

إذاً فالاختلاف الذي يؤدي إلى التكامل البشري، وقضاء مجموع حاجات البشر، وإظهار قدرات الخالق العظيم، وأسرار كونه وخلقه، مدعومٌ ومؤيد شرعاً؛ لأنه في هذه الحالة آية من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الكون، وآياتُ الله ـ تعالىٰ ـ حقُّها الإظهار والتكريم، وأما إذا خرج الاختلاف عن المهمات الموكلة إليه، وأصبح عاملاً من عوامل التآكل والتفرق والتناحر بين البشر، فهنا يصبح مذموماً شرعاً، ويجب الخروج منه وفق المنهج الذي ارتضاه الله ـ تعالىٰ ـ لنا، وهو الاحتكام إلى الكتاب والسُّنّة، والاعتصام بهما، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٢١٢).

ﭐللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وهكذا يمكننا القول: إنَّ معيار الحكم على الاختلاف، هو آثاره الواقعية، فإذا كانت آثاره محقِّقة لمصالح الإنسان المشروعة والعامة والقطعية، فهو اختلاف محمود، وإذا كانت آثاره وخيمة على الفرد والمجتمع، فهو اختلاف مرفوض ومذموم، ويجب الخروج منه.

المبحث الخامس

سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في ابتلاء البشر

ـ الابتلاء الأكبر في حياة الإنسان:

رأينا في المباحث السابقة أنّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد خلق الإنسان، وزودَّه بالقدرة على الاختيار والكسْب، ومنحه الاستعداد لعمل الخير والشر، ورزقه فطرة سليمة، وعقلاً قادراً على التميز والترجيح وإدراك الحقائق، وجعل البشر متفاوتي الإمكانيات والقدرات من أجل أن يدفعهم إلى الارتباط بعضهم ببعض، وطلب منهم حشد جهودهم، وجمع طاقاتهم من أجل تحقيق مصالحهم، الأمر الذي أدّىٰ إلى ولادة التجمعات والمجتمعات البشرية، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية فإنّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الكون وفق نظام مُحكم من السُّنن والأسباب، وجعله قابلاً لتسخير الإنسان والوفاء بحاجاته.

ولمّا كان البشر من طبيعتهم الاختلاف الذي قد يولّد التنازع والتخاصم، الأمر الذي قد يؤدي إذا اشتدَّ إلى هلاك الإنسان وفناء مجتمعاته، فإنَّ الله ـ عزَّ

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣ـ١٠٥.

وجلَّ ـ قد أرسل إلى البشر الرسل هُداةً يكمِّلون فطرتهم وعقلهم، ويحملون لهم مصابيح الحق والعدل والسلام، وينيرون لهم طريق السعادة في الدنيا والآخرة، هنا وفي هذا المرحلة بالذات؛ أي: بعد إرسال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مصحوبين بكتبهم السماوية، قاطعين عن البشر الحجّة بعدم وضوح أو معرفة الطريق الذي يؤدي إلى الحق والخير، انقطع عذر الإنسان في أن يمضي في الحياة على هواه، وبدأت رحلة ابتلائه؛ أي: اختباره واختبار قدراته واستعداداته الممنوحة له، تُرىٰ هل سيستفيد من حريته واختياره وقدرته على الفعل، ويختار الطريق والمنهج الذي بشَّر به أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وبذلك يَقْوَى استعداده للخير، ويمشي في الأرض مستهدياً بأنوار الوحي، ينظِّم حياته وحياة مجتمعاته في ضوئها، وينشر في الأرض الحق والخير والعدل، ويسخِّر الكون بما فيه لمصلحته ومصلحة بني جنسه جميعاً، وبذلك يصبح من أصحاب الحق والخير، وينال رضوان الله ـ تعالىٰ ـ في الدنيا والآخرة، أم سيسيء الاختيار، ويتَّبع أهواءه، ويُعرض عن سماع الحق وتدبّره والعمل به، وبذلك يَقْوَىٰ في داخله الاستعداد للباطل والشر حتى يصبح من جنود الباطل وزبانيته، ويعيث في الأرض فساداً، وبذلك يبوء بغضب الله ـ تعالىٰ ـ وسخطه في الدنيا والآخرة؟

نعم هذا هو الابتلاء الأكبر للإنسان(١)، هل سيختار هذا الطريق أم ذاك ؟ وفي الحالتين، تقع عليه وحده مسؤولية اختياره وأعماله؛ لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يُجبره على شيء، وزوَّده في الوقت نفسه بكل ما يُعينه على اختيار الحق، بل وضَّح له معالم الحق وضوحاً لا مزيد عليه عند اكتمال نزول الوحي بنزول القرآن الكريم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٢٧٣ـ٢٧٤، ٩/ ٤٠٦).

ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[1]

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة، حقيقة أن الإنسان خُلِقَ للابتلاء، وفق المعنىٰ الذي أشرنا إليه، من هذه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[2]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[3]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾[4].

يقول رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «أي: ليجعل ذلك ـ أي: خلق السموات والأرض ـ بلاءً؛ أي: اختباراً وامتحاناً لكم، فيُظهر أيكم أحسن إتقاناً لما يعمله، ونفعاً له وللناس به، وذلك أنه سخَّر لكم كلَّ شيء، وجعلكم مستعدين لإبراز ماأودعه فيه من المنافع والفوائد المادية والمعنوية، ومن حِكم خالقه ورحمته بعباده فيه، ومستعدين للإفساد والضرر به ليجزي كل عامل بعمله»[5].

وهنا يجب أنْ نذكر أنَّ رشيد رضا قد أشار بوضوح إلى أنَّ الإنسان

---

(١) سورة هود: ١ـ٤.
(٢) سورة الإنسان: ٢ـ٥.
(٣) سورة المائدة: ٤٨.
(٤) سورة هود: ٧.
(٥) «تفسير المنار» (١٢/ ١٧).

لا يستطيع أنْ يضمن لنفسه النجاة في هذا الاختبار الإلهي الذي أعدَّه الله ـ تعالىٰ ـ له إلاّ بالاعتصام بأوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكليفية والتكوينية على السواء؛ أي: الأخذ بالشرع الحنيف، والسنن الإلهية[1].

ونستطيع أن نقرر في ضوء هذه الحلقة أنَّ كلَّ إنسان منا محكومٌ عليه بدخول هذا الابتلاء أَحبَّ أم كَرِهَ، فمنْ أدرك هذه الحقيقة، وأخذ بالحق واتبعه، فهنيئاً له فوزُه في هذا الامتحان في الدنيا والآخرة، ومنْ أساء الاختيار، وأَتبعَ نفسه هواها، فبئس ما اختار، وبئس ما جرَّ على نفسه من غضب الله ـ تعالىٰ ـ وعقابه في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2].

إذاً هذا هو الابتلاء الأكبر الذي شاءَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يمتحن به الإنسان، وهذا الابتلاء يستغرق حياة الإنسان من بلوغه سن التكليف وحتى مماته، ولكن هل هذا هو كل شيء ؟ كلا، فقد اقتضت حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإرادته في خلق الإنسان، أن يعرِّضه بين وقت وآخر إلى اختبارات وابتلاءات أخرى تضاف إلى الابتلاء الأكبر، وتصب كلها في خدمته وتحقيق غايته؛ أي: في التمييز بين أصحاب الحق والعاملين به، وبين أصحاب الباطل والعاملين به، وجزاء كل فريق بما يستحق، ولكن ما هي هذه الابتلاءات؟ وما هي هذه الاختبارات الأخرىٰ ؟ وهنا يجيبنا القرآن الكريم بأنها قد تكون أنواعاً من المحن والشدائد، وقد تكون أنواعاً من الخير العميم، والمال الوفير، وألواناً من القوة والجاه والعظمة، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3]، ويقول أيضاً: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢٥٠، ٩/ ٤٠٦).

(٢) سورة الجاثية: ١٥.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٥.

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾[١].

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي يُحدِّد ويختار الوسيلة التي تقتضيها حكمته في ابتلاء عباده، فهو مرةً يختبرهم بالنِّعم والمِنح، ومرةً يختبرهم بالنِّقم والمِحَن وفق ما تقتضيه حكمته البالغة.

ـ الابتلاء سُنَّةٌ عامَّةٌ بين البشر:

وهذا الابتلاء هو سُنة إلهية تعمُّ جميع البشر دون استثناء، مؤمنهم وكافرهم، تقيّهم وفاجرهم، بل هي أيضاً تعم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أنفسَهم[٢]، فها هو أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتعرَّض ـ كما أخبرنا القرآن الكريم ـ إلى بلاءٍ مبينٍ عندما جاءه الأمر الإلهي طالباً منه أن يذبح ابنه الوحيد الذي رُزقه بعد أن بلغ من العمر عِتياً: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[٣].

وها هو رسول الله ﷺ يعرِّف المسلمين بهذه السُّنّة الماضية، ويؤكد عمومها وجريانها على كافة الخلق دون استثناء بقوله: «أَشَدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمَّ الصالحون، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ»[٤]، إذاً فالابتلاءُ سُنّةٌ عامة تصيب المؤمنين وغير المؤمنين على السواء.

---

(١) سورة الفجر: ١٥ـ١٦.

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٩/ ١٧ـ١٨).

(٣) سورة الصافات: ١٠٠ـ١٠٧.

(٤) رواه الترمذي، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الزهد (٣٧)، باب ما جاء في الصبر على البلاء(٥٦)، رقم(٢٣٩٨)، (٤/ ٦٠١ـ٦٠٢). ورواه الدارمي، أبو محمد عبد الله بن=

ـ أنواع الابتلاء في القرآن الكريم:

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنَّ معظم البلاءِ الذي يبتلي الله ـ تعالىٰ ـ به خلقه هو من نوع الابتلاء بالشدائد والمصاعب، فقد ذكر لنا القرآن الكريم أنّ المؤمنين قد يتعرضون إلى ثلاثة أصناف من هذا الابتلاء، وهي:

ـ الابتلاء بالاضطهاد والفتنة في الدّين، وهو يعني «إيذاء الأقوياء للضعفاء لأجل إرجاعهم عن دينهم بالقوة الظاهرة»[1]؛ يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2]، ويقول ـ عزَّ وجلَّ ـ أيضاً: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[3].

يقول رشيد رضا في تعليقه على هذه الآية الكريمة: «إن الفتنة في الدّين من سُننه ـ تعالىٰ ـ في نظام الاجتماع، يمتاز بها الصادقون من الكاذبين؛ ليمحِّص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين، وتكون العاقبة للمتقين الصابرين»[4].

ـ الابتلاء بالأذى والخوف والفقر وموت الأحبة، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ

= عبد الرحمن بن الفضل الدارمي (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، «سُنن الدارمي»، طُبع بعناية محمد أحمد دهمان، دمشق، المطبعة الحديثة، (١٣٤٩هـ) باب من أشد الناس بلاءً، (٢/ ٣٢٠).

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٢٩٧).

(٢) سورة البقرة: ٢١٤، انظر تفسير رشيد رضا لهذه الآية الكريمة في: (٢/ ٣٠٠ـ٣٠٢).

(٣) سورة العنكبوت: ٢ـ٣.

(٤) «تفسير المنار» (٨/ ٢٩٧).

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1]، ويقول أيضاً: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[2].

ـ الابتلاء بما يشقُّ على الأنفس من التكاليف، ويأتي في مقدمة هذه التكاليف الجهاد في سبيل الله ـ تعالىٰ ـ ببذل الأنفس والأموال ومدافعة الأعداء، يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3].

ـ الغاية والحكمة من الابتلاء:

يتضح من الآيات الكريمة السابقة، وآيات أخرىٰ من مثل قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾[4]: أنّ الهدف والغاية من ابتلاء المؤمنين بالشدائد هو التمييز بين المؤمنين الصادقين، وبين المؤمنين الضعفاء، وبين المنافقين المتسترين بالإسلام.

وكما ابتلى ويبتلي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين، فإنّه كذلك ابتلىٰ غير المؤمنن، وخصوصاً أقوام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فقد أخبرنا الله ـ تعالىٰ ـ أنَّ من سنته فيهم أن يبتليهم بالشدائد، يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٠ـ ١٤٢، انظر تفسير رشيد رضا لهذه الآيات الكريمة في: (٤/ ١٤٧ـ ١٥٦)، وانظر أيضاً: (١٠/ ٣٠٢ـ ٣٠٣).

(٤) سورة آل عمران: ١٧٩، انظر تفسير رشيد رضا لهذه الآية الكريمة في: (٤/ ٢٥٣ـ ٢٥٤).

إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[1]، وكذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾[2]، نلاحظ من هاتين الآيتين الكريمتين أنَّ الغاية من ابتلاء الكفار بالشدائد هي دفعهم لقبول الإيمان، وتهيئة نفوسهم لاعتناقه[3].

وهكذا نلاحظ أنَّ الشدائد هي الوسيلة التي يستخدمها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أكثر من غيرها في ابتلاء واختبار عباده، تُرى هل يفعل الله ـ تعالىٰ ـ هذا الأمر من أجل الإضرار بعباده أو إيذائهم ؟ هذا لا يمكن أبداً؛ لأنَّ الله ـ تعالىٰ ـ هو الرؤوف الرحمن الرحيم بعباده، ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4]، إذاً لا بد من أن تكون هناك حكمة، بل حكمة جليلة من وراء اختيار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه السُّنة أكثر من غيرها في اختبار عباده، وهذه الحكمة ـ حسب رشيد رضا ومحمد عبده ـ هي تربية الخَلْق، وإصلاح نفوسهم، وإماطة اللِّثام عن حقيقة ذواتهم أفراداً وجماعاتٍ، وهذه الحكمة لا تتحقق إلا بوسائل عديدة، من أهمها الوقوع بين فكي الشدائد ومغالبة الصعاب.

يقول رشيد رضا: «ومما ثبت بالتجارب، وتقرر عند علماء النفس والأخلاق: أنَّ الشدائد وملاحج الأمور[5] مما يربي الناسَ ويُصلح من فسادهم، فالمؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش، فيُنسيه ضعفَه وحاجته إلى ربه، والشدائد تذكّره ربَّه، والكافر بالنِّعم قد يعرفُ قيمتها بفقدها، فينقلب

---

(١) سورة الأعراف: ٩٤.
(٢) سورة الأنعام: ٤٢.
(٣) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٤١٢ـ٤١٥، ٩/ ١٤ـ١٥).
(٤) سورة البقرة: ١٦٣.
(٥) ملاحج الأمور: تعني الضائقة الشديدة التي يصعب على أصحابها الخلاص والفكاك منها، انظر: «أساس البلاغة»، الزمخشري (٥٦٠).

شاكراً بعد عودها، بل الكافر بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد تنبّهُ الشدائد والأهوالُ مركزَ الشعور بوجود الربِّ الخالق المدبِّر لأمور الخلق في دماغه، وتذكره بما أُودع في فطرتِه من وجود مصدرٍ لنظام الكون وأقداره كما وقع كثيراً»[1].

هذا عن دور الشدائد في تربية النفوس، وإعادة الرشد إليها، أو دفعها باتجاهه.

أما عن دور الشدائد في مساعدة الإنسان، فرداً كان أم جماعةً، في التعرُّف على حقيقة أمره وذاته، والتأكد من حقيقة ما يدَّعيه، وما تؤدي إليه هذه المعرفة من فرزٍ واضح ودقيق للمؤمنين والصادقين عن المنافقين والكاذبين، الأمر الذي يعود على المجتمع الإسلامي بفائدة عظيمة، وهي تحصينه من الداخل، وتنقيته من العناصر الضعيفة في إيمانها والمنافقة فيه، وما يترتَّب على ذلك من مكاسب سياسية واجتماعية ونفسية وتربوية، فيقول محمد عبده في تفسير قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[2]: «الشدائد تميِّز بين القوي في الإيمان والضعيف فيه، فهي التي ترفع ضعيف العزيمة إلى مرتبة قويِّها، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين، وفي ذلك فوائد كثيرة منها: أنَّ الصادق قد يُفضي ببعض أسرار المَّلة إلى المنافقين؛ لِما يغلب عليه من حُسن الظن والانخداع بأداء المنافق للواجبات الظاهرة، فإذا عرفه، اتقى ذلك، ومنها: أنّ تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية؛ لأنها بانكشاف حال المنافقين لها تعرف أنّهم عليها لا لها، وبانكشاف حال الضعفاء الذين لم تُربِّهم الشدّة تعرف أنهم لا عليها ولا لها، هذا ما تكشفه الشدّة للجماعة من ضرر الالتباس، وأما الأفراد فإنها تكشف لهم حُجب الغرور بأنفسهم؛ فإنّ المؤمن الصادق قد يغترُّ بنفسه، فلا يدرك ما فيها

---

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٥)، وانظر أيضاً: (٧/ ٤١٣).

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

من الضعف في الاعتقاد والأخلاق؛ لأن هذا مما يخفىٰ مكانه على صاحبه حتى تظهره الشدائد»[1].

وكما أن الشدائد تساعد الإنسان على معرفة حقيقة نفسه، فإنها تساعده أيضاً ـ إنْ ثَبَت في وجه المحنة التي تعترض طريقه ـ على تمكين الحق في نفسه، واستجلاء معالمه.

يقول رشيد رضا: «قد خلت سُنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لأهل الحق، كل إنسان يرى نفسه على الحق في الجملة، ولكن التمكُّن في المعرفة والثبات على الحق لا يُعرف في الغالب، إلاّ إذا وُجد للمحقِّ خصم ينازعه ويعارضه في الحق، هناك تتوجه قواه إلى تأييد حقه وتمكينه، ويحس بحاجته إلى المناضلة دونه والثبات عليه، وكثيراً ما يُظهر الباطل الحقَّ بعد خفائه؛ فإنّ المعارضة في الحق تحمل صاحبه على تنقيحه وتحريره وتنقيته مما عساه يلتصق به أو يجاوره من غواشي الباطل»[2].

وبناءً على تلك الحِكَم المرجوة من الابتلاء، لا يجوز لنا في أي حال من الأحوال أن نقول: إنّ الضرَّ الذي يصيب الإنسان من الله ـ تعالىٰ ـ هو شر.

يقول رشيد رضا: «إنَّ الضرَّ من الله ـ تعالىٰ ـ ليس شراً في الحقيقة، بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به مَنْ هو أهل للاستفادة أخلاقاً وآداباً وعلماً وخبرةً»[3].

إذاً فإنَّ الشدائد والمصاعب التي يبتلي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها خلقه، ظاهرها فيه إضرار بهم، ولكنّها في باطنها، وفي حقيقتها، وفي الغاية التي تسعىٰ إليها، رحمة مهداة من الخالق الحكيم، فيها كل الخير والمصلحة لهم جميعاً.

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٢٥٣ـ ٢٥٤)، وانظر أيضاً: (٤/ ١٥١ـ ١٥٢).

(٢) «تفسير المنار» (٢/ ٢٦).

(٣) «تفسير المنار» (٩/ ٣٣٤ـ٣٣٥).

ولكنْ ـ وعلى الرغم من هذا الفهم العلمي لسُنّة الله ـ تعالىٰ ـ في الابتلاء، وحكمتها في الخلق ـ فإننا نجد الكثير من الناس، وحتى أيامنا هذه، «يذهبون إلى أنَّ من يُؤذى في سبيل الحق بالقول أو بالفعل، كان وقوع الأذىٰ عليه دليلاً على أنه مُبطلٌ لا يطلب الحق، فما أجهلهم بكتاب الله! وما أبعدهم عن العلم بسنن الله! وما أغفلهم عن تأويلها في خلق الله!»[1].

ـ واجب المسلم في مواجهة الابتلاء:

والآن إذا وقع الابتلاء، فما الذي يجب على المسلم أن يفعله في مواجهته؟ وهنا يأتي جواب القرآن الكريم واضحاً: على المسلم أن يتسلّح بالشكر والصبر حسب نوع الابتلاء، فإذا كان الابتلاء بالنّعم، فالقرآن الكريم يوجِّه المؤمنين إلى مقابلته بالشكر، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على لسان سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ بعد أن عدّد نِعمه الجليلة عليه: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[2].

والشكر ـ كما عرَّفه رشيد رضا ـ لا يكون بالكلام وتحريك اللسان فحسب، بل هو «عبارةٌ عن صرف النِّعم فيما وُهبتْ لأجله، وهو ما يرضي المنعِمَ ـ تعالىٰ ـ، وتظهر به حكمته، وتعم رحمته، كإنفاق فضل المال في وجوه البر التي تنفع الناس، وإعداد القوة بقدر الاستطاعة لتأييد الحق ولإقامة العدل»[3].

وأما إذا كان الابتلاء بالمحن والشدائد ـ وهو الأكثر كما عرفنا ـ، فالقرآن الكريم يوجِّه المسلمين إلى مواجهته بالصبر والاحتساب، يقول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٣٠٢).

(٢) سورة النمل: ٤٠، وانظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢٥٢ـ ٢٥٣).

(٣) «تفسير المنار» (٨/ ٢٠٣).

قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

يقول محمد عبده في تعريفه للصبر الذي يدعو الله ـ تعالىٰ ـ للاستمساك به في هٰذه الآية الكريمة: «هو تلقّي المكروه بالاحتمال، وكظم النفس عليه مع الرويّة في دفعه، ومقاومة ما يُحدثه من الجزع، فهو مركَّب من أمرين: دفع الجزع، ومحاولة طرده، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس»[2].

إذاً فإنَّ الصبر ليس عملاً سلبياً فقط يتمثل في تحمل الشدائد، بل هو أيضاً عمل إيجابي يتمثَّل في مقاومة ومواجهة أثر الشدائد في نفس المُبتلَىٰ من جزعٍ وخوفٍ حتىٰ تبقىٰ نفس المسلم وعزيمته قادرة علىٰ التفكير السليم، واتخاذ الإجراءات المناسبة للخروج من هذه الشدّة التي يتعرَّض لها، وقد وضّح لنا رسولُ الله ﷺ في حديثٍ له أنَّ عاقبة اعتصام المسلم بالشكر والصبر إنما هي الخيرُ كل الخير له: «عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إنْ أصابتهُ سرّاءُ، شَكَر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءُ، صَبَر، فكان خيراً له»[3].

ـ سبل الخروج من الابتلاء:

وأما سبيل المسلم في الخروج من هذا البلاء ـ بعد هذا الصبر عليه ـ، فهو أنْ يتوجه إلى الله ـ تعالىٰ ـ بالطلب إليه أن يكشف عنه هذه الشدّة، ويصرف عنه هذه المحنة، والطلب من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كما يقول رشيد رضا نوعان: «طلبٌ بالعمل ومراعاةِ الأسباب التي تقتضيها سننه في خلقه، وطلبٌ بالتوجه والدعاء

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٢) «**تفسير المنار**» (٤/ ٢٧٧).

(٣) رواه مسلم، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الزهد (٥٣)، باب: المؤمن أمره كله خير (١٣)، رقم (٢٩٩٩)، (٤/ ٢٢٩٥).

اللّذينِ ندبت إليهما آياته ـ تعالىٰ ـ في كتابه وأحكامه الشرعية»[١].

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نماذج من هذا الدعاء على لسان بعض أنبيائه في أثناء تعرضهم للمحن، منها: نداء سيدنا أيوب ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[٢].

إذاً فالجمع بين العمل بالأسباب الممكنة، وبين التوجه الخالص إلى الخالق العظيم بالدعاء والتضرُّع، هما سبيل المسلم الحق لمغالبة الشدائد، والتصدي للفتن والمحن التي يبتليه الله ـ تعالى ـ بها.

أمّا إذا أَوْقَع الإنسانُ نفسه بنفسه بمصيبةٍ أو ضُرٍّ نتيجةَ خروجه هُوَ عن شرع الله ـ تعالىٰ ـ، أو سُننه الكونية والاجتماعية، وليس ابتلاءً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ففي هذه الحالة يجب على المسلم أن يعلم أنه هو المسؤول، والمسبِّب المباشِر لهذا الضُّر الذي أصابه؛ لأنَّ «مصائب الدنيا تكون جزاءً على ما يقصِّر فيه الناس من السير على سُنن الفطرة، وطلب الأشياء من أسبابها، واتّقاء المضرات باجتناب عِللها، ومن ذلك التقصير ما هو معصية شرعية»[٣].

وعلى المسلم ـ أيضاً ـ أن يندم على عمله الذي اجترحه، وخرج به عن إرادة الله ـ تعالىٰ ـ التكليفية أو التكوينية، وعليه أن يُقلع عنه، ويعالج آثاره بالعودة إلى الاعتصام بشرع الله ـ تعالىٰ ـ، وما تقتضيه سُننه المتعلقة بالعمل الذي اقترفه، ويَشفَع ذلك كله بالتوبة والاستغفار والدعاء إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ أن يقيل له عثرته، ويغفر له زلته[٤].

---

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٣٣٥).

(٢) سورة الأنبياء: ٨٣ـ٨٤.

(٣) «تفسير المنار» (٥/ ٤٣٤ـ٤٣٥).

(٤) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٤٩١ـ٤٩٢، ٥/ ٤٣٤ـ٤٣٥، ٦/ ١٣٢، ٤/ ١٦٨ـ١٧٠، =

ـ غاية القرآن الكريم من ذكر الابتلاء فيه:

وأخيراً فقد نبّه رشيد رضا إلى أنّ إشارة القرآن الكريم لسُنة الله ـ تعالىٰ ـ في ابتلاء البشر مراراً وتكراراً، وإخبارَه بها في مناسبات وسياقات عديدة ومختلفة، لم تكن من أجل سرد قصص السابقين، أو حتى سرد أحداثٍ حاسمة من سيرة رسول الله ﷺ، وجهاد أصحابه ـ رضوان الله تعالىٰ عليهم جميعاً ـ في سبيل الحق والدعوة إليه فقط، بل من أجل أهدافٍ تربوية عديدة[1]، من أهمها إزالة وهم المسلمين الذين يظنون ـ بغير حق ـ أنّهم «بمجرد الانتماء إلى الإسلام يكونون أهلاً لدخول الجنة، جاهلين سُنة الله ـ تعالىٰ ـ في أهل الهدىٰ منذ خلقهم، وهي تحمل الشدائد والمصائب، والإيذاء في طريق الحق وهداية الخلق»[2]، ولَفْت نظرهم في مقابل هذا الظن إلى أنَّ «الفوز والظفر في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة، لا يكونان بالأماني والغرور، ولا يُنالان بالمحاباة والكيل الجُزاف، بل بالجهاد ومكافحة الأيام، ومصابرة الشدائد والأهوال، واتّباع سُنن الله في هذا العالم»[3].

لذلك فالواجب على المسلم الحق الذي يتلو كتاب الله ـ تعالىٰ ـ، ويفهم مراده من آياته، أنْ يُوطِّن نفسه على تحمُّل الشدائد، والاستعداد لها، وعليه ألاّ يتبرَّم منها، ولا يجزع إذا حلَّت به، وأن يُهيىء نفسه للاستفادة منها بالصبر والشكر، والعمل بسُنَن الله ـ تعالىٰ ـ لمواجهتها.



= ١٩٠ـ١٩٢).

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٤١، ٤/ ١٥٢، ٢٧٤ـ٢٧٥).

(٢) «تفسير المنار» (٢/ ٩٩).

(٣) «تفسير المنار» (٤/ ١٥٦).

الفصل السادس

السُّنن الإلهية في نهوض الأمم وسقوطها

نصل في هذا الفصل إلى الحديث عن موضوع شغل حيِّزاً كبيراً في خطاب رشيد رضا الإصلاحي عموماً، وفي خطابه السُّنني خصوصاً، وهو الحديث عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ التي تتم بموجبها عملية النهوض والسقوط الحضاري للأمم.

ومن نافلة القول أن نقول: إنّ اهتمام رشيد رضا البالغ بهذا الموضوع إنما يأتي استجابة علمية منه للظروف التاريخية والحضارية المأساوية التي كانت تمر بها الأمّة الإسلامية في مستهل القرن العشرين، والتي انتهت بسقوط الخلافة العثمانية، ووقوع معظم بلاد العالم الإسلامي تحت قبضة الاستعمار الغربي وقتئذ.

سنحاول في المبحث الأول من هذا الفصل التعرّف على مدى أهمية العلم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ عند رشيد رضا، وسنلاحظ من خلاله أنّ رشيد رضا يعقد علاقة شرط بمشروط بين معرفة سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم والأخذ بها، وبين نهضة الأمم وارتقائها.

وسنحاول في المبحث الثاني تحديد مفهوم الأمّة من وجهة رشيد نظر رشيد رضا.

أما المبحث الثالث، فسنخصصه للحديث عن عوامل قيام الأمم ونهوضها.

وأما المبحث الرابع، فسنتناول فيه عوامل وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في سقوط

الأمم وهلاكها، وسنحاول التعرّف فيه أيضاً على مدىٰ إمكانية التغيير والتجدُّد الحضاري وشروطهما في الأمم التي تنتشر فيها أعراض السقوط، وتُشرف على الهلاك الحضاري.

المبحث الأول

مدىٰ أهمية العلم بسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم عند رشيد رضا

قبل البدء بدراسة وتحليل أفكار ونصوص رشيد رضا حول الأمم وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ فيها، نجد أنّه من الضروري الإشارة إلى كثافة اهتمام رشيد رضا بهذا الموضوع لدرجةٍ يمكننا بها القول بأنّ اهتمامه بالأمم وشؤونها يأتي في المقام الثاني بعد اهتمامه بإصلاح الفهم العقدي عند المسلمين، وإزالة كل أشكال التعارض واللّبس الموهوم بين مبادىء ومفاهيم العقيدة الإسلامية، وبين ثبات واطّراد السُّنن الإلهية ـ كما لاحظنا ذلك بالتفصيل في معظم مباحث الفصلين الرابع والخامس ـ، وأغلب الظن أنّ هذا الاهتمام الكبير يعود إلى سببين رئيسين:

أولهما: اهتمام القرآن الكريم نفسِه بالأمم وشؤونها، فقد ورد في القرآن الكريم أكثر من سبعين آية كريمة تتحدث عن الأمم، هذا بالإضافة إلى عشرات الآيات القرآنية الأخرىٰ التي تتحدث عن الأقوام والقرىٰ والقرون، وكل هذه الكلمات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمم(١)، ومن البديهي هنا أن نقول: إنّ اهتمام القرآن الكريم الواضح والبالغ بالأمم إنما كان يهدف في المحصلة النهائية إلى توفير كل المتطلَّبات النظرية لصياغة وعي إسلامي متكامل وقادر على بناء الأمة الإسلامية التي شهدت ولادتها الناجزة على يد رسول الله ﷺ، وأصحابه الكرام

---

(١) انظر: «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**»، محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، بيروت، دار المعرفة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، مادة: أمم، قرون، قرى.

ـ رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ـ، وقادر في الوقت نفسه على المحافظة على هذه الأمة، وحمايتها من كل عوامل وعِلَل السقوط والانهيار التي أصابت الأمم السابقة، وتحصينها بالأخذ بعوامل وأسباب البقاء والنهوض حتى تتمكن من أداء رسالتها في هذا العالم، والتي تتمثل في الدعوة إلى هداية الإسلام وقِيَمه وحضارته[1].

وإذا كان القرآن الكريم قد أَفرد هذه المساحة الواسعة للحديث عن الأمم، فمن الطبيعي أن يواكب رشيد رضا في تفسيره هذه المساحة، ويقدِّم لها إضاءات كبيرة تتناسب مع درجة اهتمام القرآن الكريم بها، ومع خطورة وأهمية الهدف الذي تسعىٰ إليه.

ثانيهما: من المعلوم أنّ المرحلة التايخية التي عاش فيها رشيد رضا، ومارس فيها نشاطه الإصلاحي ـ نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ـ، كانت مرحلة تاريخية حاسمة عصفت بأركان وقواعد الأمة الإسلامية، فقد شهد رشيد رضا بأم عينيه تفكك وتداعي الدولة الإسلامية المتمثلة آنذاك بالخلافة العثمانية، ورأىٰ محزوناً متألماً كيف آلت هذه الخلافة ـ بعد طول ازدهار وسيادة ـ إلى جثة هامدة لا حراك فيها بفعل عوامل التخلف والضعف التي تفشَّت في داخلها من جهة، وبفعل ضربات معاول الغرب الاستعماري، وما يلوذ به من قوًى يهودية وماسونية حاقدة من جهة أخرىٰ.

لذلك وجدنا رشيد رضا ـ كغيره من أعلام الإصلاح في عصره ـ يشمِّر عن ساعديه، ويستفرغ وُسْعه وطاقته في دراسة ومعرفة عوامل وعِلَل هذا السقوط المريع والمدوّي للخلافة العثمانية، في محاولةٍ منه لتدارك الآثار المدمِّرة لغياب الدَّور الحضاري والتاريخي الذي كانت تمثله هذه الدولة في حياة

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٦٧).

المسلمين، سواءً الذين كانوا تحت سيادتها أم خارجها من جهةٍ، ودفع المسلمين وزعمائهم من جهةٍ أخرى إلى العمل بكل الوسائل لملء الفراغ الذي خلّفه سقوطها، إما عن طريق إعادة الحياة إليها ـ في المراحل الأولىٰ من انهيارها ـ، وإما عن طريق توفير كل الشروط المناسبة لانطلاق دولة إسلامية جديدة تَخْلُف الدولة العثمانية في مكانها ووزنها التاريخي الكبير، وتؤدي الدور نفسه في حماية الإسلام والمسلمين من المحاولات الشرسة التي كانت تبذلها دول الغرب الاستعماري للهيمنة على العالم الإسلامي، وتفكيك أوصاله، واقتسامه فيما بينها[١].

هذا الوضع التاريخي العصيب الذي وجد رشيد رضا فيه نفسه، دفعه دفعاً قوياً لدراسة أحوال الأمم وشؤونها، وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ العاملة فيها، كي يساهم في إيقاظ وتجديد الوعي الإسلامي المنكوب والمذهول أمام هذا الحَدَث التاريخي، وإعادة الحياة إلى شرايينه الجامدة من أجل مواجهة هذا الحَدَث، ومواجهة تداعياته مواجهة علمية سُننية رشيدة بعيدة عن الانفعال الصاخب، وإلقاء التُّهم هنا وهناك، دون تبصُّر بالفاجعة، وتحليل عوامل حدوثها وعوامل التخلص منها، بالإضافة إلى معرفة العوامل المؤدية إلى إيجاد البديل الحقيقي، كل هذا إيماناً من رشيد رضا بأن الدول والمجتمعات والأمم لها سُنن تسير عليها، ولا تحيد عنها في نهوضها وسقوطها، وأنّ هذه السُّنن تنطبق على المسلمين كما تنطبق على أعدائهم دون تمييز بحكم ثباتها

---

(١) من أجل معرفة أثر سقوط الخلافة العثمانية على الوعي الإسلامي، وموقف رجال الإصلاح، ورشيد رضا بشكل خاص حيال هذا السقوط، انظر:

Ali merad . L Islam Contemporain . ed 2 , paris,que sais-je, N.2185,1987.pp 73-81.

علي مراد، «**الإسلام المعاصر**»، ط٢، باريس، (١٩٨٧م)، سلسلة ماذا أعلم، رقم (٢١٨٥)، (٧٣ـ١٨).

وعمومها، ولا مناص ـ في الحالة هذه ـ من فهم هذه السُّنن، واستجلاء حقيقتها؛ لتسخيرها في مصلحة المسلمين الذين هم أَوْلى الناس باتّباعها؛ لأنها في نظرهم جزء لا يتجزأ من أوامر الله ـ تعالىٰ ـ الكونية التي لاخَلاص ولا سعادة للمسلمين في الدنيا والآخرة إلا باتّباعها، والعمل بها جنباً إلى جنب مع أوامر الله ـ تعالىٰ ـ التكليفية المفصَّلة في الكتاب الكريم والسنة الشريفة.

وأخيراً لا نستطيع أن نقول بأنَّ رشيد رضا قد وصل إلى ما قد وصل إليه من السُّنَن التاريخية والحضارية العاملة في الأمم والحضارات؛ لأنه كان فيلسوفاً للتاريخ، أو عالماً من علماء الاجتماع، فهو لم يكن يملك الثقافة والتكوين الفلسفي والاجتماعي الأكاديمي الذي يؤهله لذلك، ولكنه قد وصل إلى ما وصل إليه ـ في المقام الأول ـ عن طريق قراءته العلمية والمنهجية لآيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالأمم وأحوالها، بالإضافة إلى تأملاته العميقة في أحداث التاريخ الإسلامي بشكل خاص، والتاريخ الإنساني بشكل عام، وأخيراً عن طريق الاستعانة بمتابعاته اليومية الدؤوبة لأحداث الواقع التاريخي والاجتماعي الذي يدور من حوله، ويشهده ويراقبه بأم عينيه، ويحلّله بعقله وتفكيره، ويشارك فيه بقدر إمكاناته وطاقته.

إذاً هذه هي مصادر رشيد رضا التي انطلق منها، واستند إليها في عملية استكشافه لسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم والمجتمعات، ولكن اعتماده على هذه المصادر لم يمنعه ـ كما رأينا سابقاً ـ من دعوة المسلمين إلى التعمق والاختصاص في علوم النفس والاجتماع والأخلاق والسياسة والتاريخ كأدوات ضرورية، بالإضافة إلى علوم الوحي ونصوصه، وقراءة الواقع وأحداثه المباشرة من أجل الوصول إلى علمٍ متكامل لسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في بناء المجتمعات والأمم ونظامها وعوامل نهوضها وسقوطها وتجدُّدها.

لذلك ـ وبناءً على ما سبق ـ فإنه لا يحق لنا أن نُصنّف ونُدخِل أفكار وآراء

رشيد رضا في هذا الموضوع في مضمار الفكر الفلسفي أو الاجتماعي المحض، بل يمكننا أن نقول عنها بأنَّها مساهمة علمية جادة منه في سبيل استجلاء الرؤية الإسلامية المحكومة بمصادر الشريعة قرآناً وسُنَّة تجاه قضية الأمم والمجتمعات.

وعلى هذا الأساس نرىٰ أنه من الطبيعي أن يكون كلام رشيد رضا في تفسيره حول هذا الموضوع المهم، يتناول بشكل رئيسي قضايا وهموم الأمة الإسلامية بشكل خاص، مع التأكيد المستمر بأن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في معاملة الأمم واحدة، ثابتة، مطردة، لا تقبل التحويل ولا التبديل[1]، تجري على جميع الأمم دون تمييزٍ أو اعتبارٍ لزمانٍ أو مكانٍ، أو انتماءٍ ظاهري لدين، أو انتسابٍ شكلي لنبي من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام أجمعين ـ بشرط تحقُّق أسبابها الموجِبة لها من جهة، وانتفاء العوائق المانعة لها من جهة أخرىٰ[2]، إذ أنّ الحكمة من دراسة سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم والاعتبار بها، لا تتحقق إذا لم تكن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في معاملة الأمم ثابتة لا محاباة فيها لأمةٍ، ولا ظلم فيها لأخرىٰ، ولو كان الأمر غير ذلك، لأصبح ذكر القرآن الكريم لسُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم أقرب ما يكون إلى القصص والحكايات التي لا يُرجىٰ منها إلا المتعة، وحاش لله ـ تعالىٰ ـ أن يكون قَصصه الحق عن الأمم كذلك، وهو ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي أخبرنا بأنه ما ذكر هذا القَصص بالحق في كتابه الكريم إلا من أجل العبرة والاعتبار، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، والاعتبار لا يتحقق إلا إذا وَقَر في عقول ونفوس أبناء جميع الأمم

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٣٤٤ـ٣٤٥، ٣٣٦، ١٠/ ٥٤٠).
(٢) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٣٩، ٢٩٩، ١٢/ ٢٤٣).
(٣) سورة يوسف: ١١١.

الحاضرة بأن ما فعله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالأمم الغابرة كان جزاءً وِفاقاً لأعمالٍ قاموا بها، وصفاتٍ تحلَّوا بها، وسيرةٍ ساروا بها في حياتهم ومجتمعاتهم، سيفعله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتماً، ودون تأخير في كل أمةٍ يقترف أبناؤها نفس الأعمال، ويتصفون بنفس الصفات، ويسيرون على الطريق نفسه الذي أدَّى بالأمم السابقة إلى استحقاق ما فعله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهم.

والعلم الذي كان رشيد رضا يدعو المسلمين إلى دراسته، والاهتمام به باعتباره العلم المختص ببيان سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأمم والمجتمعات، هو علم الاجتماع المستمد بدوره من علوم التاريخ والأخلاق والسياسة والسير في الأرض(١)، وقد عرَّف رشيد رضا هذا العلم، وبيَّن فائدته بقوله: «وهو العلم بسُنَنِ الله ـ تعالىٰ ـ في قوة الأمم والشعوب وضعفِها، وعزِّها وذلها، وغناها وفقرها، وبداوتها وحضارتها وأعمالها، ونحو ذلك، وفائدة هذا العلم في الأمم كفائدة علم النحو والبيان في حفظ اللغة»(٢)؛ أي: هو العلم الذي يبحث في نشأة الأمم والمجتمعات وأطوارها وعوامل نهوضها وسقوطها(٣).

ولم يكن رشيد رضا يكف عن التنويه بأهمية هذا العلم، وتوجيه اللوم

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٢٣، ٤/ ٤٢، ٨/ ٢٩٠).
(٢) «تفسير المنار» (٨/ ١١١).
(٣) لا شك أن البحث في مثل هذه الأمور: نشأة الأمم وأطوارها، وعوامل نهوضها وسقوطها، يدخل في نطاق فلسفة التاريخ والحضارة أكثر من دخوله في مجال علم الاجتماع، ولكننا نلتمس لرشيد رضا العذر في هذا؛ لأن علوم فلسفة التاريخ والحضارة بمناهجها العلمية لم تكن شائعة في البلاد العربية والإسلامية في عصره، باستثناء مقدمة ابن خلدون التي كان يصنِّفها رشيد رضا في علم الاجتماع، وليس في فلسفة التاريخ، هذا بالإضافة إلى أنّ رشيد رضا لم يكن يتيسر له الاطِّلاع على المؤلفات المكتوبة في هذه العلوم باللغات الأوربية؛ لعدم امتلاكه لغة منها.

للمسلمين بسبب تقصيرهم فيه، سواءٌ في تفسيره[1]، أم في مجلته «المنار» التي كانت تطوف أعدادها وصفحاتها العالم الإسلامي آنذاك من أقصاه إلى أقصاه، ومن ذلك ما قاله في مجلته:

«لا جَرَم أن العلم بعوارض الأمم من السعادة والشقاء هو العلم بالإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم، وهذا من أشرف العلوم، وأهم مباحثه ما يشرح أسباب أمراض الأمم وهلاكها، وقد نبَّه عليه القرآن الحكيم بمثل قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[2]، هذا العلم هو الذي ينير البصائر، ويصلح السرائر، ولكن المسلمين تجاوزوا بأنظارهم آيات الكتاب الكثيرة التي أرشدتهم إليه، والآيات الكونية في الآفاق وفي أنفسهم، وحسب جمهورهم أنه لا يمكن الكلام على مستقبل الأمم إلا بالاطّلاع على الغيب، وحملوا كل ما ورد في السنة على ذلك»[3].

وقد دعا رشيد رضا إلى الاهتمام بهذا العلم، والتأليف فيه، والاستعانة بما كتبه الغربيون في مضماره، وكأنه هنا كان يدعو إلى ترجمة الفكر والنظريات الاجتماعية الغربية إلى اللغة العربية؛ ليسهل الاطّلاع عليها، والاستفادة منها، مع حرصه الدائم على تذكير المسلمين بأن أصول هذا العلم وقواعده ومعاييره الكبرىٰ ورد ذكرها في القرآن الكريم.

يقول رشيد رضا: «علم الاجتماع، وهو العلم الذي يُبحث فيه عن أحوال

---

(١) انظر على سبيل المثال: «تفسير المنار» (١/ ٦٧، ٢/ ٤٩٣، ٣/ ٢٧٥، ٤/ ١٤٤، ١١/ ٣١٧).

(٢) سورة آل عمران: ١٣٧.

(٣) «ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا»، رشيد رضا في «مجلة المنار» ١(٣٢ـ١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م)، (٦٠٩ـ٦١٠).

الأمم في بداوتها وحضارتها، وأسباب ضعفها وقوتها، وتدلّيها ورقيها، وقد ذكرته للترغيب فيه، وحث أهل الاستعداد منا على التصنيف فيه، والاستعانة بما صنفه الغربيون على ذلك، وقد جاء في القرآن كثير من قواعد هذا العلم، فغفل أكثر المفسرين عنه، ولم يهتد إلى فقه بعضه إلا قليل منهم؛ إذ لم يكن العلم مدوناً في عهدهم فينبههم إلى ذلك»[1].

وقد أشار رشيد رضا إلى أنّ تقاعس المسلمين عن تدوين قواعد هذا العلم والاستفادة منه، كان من أسباب الأفول الحضاري الذي شهده العالم الإسلامي في القرون الأخيرة، كما صرَّح بأنّ من شروط استعادة المسلمين لسيادتهم واستقلالهم ودورهم التاريخي والحضاري، استئنافَ العودة إلى هداية الدين الحنيف، وإقامة ورعاية سُنَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في الأمم والمجتمعات.

«لن يكشف عنهم [أي: المسلمين] انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الأرض، ولئن عادوا إليها بإقامة سُنن القرآن لَيُتِمَّنَّ لهم وعدَهُ بخلافة الأرض إلى آخر الزمان، فبقدر إقامة هذه السُّنن يكون المُلْكُ والسلطان، فمن ذا الذي يقيمها؟»[2].

المبحث الثاني
تعريف الأمّة عند رشيد رضا

لا نجد في تفسير المنار تعريفاً دقيقاً متكاملاً للأمة[3]، ولكننا نجد إشارات

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٤٢).

(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٣١٧).

(٣) من أجل الاطّلاع على تصورات الفكر السياسي المعاصر للأمة بمدارسه المتعددة، انظر: «الموسوعة الفلسفية العربية»، تحرير وإشراف معن زيّادة، بيروت، معهد الإنماء العربي، (١٩٨٦م)، (١/ ١٠٦ـ١٠٩)، حيث أشار كاتب مادة الأمّة، ناصيف=

عديدة يمكن من خلالها تحديد تصور رشيد رضا للأمة، والمقصد والمعنىٰ الذي يقصده من استعمالها.

من هذه الإشارات الكثيرة أكتفي بذكر ما يلي:

«إن هذه الأمة أمة واحدة، وإن اختلفت ديارها، وتعددت أجناسها، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها إلا بعد معرفة تاريخها الماضي؛ فإن الأمة إنما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها، فإذا لم يحفظ خَلَفُها عن سلفها هذه المقومات بحفظ تاريخها، تكون عرضة للتغيير»[1].

«إن الأمة أخص من الجماعة، فهي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم، ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص، فإن معنىٰ الأمة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التي تجعل أفرادها ـ على اختلاف وظائفهم وأعمالهم ـ كأنهم شخص واحد[2]».

«ومن القواعد المسلَّمة أنه لا تقوم لقوم قائمة إلا إذا كانت لهم جامعة تضمهم، ووحدة تجمعهم، وتربط بعضهم ببعض، فيكونون بذلك أمة حية كأنهم جسد واحد، فإذا كانت الجامعة الموحدة للأمة هي مصدر حياتها، سواء أكانت مؤمنة أم كافرة، فلا شك أن المؤمنين أولىٰ بالوحدة من غيرهم؛ لأنهم يعتقدون أن لهم إلهاً واحداً، يرجعون في جميع شؤونهم إلى حكمه الذي يعلو

= نصار، إلى عوامل تكوين الأمم ومقوماتها الرئيسة في الفكر السياسي والاجتماعي المعاصر، وهي: الدين، والدولة، والأرض، والاقتصاد المشترك، والعِرق، واللغة، والثقافة، وإرادة العيش المشترك، والتاريخ والتراث المشترك، والوعي العام بكل هذه المقومات من قبل أغلب أفراد الأمة، وقام بمناقشتها ونقدها واحداً بعد الآخر مُشيراً إلى الواقع والمآل التاريخي الفعلي لكل هذه الأفكار النظرية.

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣١٠ـ٣١١).

(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٦ـ٣٨).

جميع الأهواء، ويحول دون التفرق والخلاف»[1].

«دعا الإسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة، وغيرها من مقومات الأمم، فكانوا يدخلون فيه أفواجاً حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهندي»[2].

على ضوء هذه الإشارات وغيرها يمكننا أن نقول: إن مفهوم الأمة عند رشيد رضا يمكن أن يُصاغ على الشكل التالي:

الأمة: جماعة بشرية كبيرة، قد تكون متعددة الشعوب والأعراق والأوطان والدول، ولكنها تلتقي جميعها، وترتبط بالإيمان، والالتزام بمبدأ أو منهج فكري واحد، الأمر الذي ينتج عنه عبر التاريخ وحدة اللغة، والتاريخ والتراث والثقافة، والمصالح المشتركة، وإرادة العيش المشترك.

وفي الحقيقة فإن هذا التعريف ينطبق تماماً على تصور رشيد رضا للأمة الإسلامية كما يظهر من حديثه عنها في مواضع كثيرة، فالأمة الإسلامية عبارة عن مجموعات بشرية مختلفة الأصول والأعراق والأوطان، اعتنقت الدين الإسلامي فكراً وسلوكاً، الأمر الذي نتج عنه عبر مراحل التاريخ قيام وحدة بين أفراد هذه المجموعة على صعيد اللغة ـ طبعاً مع حق احتفاظ كل مجموعة بشرية بلغتها وعاداتها الخاصة بها ـ والتاريخ والتراث والثقافة والعادات المشتركة، وفي المحصّلة وحدة المبدأ والمصلحة والمصير، فكلمة أمة واحدة لا تعني في نظر رشيد رضا إلغاء التمايزات اللغوية والعرقية بين أبناء هذه الأمة، بشرط أن يبقىٰ معيار الانتساب إليها هو الالتزام بدينها، وما يستتبع ذلك من تراث وثقافة ومصالح مشتركة[3].

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٢٦)، وانظر: (١٠/ ٤٣، ٣/ ٣٦٤، ٥/ ٣٩، ١١/ ٢٥٨).

(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٢٦٠).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١٠/ ٤٣ـ ٤٥، ١١/ ٢٦٠).

وفي مقابل ذلك فإنّ رشيد رضا كان يُظهر انتقاداً كبيراً ورفضاً قاطعاً لكل محاولات التفريق بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة بحجة اختلاف العِرق والوطن واللغة، فهو لا يؤمن بالعِرق، أو الوطن/الأرض، أو اللغة كأساس كافٍ لقيام الأمم، كما كان يُشاع في عصره في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، وكذلك في الدول الأوربية التي كانت في ذلك الوقت ـ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ـ تعيش عصر ازدهار فكرة القوميات التي تدعو إلى قيام الأمم/الدول على أساس اللغة، أو الأرض، أو العرق فقط، مع استبعاد وإقصاء الرابطة الدينية[1].

يقول رشيد رضا: «وقد اجتهد أولئك المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية، كما بثوا فيها دعاة السياسة يرغّبونها في قطع الرابطة الدينية التي تربط بعضها ببعض، واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكان عاقبة ذلك وقوع العداوة والبغضاء بين الترك والفرس، ثم بين الترك وبين الألبان والعرب»[2].

---

(١) انظر: «**حول الوحدة الثقافية العربية**»، ساطع الحصري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (١٩٨٥م)، (١٣ـ١٨) وانظر النقد الذي وجّهه محمد عابد الجابري في كتابه، «**المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية**»، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (١٩٩٦م)، (١٠٠) لكل من يحاول التقليل من دور الدين في قيام الأمم، وبشكل خاص الأمة العربية، التي لا يُعقل وجودها ـ في نظره ـ إلا بوجود رابطة الدين الإسلامي، وأكّد أنّ الإشارة إلى اللغة والتاريخ فقط دون الإشارة إلى الإسلام، يؤدي إلى إفقار مفهوم الأمة، وإفقاده معناه الحقيقي؛ إذ أنّ وحدة اللغة والتاريخ لم تكن في الحقيقة إلا تجلّياً وأثراً من آثار اعتناق الشعوب العربية الإسلام، ولولا الإسلام لم يكن العرب ليطمحوا إلى لغة وتاريخ واحد لهم جميعاً، لذلك فإن إلغاء دور الإسلام المركزي يعني إلغاء فعلياً لكل ما انبنىٰ عليه من لغة وثقافة وتراث وتاريخ مشترك للعرب.

(٢) «**تفسير المنار**» (٨/ ٢٢٧).

ويقول في مكان آخر: «كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم، وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ»[1]، وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النَّسبي أو اللغة»[2].

وفي هذا الصدد يجب أن نشير إلىٰ أن رشيد رضا أكَّد مرات عديدة على أن الأمة لا تكتمل حقيقتها، ولا يمكن اعتبارها أمة بمعنىٰ الكلمة، إلا إذا تشابكت العلاقات بين أفرادها، وامتدت جسور التكافل والتعاضد فيما بينهم، وشعر كل فرد منهم بأنه جزء من مجموع هذه الأمة، يؤثر فيها، ويتأثر بها، وأنّ حياته ومصيره مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بحياة ومصير مجموع أفراد الأمة التي يعيش بين ظهرانيها[3]، وهكذا فإنه لا قوام للأمم على الحقيقة إلا بشعور «كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين، ودمه دمهم، لا فرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه، والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة، والمصالح العامة»[4].

وهنا يجب أن نشير إلى أنه على الرغم من تصور رشيد رضا للأمة الإسلامية على أنها ارتباط مجموعة شعوب مختلفة بأجناسها ولغاتها وأوطانها برباط العقيدة والدين، إلا أننا نلاحظ أنه في أثناء استخدامه لمفهوم الأمة في نصوصه

---

(١) رواه البخاري، «**الجامع الصحيح**»، كتاب الأدب (٨١)، باب: رحمة الناس والبهائم (٢٧)، رقم (٥٦٦٥، ٥/ ٢٢٣٨). ورواه مسلم، «**الجامع الصحيح**»، كتاب: البر والصلة والآداب (٤٥)، باب: تراحُم المؤمنين وتعاطُفهم.

(٢) «**تفسير المنار**» (١١/ ٢٥٨).

(٣) انظر: «**تفسير المنار**» (١/ ٣٢٢، ٣/ ٣٦٤، ٥/ ٣٩، ٦/ ٣٤٩، ١٠/ ١٣٥).

(٤) «**تفسير المنار**» (١/ ٣٧٢).

الكثيرة، يطلق أحياناً لفظ الأمم على شعوبٍ ودول وممالك بعينها، وكان يحلل عوامل قيام وسقوط هذه الدول والشعوب على أنها عوامل قيام وسقوط الأمم بشكل عام، هذا التوجه من رشيد رضا يؤكد أنه كان يدرك الواقع التاريخي والاجتماعي الذي آلت إليه الأمة الإسلامية في عصره، وخصوصاً بعد إلغاء الخلافة الإسلامية في الآستانة عام ألف وتسع مئة وأربعة وعشرين ميلادية، ولكن هذا الأمر لا يعني إطلاقاً وجود ازدواجية في تفكيره، بل يعني أنه كان ـ على الرغم من تصوره الدقيق لمعنى الأمم، والأمة الإسلامية بشكل خاص ـ مدركاً لواقع عصره، ويتعامل معه على ضوء وقائعه التاريخية الراهنة، دون أن يعني هذا استسلاماً منه لهذه الوقائع، واعترافاً مطلقاً بها، ودون التنازل في الوقت نفسه عن حلمه المشروع بقيام الأمة الإسلامية الواحدة التي تجمع في داخلها كل الشعوب والدول الإسلامية في وحدة واحدة تحقق العدل والمصلحة العامة للجميع، ودون افتئات في الوقت نفسه على الجماعات التي لا تعتنق الإسلام ديناً لها، وهي تعيش في ظل الأمة، وذلك بالحفاظ على حقوقها الدينية والمدنية والثقافية كما أمر الإسلام بذلك[1].

ـ معنى الأمَّة في القرآن الكريم:

وأخيراً لا يفوتنا في نهاية هذا المبحث أنْ نشير إلى أن المعنىٰ الذي تصوره رشيد رضا للأمة، يتطابق في مضمونه ـ وهو الجماعة من البشر التي تتفق على منهج واحد ـ مع المعنىٰ الذي أعطاه القرآن الكريم لكلمة «الأمة» الواردة فيه مرات عديدة، مع العلم أنَّ النص القرآني لا يقدّم أي تعريف محدد لمعنىٰ هذه الكلمة، وكل محاولة لتحديد هذا المعنىٰ إنما تأتي من خلال دراسة المعنىٰ العام الذي يوحي به السياق الذي وردت فيه هذه الكلمة، وهكذا فإننا نجد أنَّ

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٢٥٧).

كلمة الأمة لا تحمل معنًى واحداً حيثما وردت في القرآن الكريم، وذلك بسبب تعدد السياقات، وبالتالي اختلاف المعاني الناتجة عنها.

والآن إذا عدنا إلى سياقات ورود كلمة أمّة في القرآن الكريم، فإنه يمكننا على الأغلب تمييز معنيين أساسيين[1] تمَّ استخدام هذه الكلمة من أجل الدلالة عليهما، وهما: معنى المنهج المتَّبع، والجماعة من الناس، أما المنهج المتَّبع ـ بغض النظر عن مضمونه ـ، فيدل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[2]، وأما المنهج الإلهي الواحد المحدَّد الذي ارتضاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لجميع البشر المتمثل بالعقيدة وأصول الشريعة المشتركة في كل الرسالات السماوية، فيدل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[3].

أما الآيات الكريمة التي تحمل معنى الأمة بمعنى الجماعة من الناس، فمنها قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[4]، ﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ ﴾[5]، ﴿ وَمِن

(١) من المعاني الثانوية للأمة في القرآن الكريم، معنىٰ الأجل، والسنين، كما في قوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ هود: ٨، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يوسف: ٤٥. وكذلك معنىٰ الإمام المتبع كما في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠.

(٢) سورة الزخرف: ٢٢.

(٣) سورة المؤمنون: ٥١ـ٥٢، وانظر أيضاً: سورة الأنبياء: ٩٢ـ ٩٤.

(٤) سورة القصص: ٢٣.

(٥) سورة الأعراف: ٣٨.

قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[1]، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[2].

وبناءً على ما سَبق، فإنه يمكننا اعتبار الجماعة من الناس المتفقة على منهج واحد (أي دين واحد) ـ وهو الناتج الطبيعي لتركيب المعنيين السابقين للأمة ـ هو المعنىٰ الرئيسي لكلمة أمة في القرآن الكريم، وأما بقية المعاني، فهي معانٍ جزئية تدور، وتستمد دلالتها الخاصة من هذا المعنىٰ الرئيسي حسب السياق الذي وردت فيه، ويدعم هذا الاستنتاج وجود آيات قرآنية كريمة تشير بوضوح إليه، من مثل قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[4].

وهكذا يمكننا أن نقول: إن التصور القرآني للأمة يقوم على ركنين كبيرين، هما: الجماعة الكبيرة من الناس، والمنهج والطريقة الواحدة المتَّبعة من قِبَل هذه الجماعة، وفي هذه الحالة يمكن تحديد الأمة وهويتها من خلال الطريقة والمنهج الذي تتبعه جماعتها.

وبناءً عليه، فإن الجماعة من البشر الذين ينضوون تحت لواء الإسلام، ويتمسكون بمنهجه، ويلتزمون بشعائره وأحكامه يُشكّلُون أمة واحدة، بغض النظر عن الاختلافات التي يتميز بها بعضهم عن بعض من عِرقٍ أو لغةٍ أو

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٤.

(٣) سورة الحج: ٣٤.

(٤) سورة آل عمران: ١١٠.

وطنٍ[1]، وهذا هو بالضبط المعنىٰ الذي كان يقصده رشيد رضا عندما كان يتعرض لذكر الأمة الإسلامية في تفسيره، وبهذا يظهر أمامنا جلياً التطابق الواضح بين التصور الذي قدمه رشيد رضا للأمة، وبين التصور القرآني لها.

المبحث الثالث

عوامل وسُنن الله تعالىٰ في قيام الأمم ونهوضها

إنّ القاعدة التي انطلق منها رشيد رضا في معالجته لمسائل الأمم وعوامل بقائها ونهوضها، وعوامل سقوطها وهلاكها، هي حرصه الواضح على التأكيد بأن حياة الأمم وموتها مسألة لا تخضع البتة للرغبات والأماني والأوهام، ولا حتىٰ لإرادات الملوك والحكّام، والظروف الخارجية أياً كانت.

ومن الأوهام والاعتقادات الباطلة التي كانت وما زالت شائعة بين الناس، والتي حرص رشيد رضا على تفنيدها ومقاومتها: أَنَّ بقاء الأمم وقوتها منوط بأحوالها الاقتصادية، وقوة جيوشها فقط، وأنَّ الله ـ تعالىٰ ـ قد يحابي بعض الأمم، ويضمن كل أسباب البقاء والمنعة والنهوض لها بسبب نبيٍّ أو وليٍّ صالح يدَّعي أبناء هذه الأمم الانتساب إليهما، وأن الأمم رهن إرادة الملوك وميول الحكام وتصرفهم.

وفي الحقيقة فإنَّ رشيد رضا يرد كل هذه الأوهام والادعاءات، ويعيد عوامل نهوض الأمم وتخلُّفها إلى أمر الأمة نفسها، ونظامها الديني والفكري والأخلاقي والاجتماعي الذي اختارته، وتسير عليه في تصريف شؤون حياتها،

---

(١) انظر: **«مفردات ألفاظ القرآن»**، الراغب الأصفهاني، (٨٦ـ٨٧)، وانظر: **«تفسير المنار»** (٢/ ٢٧٦)، وانظر أيضاً، **«مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ: دراسة في مدلول الأمة في التراث الإسلامي»**، ناصيف نصار، ط٣، بيروت، دار الطليعة، (١٩٨٣م)، (١٣ـ٢٣).

مؤكّداً أنَّ عوارض بقاء الأمم أو هلاكها تابعة لدين هذه الأمم وأفكارها وتصوراتها وأخلاقها وأعمالها، وليست تابعة لأي عامل خارجي آخر ابتداءً، بمعنىٰ أن العوامل الخارجية مثل الحكام، والتدخل الأجنبي، لا يمكن أن يكون لها دور حاسم في تقرير مصير الأمم إلا إذا مهّدت لها العوامل الذاتية الناشبة في جسمها من الداخل[1].

وقد اعتمد رشيد رضا في تقريره لهذه الحقيقة العلمية القاضية بأن أمر الأمة ومصيرها يتحدَّد بناءً على اعتبارات داخلية فيها أولاً وقبل أي شيء آخر، على قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾[3].

يقول رشيد رضا في تعليقه على هذه الآية الأخيرة: «فحالة الأمم في صفات أنفسها، وهي عقائدها ومعارفها وأخلاقها وعاداتها، هي الأصل في تغيُّر ما بها من سيادة أو عبودية، وثروة أو فقر، وقوة أوضعف، وهي هي التي تمكّن الظالم من إهلاكها»[4].

ويقول في مكان آخر: «كون تغيُّر أحوال الأمم، وتنقلها في الأطوار من نِعَم ونِقَم أثراً طبيعياً فطرياً لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والملكات التي تطبعها في الأنفس العادات، وتترتب عليها الأعمال، والنص القطعي فيها قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾»[5].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٤٧٨ـ٤٧٩، ٩/ ٥٧٧ـ٥٨٠، ١٠/ ٣٦ـ٣٧).
(٢) سورة الأنفال: ٥٣.
(٣) سورة الرعد: ١١.
(٤) «تفسير المنار» (٢/ ٤٨٠).
(٥) «تفسير المنار» (١٠/ ١٣٨).

إذاً فإن دين الأمة وأفكارها وأخلاقها وأعمالها هي التي تحدِّد مصيرها، وتحدِّد موقعها وحالتها الحضارية، وهي التي تسمح للأوهام والخرافات أو الظَّلَمَة والطغاة من الحكام بالاستبداد فيها، والتحكُّم بمصيرها، أو لا تسمح، وهكذا فإنَّ الإرشاد القرآني في مسألة بقاء الأمم وسقوطها مُتَّجِهٌ بأكمله إلى صفات الأمم الداخلية؛ أي: إلى دينها وعقلها وروحها وأخلاقها، معتبراً إياها المحدِّد الرئيسي لعملية نهوض الأمم أو سقوطها.

وبكلمة أخرىٰ فإنه يمكننا القول: إنَّ الشرط العقلي والنفسي هو الشرط الوجودي للأمم بقاءً ونهوضاً وسقوطاً، وفق الرؤية القرآنية التي أخذ بها رشيد رضا بشكل كامل(١).

بالإضافة إلى القاعدة السابقة التي قرَّرها رشيد رضا، فإنه يرىٰ أنَّ الأمم تخضع لِمَا يخضع إليه الأفراد من عوارض الحياة والبقاء والسعادة، وعوارض الشقاء والصراع والتدافع والموت، والهلاك، فهي ليست تجمعات بشرية جامدة لا حراك فيها، وإنما هي بمثابة الكائنات الحية الاعتبارية التي يمكن أنْ تتعرَّض لكل ما يمكن أن تتعرَّض له الكائنات الحية الطبيعية (أي: الأفراد)، لذلك فقد لاحظنا إصراره على تشبيه الأمة بالجسد الواحد، وهذا يعني ـ فيما يعني ـ أنَّ الأمة يمكن أن تتعرض لكل ما يتعرض له الجسد الحي، لذلك يجب الوقوف بدقة على السُّنن والعوامل التي تضمن لهذا الجسد/ الأمة كلَّ أسباب البقاء والنماء، وكذلك يجب معرفة كل العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى شيخوخة هذا الجسد ومرضه وهلاكه.

وهنا يجب أن نسارع، ونشير إلى أن رشيد رضا قد ربط بقاء الأمم أو هلاكها بمدىٰ ارتباط هذه الأمم بالسنن والقوانين التي أجرىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٣٨٤، ٨/ ١٠، ١١٩).

بموجبها نظام الأمم في حياتها وموتها، فنصيب الأمة من البقاء والنهوض يكون بمقدار نصيبها من الأخذ بسنن الله ـ تعالىٰ ـ في بقاء الأمم وسعادتها، وبالمقابل فإنَّ الشقاء والهلاك سيكونان مصير كل أمة تتمرد على هذه السُّنَن والقوانين، وتعمل بقصدٍ أو بدون قصدٍ ـ على السواء ـ بالسُّنن والقوانين التي تقود أصحابها من الأمم إلى هاوية الهلاك والسقوط الحضاري[1]؛ لأن جهل الناس بالسُّنَن لا يغيِّر من طبيعة هذه السُّنَن، ولا يُوقف مفعولها وأثرها.

والآن إذا عدنا إلى نصوص رشيد رضا المتعلقة بقيام الأمم ونهوضها، وقمنا باستقصاءٍ واستقراءٍ لها، فإننا نستطيع أن نقرر أن العناصر والعوامل التي تشكّل مُحدِّدات النهوض الحضاري للأمم، وتساهم في قيامها وبقائها في نظره، هي: الدين والأخلاق والقِيَم، والتربية والعلم والصناعة، والقوة العسكرية، والثروة وإنفاق المال في المصالح العامة، وفيما يلي سنتعرّض بشيء من التفصيل لهذه العناصر:

ـ الدين والأخلاق والقيم:

لاحظنا ـ من خلال المبحث السابق ـ أنَّ رشيد رضا يرىٰ أنَّه إذا اعتنقت مجموعات بشرية ما ـ حتى ولو كانت متباينة على مستوىٰ الأعراق والأوطان واللغات ـ نظاماً واحداً من التصورات الدينية الكبرىٰ، فإنَّ الاعتناق هو الذي يسمح بتوحيد أبناء هذه المجموعات البشرية على مستوىٰ الدين أولاً، ومن ثَمَّ بما يتولَّد عن هذا الدين المشترك من لغةٍ وأخلاقٍ وثقافةٍ وقِيَمٍ مشتركة نابعةٍ من هذا الدين نفسه، وهذه الأمور المشتركة تؤدي بطبيعة الحال إلى أعمال وأنظمة اجتماعية موحَّدة تؤدي بدورها إلى زيادة دمج وتماسك أبناء هذه المجموعات

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٣٢٧، ٢/ ٤٧٦، ٤٧٩، ٤/ ٦٣، ٣/ ٣٧٥، ٨/ ٢٥٠). وانظر أيضاً: «تفكير محمد رشيد رضا»، محمد صالح المراكشي (٣٢).

البشرية، وإلى تحويلهم إلى أمَّة واحدة ذات هوية وملامح حضارية خاصة بهم تميّزهم عن بقية الأمم[(١)].

وهكذا فَإِنَّ الدين بما يشكّله من طاقة روحية وفكرية، وما ينتج عنه من توحيد لأفراد الأمة وجماعاتها على مستوىٰ الأخلاق والقِيَم والأعمال المجتمعة، هو نقطة الارتكاز لقيام الأمم، وبقدر ما يكون التمسك به وبقيمه وأخلاقه سليماً وكاملاً، تكون الأمة قوية موحَّدة، عزيزة الجانب، متقدِّمة في جميع جوانب الحياة؛ لأنَّ «الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المادي»[(٢)].

يقول رشيد رضا مُقرِّراً حقيقة العلاقة الطّردية بين الدين والأخلاق، وبين قيام الأمم وسقوطها: «إن للعقائد الدينية الصحيحة والخرافية آثاراً في وحدة الأمة وتكافلها وقوة سلطانها وضعفه، ولا يظهر الفرق بينهما في الوجود إلا بوقوع التنازع بين أمتين مختلفتين فيها، وإن للأخلاق الشخصية التي يتحقق بكثرة بعضها ما يسمىٰ خلقاً للأمة أو للشعب مثل ذلك في حكمها وسلطانها، وفي ثروتها وعزَّتها أيضاً، ويظهر ذلك في سيرة كل أمة ودولة ذات تاريخ معروف»[(٣)].

وقد أكَّد رشيد رضا دور الدين الحاسم في إصلاح الأمم أفراداً وجماعات، وهدايتها وإرشادها إلى تحصيل مصالحها الاجتماعية، ومنافع أفرادها الشخصية؛ إذ لا يمكن في نظره حمل الأمم على تحصيل المنافع، واجتناب المضار الفردية والعامة بمجرد استخدام أسلوب الإقناع القائم على التدليل على نفع النافع وضرر الضار، وبخاصة في الأمور الأخلاقية؛ لأن ذلك الاقتناع إذا

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٧٠، ٤/ ٤٢٩، ١٠/ ٤٣).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٤٢٩).
(٣) «تفسير المنار» (١٠/ ٣٨).

حصل لا يوجب العمل ولا الترك، ولأنه قد يعارضه، ويقف في وجهه هوى النفس ولذتها، فيرجّح كثير من الناس الهوى والرغبة على المنفعة والخلق الرشيد إذا تعارضا[1].

لذلك فقد خلص رشيد رضا إلى تقرير الحقيقة العلمية التالية: «إذا ثبت بالعقل والبرهان والاختبار والعيان أن إقناع أمة من الأمم بالنفع والضر متعذّر، وأن حملها على ترك الضار، وعمل النافع للأفراد والجمهور لأنه نافع غير كاف في هدايتها، ثبت أنَّ إصلاح شأنها بالفضيلة والآداب وترك المضار والاجتهاد في سبيل المنافع يتوقف على مؤثّر آخر يكون له السلطان الأعلىٰ على النفس، وهو الدين»[2].

هذا عن الدين ودوره في قيام الأمم بشكل عام، أما فيما يخص الأمة الإسلامية بالذات، فقد أشار رشيد رضا إلى أنَّ علاقة المسلمين بدينهم علاقة وجود؛ فهو الذي حوَّلهم من مجموعات وجماعات بشرية مختلفة، بل متنافسة ومتصارعة فيما بينها، إلى أمة واحدة متكافلة متآلفة، والتاريخ يؤكّد أنه كلما تمسك المسلمون بدينهم، استطاعوا أن يوحِّدوا أنفسهم، ويضمنوا لأنفسهم السيادة والازدهار، وكلما تهاونوا وتقاعسوا عن الاعتصام بهذا الدين، انحدروا سريعاً إلى الهاوية، وتمزقوا أشتاتاً وجماعات متفرقة متناحرة[3]، وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٦/ ٢٦٥، ٨/ ٥٢٩).
(٢) «تفسير المنار» (٦/ ٢٦٦).
(٣) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢٢٧).
(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

والمقصود بالدين ـ باعتباره العامل الأول لقيام الأمة الإسلامية حسب رشيد رضا ـ هو العقيدة الإسلامية الصحيحة المستندة إلى الكتاب والسُّنَّة التي يزرعها هذا الدين في نفوس أتباعه، الأمر الذي يؤدي إلى خلق ذهنية عامة تسود الأمة على مستوىٰ تصور العلاقة بين الإنسان وخالقه العظيم، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، بالإضافة ـ طبعاً ـ إلى خَلْق تصور عام للإنسان عن نفسه، وعن خَلْقه، والغاية من هذا الخَلْق، وعن مصيره بعد موته، ولا يقتصر عمل هذه العقيدة على خلق هذه الشبكة الضرورية من التصورات حتى نحكم بوجودها وفعاليتها، بل يجب حتى نفعل ذلك أنْ نرىٰ أثر هذه العقيدة في حياة أفراد الأمة وجماعاتها التزاماً وعبادة وتَخلُّقاً وسلوكاً اجتماعياً وحضارياً، وبكلمة أخرىٰ، حتى نرى النشاط الفردي والجماعي في هذه الأمة يسير وفق مبادىء هذه العقيدة، ويتقرر معيار الخطأ والصواب في هذا النشاط وفق أحكام الشريعة التي تشكّل الجانب التنظيمي والتكليفي من جوانب الدين الإسلامي.

وهكذا فإنَّ من مقتضيات الالتزام الديني في الأمة الإسلامية حتى نحكم لها بالنهوض الحضاري: أن تسير في مؤسساتها العلمية والقضائية والإدارية والاجتماعية والسياسية، وعموم مؤسساتها المجتمعية وفق نصوص الشريعة وروحها ومقاصدها بشكل يضمن مصالح الأمة وحقوقها، فإذا قامت الأمة بأعباء هذا الالتزام، فسيكون الدين والشرع عند ذلك ـ كما يقول رشيد رضا ـ سبباً اجتماعياً طبيعياً لسعة بركات السماء والأرض وخيراتهما على الأمة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]»[2]. وبهذا الالتزام أيضاً تحمي الأمة نفسها من الوقوع في دائرة

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) «تفسير المنار» (٩/ ٥٧٧).

التبعية الحضارية والسياسية للأمم القوية الأخرىٰ الطامعة فيها[1].

وهكذا نستطيع القول: إن العامل الأول لقيام الأمم هو الدين، وما يرتبط به من أخلاق وقِيَم، وإن مدى قوة الأمم يمكن أن يتحدد بمدىٰ قدرة أبنائها على تنزيل قِيَم وأخلاق هذا الدين من سماء النظر والاقتناع إلى أرض الواقع والاتّباع، ولعل أهم القِيَم والأخلاق المتعلقة بنهوض الأمم هي ـ بلا شك ـ القيم المجتمعية التي تمارس عملها على مستوىٰ الأمة بأكملها، ويظهر أثرها الواضح في دمج أبناء الأمة في وحدة شعورية وفكرية واجتماعية تحقق مصالح وحاجات مجموع هذه الأمة، ويقف علىٰ رأس هذه القيم والأخلاق ـ كما أشار إلى ذلك رشيد رضا ـ العدل والحرية والمساواة والأمانة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

ـ العلم والصناعة والقوة العسكرية والتربية:

رأى رشيد رضا أنَّ اشتغال الأمة بالعلم، وما يؤدي إليه هذا الاشتغال من تقدُّم علمي وصناعي ـ في جميع المناحي المدنية والعسكرية ـ من أعظم الأسباب التي تحقق نهضة الأمم، فالتقدّم العلمي يزيد من قدرة الأمم على استثمار وتسخير مواردها الطبيعية والبشرية لمصالحها، وبالتالي يزيد من قوتها الاقتصادية، ويضمن لها أسباب القوة العسكرية التي تحول بينها وبين الوقوع تحت سيطرة المعتدين والطامعين، ويحصِّن إرادتها السياسية وسيادتها واستقلالها.

وفيما يخص الأمة الإسلامية، فقد نبَّه رشيد رضا المسلمين إلى أن

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٩/ ٨٠ـ٨١، ٨٥، ١٢/ ٢٤٣، ٨/ ٢٢٧).
(٢) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ١٧٤، ١٧٧ـ ١٧٩، ٢١٥ـ ٢١٦، ٢٥٢/٣، ٢٥٦، ٤/ ١٦٣ـ١٦٤).

تقصيرهم وترك اشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعات في عصورهم الأخيرة هو ـ مع أسباب أخرىٰ بالطبع ـ الذي أدىٰ إلى زوال دولهم، وانحطاط أمتهم، وجعل العديد من شعوبهم خاضعاً لسيطرة دول الغرب المتقدّمة على الصعيد العلمي[1].

وقد أشار رشيد رضا إلى أن تقصير المسلمين، وتخلُّفهم في ميدان العلوم والصناعات المدنية والعسكرية على السواء ـ فضلاً عن آثاره الوخيمة على المستوىٰ الحضاري والسياسي ـ يحمِّلهم مسؤولية دينية أمام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وذلك بناءً على القاعدة التي تقول: إن «كل ما أمرنا به الله ـ تعالىٰ ـ، وهدانا إليه، فهو من ديننا، ولذلك قال علماؤنا: إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معايشهم من الفروض الدينية، إذا أهملت الأمة شيئاً منها، فلم يقم به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه، كانت كلها عاصية لله، مخالفة لدينه»[2].

ولكن ـ وعلى الرغم من إلحاح رشيد رضا على دور العلم والصناعة والقوة العسكرية في نهوض الأمم وترقيتها ـ فقد أكَّد أنّه لا يُحكَم على أمةٍ من خلال تقدّمها العلمي أو قوتها الاقتصادية والعسكرية، بل بصلاح أو فساد أبنائها العقائدي والأخلاقي؛ لأن هذا التقدّم وهذه القوة نفسهما ثمرة من ثمرات العمل والوعي الإنساني.

يقول رشيد رضا: «إذا صلحت النفس البشرية، أصلحت كل شيء تأخذ به، وتتولىٰ أمره، فالإنسان سيد هذه الأرض، وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده، وليست الثروة ولا وسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار للصلاح البشري، ولا المُلك ووسائله من القوة السياسية، فإن البشر قد أوجدوا

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٢٨٥، ٢/ ٣٤٠، ١١/ ١٠٣).
(٢) «تفسير المنار» (٢/ ٢٣٩).

كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن، فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الإنساني، تابعة له، دون العكس»[1]، فإصلاح النفس بإصلاح عقيدتها وفكرها وأخلاقها مقدَّم عند رشيد رضا على الإصلاح العلمي والاقتصادي والسياسي، ولكن يجب ألاّ نفهم من كلام رشيد رضا السابق أيّ تهاون في الدعوة إلى العلم والأخذ بأسباب الصناعة والقوة العسكرية كوسائل لنهضة الأمم، فهو ـ كما رأينا ـ يعد هذه الأمور من الفروض الدينية الكفائية، وكل ما في الأمر أنه يريد الإشارة إلى أنه لا تُرجىٰ أيّ فائدة من تحصيل العلوم والصناعات إذا لم يسبق ذلك إصلاحٌ للنفوس وتربية لها، وإلا فستتحول الفائدة من هذه العلوم والصناعات إلىٰ أصحابها الذين يُباشرون دون أن تحقق مصلحة عموم الأمة وجميع أبنائها، وفي هذا خراب وتمزيق للأمة بأكملها.

وهكذا فإنَّ العلم والصناعة ـ دون تربية سليمة ـ يصبحان من عوامل فساد الأمة وهلاكها بدل أن يكونا ـ كما هو مأمول ـ من عوامل نهوضها وتقدُّمها، يقول رشيد رضا: «قد شاهدنا ولا نزال نشاهد في بلادنا أن طلب العلوم والفنون مع إهمال التربية المُصلحة للنفس لم تَحُل دون استعباد الأجانب لنا، ترى الرجل المتعلّم المتفنن يتولىٰ ولاية أو وزارة، فيكون أول همه منها تأسيس ثروة واسعة لنفسه وولده، وهكذا تفعل كل طبقة من طبقات رجال الدولة، ويستنزفون ثروة الأمة بالرّشا والحِيَل»[2].

ويقول في موضع آخر: «إنّ العلم الصحيح في الرجل أو الشعب الفاسد الأخلاق كالسيف في يد المجنون، ربما جنىٰ به على صديقه، أو على نفسه، وربما نصر به عدوه»[3]، وهكذا نجد أن العلم دون تربية تسبقه، وتقترن به

(١) «تفسير المنار» (١/ ٦).

(٢) «تفسير المنار» (١/ ٦).

(٣) «تفسير المنار» (٩/ ١٠٨).

وتقومه وتوجهه، وتحدِّد له وظيفته والغاية منه، يصبح خطراً على من يمتلكه من الأفراد والأمم.

وقد استند رشيد رضا في دعوته إلى وجوب اقتران العلم والتعليم بالتربية حتىٰ يؤدي العلم دوره في ترقية الأمم إلى قول الله تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[١]، فقد نقل عن شيخه محمد عبده في تفسيره لهذه الآية الكريمة ما نصّه: «عَلِمَ إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم وإسعادها، بل لا بد أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل، والحَمْل على الأعمال الصالحة»[٢].

وهكذا فإنَّ رشيد رضا يعتقد أن الإصلاح التربوي ـ أو التزكية حسب التعبير القرآني ـ ركن من أركان نهضة الأمم، وشرط من شروط الاستفادة الحقّة من التطور العلمي والصناعي فيها، وهذا الإصلاح يبدأ في ـ تصوره ـ من إصلاح الفرد، ثم يتدرج إلى إصلاح الأسرة باعتبارها الوحدة الأساسية للمجتمع، وهكذا حتىٰ يصل الأمر إلى إصلاح المجتمع بأكمله، فعملية الإصلاح التربوي هي عملية تراكمية تصاعدية شاملة[٣].

والتربية ـ في نظر رشيد رضا ـ تعني تطهير النفس البشرية من الأخلاق الذميمة، ونزع العادات الرديئة، وحَمْلها على الأعمال الحسنة التي تطبع في الناس مَلَكات الخير عن طريق حُسن الأسوة والعلم والتعليم النافع[٤]؛ فالتربية

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

(٢) «تفسير المنار» (١/ ٤٧٣).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٣٦٧ـ٣٦٨).

(٤) انظر: «تفسير المنار»(١/ ٤٧٣)، وانظر: «تفكير محمد رشيد رضا من خلال المنار» محمد صالح المراكشي، (٤٠١ـ٤٠٢).

عملية تهدف إلى تعديل سلوك الإنسان، وتشريبه الأخلاق والقيم الفاضلة، وتسريبها إلى سلوكه من خلال الممارسة والاقتداء، واكتساب العلوم المفيدة.

وقد أشار رشيد رضا إلى أنه من أهداف التربية الرئيسة، إشعار الفرد بأنه جزء من مجموع الأمة، وبالتالي فإنَّ مصلحته ومنفعته الخاصة متصلة اتصالاً وثيقاً بمصلحة مجموع أمته، ولذلك عليه ألاّ يدَّخر جهداً في سبيل تسخير علمه وماله وقوته في سبيل تحقيق الحفاظ على مصالح أمته العامة، وعليه ألاّ يقْصِر همه ودوره على تحصيل مصالحه الشخصية فقط؛ لأن في هذا إضراراً بأمته ومصالحها، ولا بد لهذا الضرر العام من أن تنعكس آثاره السلبية عليه كفرد من أفراد هذه الأمة[١].

وتربية الأفراد ـ في نظر رشيد رضا ـ يجب أن ترتكز على محورين رئيسين لا غِنىٰ عنهما من أجل تحويل الأفراد من طاقات معطلة إلى طاقات وإمكانات فاعلة ومُنتجة، وهما: استقلال العقل والفهم في العلم والدراسة والتعليم، واستقلال الإرادة في تنفيذ الأعمال واتخاذ القرارات بشأنها.

وبكلمة أخرىٰ: لا بدَّ من التربية الاستقلالية؛ أي: تربية الأفراد على الاستقلال في تفكيرهم، وما يباشرونه من أعمال ومسؤوليات، وذلك لأن التربية الاستبدادية؛ أي: التربية التي تجعل الأب في المنزل، والمعلم في المدرسة، والمسؤول في عمله، هو مركز السلطة والقرار والمرجع الأول والأخير في عملية اكتساب المعرفة واتخاذ القرارات، لا يمكن أن تُخرج أمة عزيزة عادلة، مستقلة في أعمالها، وفي سياستها وأحكامها؛ فاستقلال الفكر والإرادة والتدريب عليهما، هو أحد الضمانات الموضوعية ـ في نظر رشيد رضا ـ لبناء أمة يتحمَّل أبناؤها مسؤوليتها على جميع الصُّعُد والجبهات،

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٥٣ـ٢٥٤، ٣/ ٥٩).

ويبادرون إلى حل مشاكلها وأزماتها دون خوف أو تردد؛ ذلك لأن الاستقلال الفكري والعملي يمهِّد للاجتهاد والإبداع، وهما شرطان ضروريان لإحداث نهضة حضارية حقيقية لأي أمة من الأمم[١].

ـ المال وإنفاقه في المصالح العامة:

لاحظنا في الفقرة السابقة مدىٰ الدور المحوري الذي يوليه رشيد رضا للدين، وما ينبني عليه من أخلاق وقِيَم وتربية في قيام ونهوض الأمم، ولكن هذا الاهتمام الكبير لا يعني أن رشيد رضا قد أغفل بقية العوامل المادية في حياة الأمم، فقد أكَّد بوضوح ـ كما رأينا ـ على ضرورة العلم والصناعة والقوة العسكرية في حفظ سياج الأمم، وترقية شؤونها؛ فالأمة لا يمكن أن تقوم لها قائمة من دون عقيدة وقِيَم، ولكن هذه الأمة لا يمكن أيضاً أن تحافظ على نفسها، وترتقي درجات السُّلَّم الحضاري ـ بالإضافة إلى كل ما سبق ـ إلا إذا كانت سوق العلم والصناعة والزراعة والقوة العسكرية رائجة فيها، ورواج هذه السوق ـ كما هو معلوم ـ يتوقف بدرجة كبيرة على توفر المال والثروة، فالمال هو العصب المحرِّك والمموِّل لكل المشاريع العلمية والصناعية، وهو الوقود لكل الآلة العسكرية، لدرجة يمكننا أن نقول فيها: إنَّ وجود المال شرط ضروري من شروط البناء الحضاري الشامل لأي أمة من الأمم، فالأمم لا تعيش بدينها وفكرها وروحها وأخلاقها فقط، بل لا بد أن تضيف إلى كل هذا مقومات البقاء المادية التي يضمنها العلم والصناعة والقوة، والتي تتغذىٰ جميعاً من الإمكانيات والقدرات المادية اللازمة والكافية، إذاً فللمال دور متميّز في نهضة الأمم ورقيّها، وهذا ما وعاه رشيد رضا بشكل دقيق عندما أكّد أن «المال هو القطب الذي تدرو عليه جميع مصالح الأمم في هذا العصر»[٢]، وأنَّ «إصلاح

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٦/١، ٣٦٧، ٥/٨٩ـ٩٠، ١٤٩، ٢٧٧، ٩/١٠٨).

(٢) «تفسير المنار»(٣/٧٩).

الأموال واستثمارها في هذا الزمان هو أساس القوة، فقوة الدول على قدر ثروتها، فالأمة التي تقصِّر في توفير الثروة هي التي تلقي بأيديها إلى التهلكة»[١].

ولكن حتىٰ تُؤْتي وفرة الأموال والثروات الموجودة في أيدي أفراد الأمة أُكلَها في حفظ الأمم ونهوضها، فقد أكَّد رشيد رضا على ضرورة إنفاق جزء من أموال الأفراد وثرواتهم في سبيل تحقيق مصالح الأمة العامة؛ أي: الأعمال التي تعود منفعتها على جميع أفراد الأمة دون تمييز بينهم، وتضمن لهم الحاجات الضرورية لتحسين مستوىٰ حياتهم، وصيانة كرامتهم في كل المجالات الدينية والعلمية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وبكلمة أخرىٰ: حتىٰ تساهم الأموال في تغذية كل مشاريع النفع العام.

ولم يكتف رشيد رضا بالدعوة إلى إنفاق الأموال من أجل خدمة الدين المهذِّب للنفوس، وإعلاء شأن الحق، وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله، وإزالة الجهل بنشر العلوم وترقية الصناعات، وإنشاء المستشفيات والملاجىء، ومساعدة العَجَزَة والضعفاء، وإعداد القوة العسكرية، وتربية الشباب على استخدامها[٢]، بل ارتقىٰ فكره ووصل إلى درجة المطالبة بإنشاء وإقامة الجمعيات الدينية والخيرية التي تقوم على رعاية المصالح العامة، وهذه المطالبة تعني ـ في لغة أيامنا هذه ـ الدعوة إلى إنشاء مؤسسات المجتمع المدني التي تأخذ على عاتقها تلبية حاجات المجتمع جنباً إلى جنب مع مؤسسات الدولة الرسمية، وبهذا تزداد فرص وإمكانيات توفير حاجات أفراد الأمة، بالإضافة إلى تخفيف العبء عن كاهل الحكومات والدول التي قد تكون أصلاً ـ ولأسباب كثيرة ـ غير مؤهّلة لرعاية مصالح مواطنيها، أو التي قد تكون بعيدة

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ١٤).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٨٨ـ٤٦٦).

عن الالتزام بقِيَم الأمة وعقيدتها، فدور الجمعيات الدينية والخيرية ـ التي دعا إليها رشيد رضا ـ لا يقتصر على توفير المتطلَّبات المادية لأفراد الأمة فقط، بل يهدف إلى إعادة صياغة الأمة، وتشكيل ملامحها وفق عقيدتها وقيمها الإسلامية[١].

وفي هذا السياق أشار رشيد رضا ـ مقتفياً منهج شيخه محمد عبده ـ إلى أولوية الاهتمام ببناء المؤسسات التعليمية والتربوية الخاصة، نظراً لخطورتها في الحفاظ على هوية الأمة، ولأنها المِهاد الطبيعي لتخريج الكوادر العلمية والتربوية القادرة على تجديد فهم المسلمين لدينهم من جهة، وإنقاذ كرامتهم وتحقيق سيادتهم واستقلالهم من جهة أخرىٰ.

يقول رشيد رضا: «فلو أسس الأغنياء مدارس للجمع بين تعليم العلوم الدينية والدنيوية، لاستغنوا بها عن دعاة النصرانية، ولأمكن للمصلحين منهم إذا تولوا إدارتها أن يُخرِّجوا لهم فيها رجالاً يحفظون للأمة دينها ومُلكها، ويعيدون إليها مجدها»[٢].

وفي الحقيقة فإنَّ رشيد رضا من واقع معرفته بمدى تقصير وتقاعس أغنياء المسلمين في عصره عن القيام بدورهم في إنفاق الأموال في سبيل تنمية المجتمعات الإسلامية وترقيتها، لم يتوان عن انتقادهم وتعنيفهم وتحميلهم قسطاً كبيراً من المسؤولية عن تخلّف المسلمين، وتقهقر الأمة الإسلامية، فها هو يقول في تفسيره لكلمة (الظالمين) الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٣]: «أقول: والظالمون في مقام الإنفاق هم الذين ظلموا أنفسهم؛ إذ لم يزكّوها

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٣/ ٥٩ـ٦٠، ١٠/ ٥١٤ـ٥١٥).

(٢) «تفسير المنار» (١٠/ ٤١٠ـ٤١١).

(٣) سورة البقرة: ٢٧٠.

ويطهِّروها من هذه الفحشاء والبخل، وظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم، وظلموا الملة والأمة بترك الإنفاق في المصالح العامة، وبما أنهم كانوا قدوة سيئة لغيرهم، فَظُلْمُهم عام وشامل، فهل يَعْتَبِرِ بهذا أغنياء المسلمين، وهم يرون أمتهم قد صارت ببخلهم أبعد الأمم عن الخير بعد أن كانت خير أمة أُخْرِجت للناس؟! أَمَا إنهم لا يجهلون أن المال هو القطب الذي تدور عليه جميع مصالح الأمم في هذا العصر، وإنهم لو شاؤوا، لانتاشوا[1] هذه الأمة من وهدتها، وعادوا بها إلى عزَّتها، ولكنهم قوم ظالمون قساة، لا يتوبون ولا يتذكرون»[2].

وقال في مكان آخر معدّداً أسباب تأخر المسلمين في عصره، جاعلاً من بينها الدور السلبي لأغنياء المسلمين: «إنَّ من أكبر أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وتمكين أعدائهم من سلب مُلكهم، ومحاولة تحويلهم عن دينهم، هو بخل أغنيائهم»[3].

وهكذا فإنه يمكننا أن نقول: إن رشيد رضا قد أقام علاقة تلازُم بين رفعة الأمم ونهضتها، وبين إنفاق أغنياء هذه الأمم أموالهم في وجوه المصالح والمنافع العامة لأممهم، وهذه العلاقة التلازمية ثابتة ومعروفة ومشاهدة ـ كما يقول رشيد رضا ـ «لأرباب البصائر الباحثين في شؤون الأمم؛ إذ لا يبحثون في حالة أمة عزيزة، إلا ويرون بذل أغنيائها المال لنشر العلوم، وإتقان الأعمال، وتعاون أفرادها على مصلحتها، هي أسباب عزتها ورفعتها، ولا يبحثون في

---

(١) انتاشوا هذه الأمة: أي: انتشلوها وأخرجوها من . . .، انظر: «**أساس البلاغة**»، الزمخشري (٦١٧).

(٢) «**تفسير المنار**» (٣/ ٧٨ـ٧٩).

(٣) «**تفسير المنار**» (١٠/ ٤٠).

حالة أمة ذليلة مقهورة إلا ويرون أغنياءها مُمسكِين، وأفرادها غير متعاونين»[1].

وعلى ضوء كل ما سبق، نستطيع أنَّ نستنتج أن رشيد رضا ـ في تحليله لعوامل قيام الأمم ونهوضها ـ تطرّق في حديثه إلى كل العوامل الروحية والفكرية والمادية دون استثناء، مع تقريره بكل وضوح أنّ الرفعة الرئيسة لقيام الأمم ونهوضها، هي الدّين بما يملك من حيوية روحية وفكرية فاعلة وحاسمة لا يمكن لأي عنصر آخر أن يعوِّض عنها، وفي الوقت نفسه فإن الدّين هو الذي يقدّم الدافع والباعث الحقيقي للأخذ ببقية العوامل والمحدِّدات الأخرىٰ لقيام الأمم، وهو الذي يحدّد لها وظيفتها والأهداف المرجوّة منها[2].

ويدعم استنتاجنا هذا، ما قاله رشيد رضا في آخر حياته ملخصاً وِجهة نظره في ارتقاء الشعوب والأمم: « إنّ من ضروريات هذا العلم [أي: علم الاجتماع] أنَّ ارتقاء الشعوب في مصالحها القومية والوطنية، وفي عزّتها الدولية، هو أثر طبيعي لإحسان أعمالها في أسباب المعاش، والثروة، والقوة الحربية،

---

(١) «**تفسير المنار**» (٢/ ٤٦٩)، وانظر: (٢/ ٤٦٨).

(٢) تجب الإشارة هنا إلى أن مالك بن نبي (ت١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، وهو من أهم المفكرين المسلمين في النصف الثاني من القرن العشرين، ومن أكثرهم اشتغالاً بمشكلات الحضارة، قرَّر بوضوح أن الدين هو الأساس الأول الذي ترتكز عليه، وتنطلق منه حضارة أي أمة من الأمم. يقول مالك بن نبي: «فالحضارة لا بَعْثَ لها ـ كما هو ملاحظ ـ إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بَعَثَها، ولعله ليس من الغُلو في شيء أنْ يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجاً»، «**شروط النهضة**»، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، (٥٠ـ٥١).

والتكافل والتعاون على المصالح والمقوِّمات العامة لها، ولا يتم ما ذكِر إلا بالصدق والعدل والأمانة والاستقامة، ولا تكمل هذه إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر»[1].

المبحث الرابع

عوامل وسُنن الله ـ تعالى ـ في سقوط الأمم وهلاكها وتجدُّدِها

إنَّ السؤال اللاهب الذي كان يؤرّق رشيد رضا، ويحثه على البحث الدؤوب في مسائل الأمم، وسُنن الله ـ تعالىٰ ـ فيها، يتمحور حول العوامل والأسباب التي تؤدي إلى توقّف أمة ما عن الاستمرار في وجودها التاريخي، وإبداعها الحضاري كأمة مستقلة ذات سيادة، وتدفع بها إلى هاوية السقوط الحضاري، وذلك «بإضاعة استقلالها، وسلطان أمة أخرىٰ عليها تستذلّها»[2]، وإهلاكها في الدنيا «بالضعف والشقاق وخراب العمران حتى تزول مَنَعَتُها، وتُمَزَّق دولتها، فتنقرض أو تستولي عليها دولة أخرى»[3].

وهذا البحث يأتي انطلاقاً من رؤية رشيد رضا السديد بأن عقاب الله ـ تعالىٰ ـ للأمم هو أثر طبيعي واجتماعي لازم لِما اقترفته هذه الأمم من المهلكات الحضارية، وهو عقاب ثابت مطّرد وغير قابل للإلغاء أو التخلف عند حدوث أسبابه وانتفاء موانعه، والهدف من تعجيله في الدنيا هو حمل الأمم اللاحقة على الاعتبار بما حلَّ بالأمم السابقة، ودفعها إلى الابتعاد عن العمل بالأسباب التي أدّت إلى هلاكها، وفي هذه وقاية وأي وقاية للأمم الحاضرة إذا تنبَّه أبناؤها واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقة[4].

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤١).

(٢) «تفسير المنار» (٩/ ٥٧٦).

(٣) «تفسير المنار» (١٢/ ٨).

(٤) انظر: «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٠، ٩/ ٥٧٦، ١٠/ ١٣٦، ٦/ ٣٠٨، ٢/ ٤٥٨).

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾[1]: «وحاصل المعنى أن ما يحفظه التاريخ من وقائع الأمم من دأبها وعادتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض، ومن عقاب الله إياها هو جارٍ على سنته ـ تعالىٰ ـ المطَّردة في الأمم، ولا يظلم ـ تعالىٰ ـ أحداً بسلب نعمة ولا إيقاع نقمة، وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم، هذا هو المطَّرد في كل الأمم في جميع الأزمنة»[2].

ويقول في موضع آخر: «وقد تقدَّم أَنَّ ذنوب الأمم تتبعها عقوبتها في الدنيا؛ لأنها أثر طبيعي لها، وإنما جعلها الله كذلك لتكون عبرة يتأدب بها المتأخرون بما أصاب منها المستقدمين»[3].

إذاً فالبحث عن عوامل سقوط الأمم هو بحثٌ عن الذنوب التي ترتكبها هذه الأمم، وتستحق بموجبها العقاب الإلهي العادل، ولا يخفىٰ هنا أنَّ رشيد رضا ـ في أثناء هذا البحث ـ كان يسعىٰ بكل جد وإخلاص لتشخيص وتحديد العوامل والسُّنن التي أدَّت إلى انهيار الأمة الإسلامية، وانفراط عقدها في عصره ـ هذا الانهيار المتمثِّل بسقوط الخلافة العثمانية ـ لتفسير أسباب هذا الانهيار تفسيراً علمياً من جهة، ومحاولة تجاوزها بشكل علمي وعملي من جهة أخرىٰ، في ضوء الرؤية القرآنية لعوامل وسُنن سقوط ونهوض الأمم.

ـ مبدأ سقوط الأمم:

يرى رشيد رضا أن إهمال الأمم لعوامل قيامها ونهوضها، هو العامل الأساسي الموجب لسقوطها وانحطاطها، فالعدو الخارجي والظروف الخارجية

---

(١) سورة الأنفال: ٥٤.

(٢) «تفسير المنار» (١٠/ ٣٧)، وانظر: (٧/ ٤١٨، ٨/ ٣١٢ـ٣١٣، ٩/ ٢٩ـ٣٠).

(٣) «تفسير المنار» (١/ ٣٨٢).

مهما تكالبت على الأمة وضغطت عليها، لا تستطيع إسقاطها من مسرح الوجود الحضاري والفعل التاريخي، في حين أن إهمال أبناء الأمم لمقومات أمتهم وأصول حضارتها هو الذي يسدِّد الضربة القاضية لحياة وسيادة أية أمة من الأمم[1].

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[2]، مُنَبِّهاً إلى ضرورة البحث عن عِلَل سُقوط الأمم وهلاكها في داخل هذه الأمم نفسها:

«وقد تتوالىٰ عليها العقوبات حتىٰ تضيق بها ذرعاً، فتبحث عن أسبابها، فلا تجدها بعد طول البحث إلا في أنفسها، وتعلم صدق قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[3]»[4].

وبناءً على هذا، فإننا نستطيع أن نقرّر باطمئنان أن العوامل التي تؤدي إلى سقوط الأمم ـ في نظر رشيد رضا ـ هي العوامل الذاتية والداخلية النافية والناقضة لعوامل قيامها، وهكذا فإنَّ نَبْذَ الدّين وترْكَه، والإعراض عن الأَخْذ بقِيمَه والتمسّك بأخلاقه، والعزوف عن التربية والتزكية، والتقصير في ميادين العلم والصناعة والقوة العسكرية، وإهمال المال وطرق العناية به، وعدم استثماره وتوظيفه في خدمة الصالح العام، هي العوامل الكبرىٰ لسقوط أية أمة، وانتهاء دورها الحضاري.

وبكلمة أخرىٰ يمكن أن نحدد عوامل سقوط الأمم بانتشار الفساد فيها على

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٣١٤).
(٢) سورة الأعراف: ٤ ـ ٥.
(٣) سورة الشورىٰ: ٣٠.
(٤) «تفسير المنار»، (٨/ ٣١٤).

الصعيد الديني والأخلاقي والسياسي والعلمي والعسكري والاقتصادي، مع التأكيد سلفاً بأن الأمم لا تسقط بمجرد انتشار الفساد فيها على مستوىٰ بعض الأفراد، أو على مستوىٰ جماعات متناثرة منهم لا تؤثِّر في المجرىٰ العام للأمة، فرشيد رضا لا يعد الفساد بحد ذاته سبباً كافياً لتقويض الأمم إلا إذا انتشر، وعمَّ معظم أفراد وجماعات الأمة، مع الإصرار عليه، بحيث يصح أن نطلق عليه بأنه ذنب أمة في مجملها، وليس ذنب أفراد منها، فسقوط أمة ما يأتي نتيجة طبيعية لمحصِّلة السلوك الجمعي لمجموع أفرادها باعتبارها كلاً واحداً يتألف من تجمع هؤلاء الأفراد الذين يُعدون بالنسبة إليها كالأعضاء في بنية الجسم والشخص الواحد[1].

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله ـ تعالىٰ ـ بحق بني إسرائيل: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[2]: «وإنما يعاقب الله الأمم بالذنوب إذا كثرت وشاعت فيها؛ لأن العبرة بالغالب، والقليل النادر لا تأثير له في الصلاح أو الفساد العام، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾[3]، وهذا هو الواقع، وعِلَّته ظاهرة، وحكمته باهرة»[4].

وهكذا فإنه إذا فشت المنكرات، وعمَّت الأعمال والأخلاق والقِيَم الفاسدة في أمة من الأمم، يُحكم عليها بالفساد، وتستوجب العقاب الإلهي لها[5]،

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٣٦ـ٣٧، ٤٠٣، ٦/ ٤٩٢، ٩/ ٣٧٧ـ٣٧٩، ١٠/ ٣٦ـ٣٧).

(٢) سورة المائدة: ٧١.

(٣) سورة الأنفال: ٢٥.

(٤) «تفسير المنار» (٦/ ٤٨١).

(٥) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٤٧٨ـ٤٧٩).

ولا يغني عنها في هذا الحالة وجود بعض الصالحين المحدودي التأثير؛ لأن حكم الله ـ تعالىٰ ـ بشأن الأمم يدور مع الغالب عليها، وهذا بموجب سنة الله ـ تعالىٰ ـ في وحدة الأمة وترابط أجزائها، وتأثير بعضها في بعض، كما تتبادل التأثير أعضاء الجسد الواحد، إذاً فمعيار الحكم على أمة ما بالفساد تابع لفساد أكثر أفرادها، والعكس صحيح أيضاً؛ أي: إن الحكم بصلاح أمة ما تابع لصلاح أغلب أفرادها، لا جميعهم.

يقول رشيد رضا: «وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر، وقلَّ المعروف؛ فقد جرت سُنَّته ـ تعالىٰ ـ في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال التي تكون بها العزَّة، ويُحفظ بها المجد والشرف»[1].

ـ أهم العوامل التي تؤدي إلى سقوط الأمم:

ذكرنا سابقاً بأن انتشار الفساد في كل الاتجاهات والمستويات المجتمعية، هو السبب الموضوعي الذي جعله الله ـ تعالىٰ ـ موجباً لسقوط الأمم وهلاكها، والآن أجد من الضروري تسليط بعض الأضواء على أهم العوامل التي حمَّلها رشيد رضا أكثر من غيرها مسؤولية سقوط الأمم وانهيارها، ومن الطبيعي أن يأتي في مقدمة هذه العوامل: الفسادُ الديني؛ باعتبار الدّين هو المقوِّم الأول، والمرتكز الحضاري لأي أمة من الأمم الذي يحدّد خطها وسيرها وهويتها الحضارية، ومن ثَمَّ نجد أنَّ رشيد رضا يركِّز على تحميل الظلم مسؤولية كبرىٰ في دفع الأمم بشكل حثيث نحو هاوية السقوط والتداعي، مستنداً في تحليله هذا على الآيات القرآنية الكثيرة التي تربط بين هلاك الأمم، وبين الظلم المنتشر فيها[2]، وبعد ذلك سنلاحظ أنَّ رشيد رضا يربط ربطاً مُحكماً بين الفساد

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٧٠).

(٢) من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُم لَمَّا ظَلَمُوا=

الأخلاقي، وانتِباذ القِيَم الفاضلة، وبين تعجيل سوق الأمم إلى حتفها الحضاري، ولا ينسىٰ في هذا المجال التركيز على دور الترف وما يترتب عليه من قيم وآثار مجتمعية فاسدة تسهم في القضاء على الأمم وتسريع موتها الحضاري، انسجاماً منه مع الآيات القرآنية التي تشير بوضوح إلى دور الترف في استجلاب الهلاك لأي أمة من الأمم[1]

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أنَّ تركيز رشيد رضا على العوامل السابقة لا يعني بحالٍ من الأحوال إهماله أو تجاهله لدور التأخر العلمي، والتقصير في المجالات الاقتصادية والصناعية والعسكرية في إسقاط الأمم؛ فقد أشار مرات عديدة إلى خطورة التقصير في هذه المجالات، وأثره في تعريض الأمم

= وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ سورة الكهف: ٥٩.

(١) من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ سورة الإسراء: ١٦. في الحقيقة فإني قد قمتُ بالإشارة بشكل أو بآخر إلى جميع هذه العوامل ـ الفساد الديني، والظلم، والفساد الخلقي، والترف ـ التي حدَّدها رشيد رضا كأسبابٍ سُننية لسقوط الأمم، وعلى الأخص الترف والفساد الخلقي ـ انظر على سبيل المثال: الفصل الأول، المبحث الثالث من هذه الرسالة ـ، لذلك ومنعاً للتكرار، فإني سأكتفي في هذا المبحث بإلقاء المزيد من الأضواء التحليلية على دور الفساد الديني والظلم فقط؛ لما لهما من دور حاسم وقاطع في عملية السقوط الحضاري للأمم، ولأنه ـ وبحسب رشيد رضا ـ فإن الفساد الخُلُقي وفشو المنكرات والترف إنما هي آثار ولوازم طبيعية من آثار الفساد الديني والظلم، فحيثما يوجد الفساد الديني والظلم يوجد أيضاً وبالضرورة الفساد الخلقي والظلم، وإذا أردنا أن نقف على طبيعة الارتباط الحتمي بين الفساد الديني وبين الظلم والترف، فما علينا إلا أن نقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ سورة الأنبياء: ١١ـ١٥.

ـ وبشكل خاص الأمة الإسلامية ـ إلى الاستباحة الحضارية من قِبَل الأمم الأخرىٰ بقصد تذويبها، والسيطرة عليها، وتسخيرها لمصالحها الخاصة[1].

وهنا يجب أن نشير أيضاً إلى أنَّ رشيد رضا يرىٰ ـ كما بيّنا ذلك من قبل ـ أن تفوق أمة ما في هذه المجالات لا يُعد لوحده واقياً حضارياً لها من السقوط، فوجود الأمم على المستوىٰ الحضاري مُرتَهَن أولاً وقبل أي شيءٍ آخر بالاعتصام بالحق والقِيَم النابعة منه، وأمّا تفوق الأمم وتقدُّمها في تلك المجالات، فقد يسهم في تأخير هلاكها الحضاري، ولكنه لا يستطيع أن يحميها أبداً من الهلاك في نهاية الأمر؛ لأن هذه الحماية لا تكون إلا بالرجوع إلى الحق والعدل، وقد استند رشيد رضا في تحليله هذا إلى وقائع التاريخ التي تؤكّد أن كثيراً من الأمم السابقة قد أصابها الهلاك، ونزلت عن مسرح التاريخ، على الرغم مما كانت تتمتع به من تقدّم علمي واقتصادي وعسكري؛ بسبب إعراضها عن الحق، وانتشار الظلم والترف فيها[2]، وقد استدل رضا من أجل تأكيد تحليله هذا بكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي أشارت إلى أن وجود هذا التقدّم، وهذا الازدهار في هذه المجالات في كثير من الأمم السابقة، لم يَحُل بينها وبين الهلاك عندما استدبرت دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأعرضت عن قِيَمِه وأخلاقِه، وانغمست في الظلم والترف والرذيلة، من هذه الآيات الكريمة قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[3].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١٠/ ٤٢٥، ٤٦٢).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٤٠٥ـ٤٠٦).

(٣) سورة الأنعام: ٥ ـ ٦، وانظر أيضاً: سورة القصص: ٢٨، وسورة مريم: ٧٤، =

من هنا جاء تركيز رشيد رضا على دور الفساد الديني في هلاك الأمم أكثر من تركيزه على غيره، وهنا يجب أن نذكر أيضاً أنَّ رشيد رضا يؤكّد بشكل واضح أن عودة الأمة الإسلامية إلى الاستمساك بدينها، وأخْذَها بِقِيَم العدل والحرية والمساواة والشورىٰ، هو الطريق المُمَهِّد لعودة انطلاقتها العلمية والاقتصادية والعسكرية، على اعتبار أن القرآن الكريم يدعو المسلمين المتعبِّدين به إلى تسخير الكون بكل ما فيه، وإعداد القوة اللازمة لإرهاب الأعداء، وهذا يعني ـ فيما يعني ـ إنهاض الأمة علمياً واقتصادياً وعسكرياً[1]، وهكذا نلاحظ تكامل تحليل رشيد رضا لعوامل سقوط الأمم، مع انتباهه العلمي لتفاوت هذه العوامل من حيث الأهمية والتأثير فيما سواها من العوامل الأخرىٰ.

والآن لنبدأ بتحليل دور الفساد الديني والظلم في سقوط الأمم عند رشيد رضا:

١ـ الفساد الدّيني:

سبق أن قلنا: إن رشيد رضا يؤكد أنَّ لكل أمة أصولاً مقوِّمة لها؛ أي: لا تكون أمة إذا لم تحافظ عليها، والأصل الأول لوجود الأمة الإسلامية الذي بوجوده توجد، وبعدمه تزول، هو الدّين الإسلامي بكل تعاليمه وأحكامه وتكاليفه؛ لذلك فإنَّ أيّ تفريط بهذا الدين، أو تحريف له، أو اعتداء على حدوده، يؤدي إلى تفرّق الأمة، ونزول الذل والهوان بها، وذلك لأن الدّين هو الرابط الأقوىٰ بين أفراد الأمة، وهو مناط الوحدة بينهم، فإذا خُرِق هذا الرابط، تداعت أجزاء الأمة، وانهارَ بنيانها الذي يستمد وحدته وتماسكه وقوته من هذا الرابط[2].

= وسورة الجاثية: ٧ـ٨.

(١) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٤٩٤، ٩/ ٦٣٩، ٤/ ٢٤).

(٢) انظر: «تفسير المنار» ١٢/ ٢٤٥ـ٢٤٧، ١/ ٧١ـ٧٢).

يقول رشيد رضا: «وقد دلَّ المعقول، وشهد الموجود، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها، وتعدّت حدود شريعتها، إلا وانتكث فَتْلُها، وتفرَّق شملها، ونزل بها الذل والهوان»[1].

من هنا جاءت دعوة رشيد رضاملحّة وحثيثة لأبناء الأمة الإسلامية للالتزام بدينهم، والاعتصام، به وتوحيد كلمتهم وقوتهم به، ومن خلاله[2]، ومن هنا أيضاً نفهم حرصه الشديد على محاربة كل العوامل والأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى تحويل الدين من عامل توحيد لقوى المسلمين وإمكانياتهم، إلى عامل توهين وتفريق وبعثرة لجهودهم وطاقاتهم، لذلك رأيناه يحارب بلا هوادة انتشار البِدع والخرافات التي أحالت العقيدة الإسلامية التي يعود إليها الفضل الأول في بناء الأمة الإسلامية وحضارتها عبر التاريخ، إلى مجموعة من التصورات المتهافتة والمتناقضة والمنفِّرة للعقول السليمة، والتي دفعت الكثيرَ من المسلمين إلى الإعراض عن الأخذ بالعلم وأسبابه، والتقصير في تسخير الكون وثرواته على عكس ما جاء في الكتاب والسُّنَّة مَصدَريْ هذه العقيدة[3].

وكذلك رأيناه يتصدىٰ بكل صرامة لكل أشكال التعصُّب المذهبي التي يمكن أن تؤدي ـ إذا خرجت عن الحدود ـ إلى نشر القطيعة والعداوة بين أبناء الأمة الواحدة، وقد يصل الأمر في بعض الحالات إلى التقاتل والتناحر العسكري[4]، وكذلك الأمر فإنه حذَّر من أنَّ الزيادة في الدّين، والتنازع المؤدي إلى الخصام في فهمه، والتعامل معه، والاعتماد على بعض نصوصه، وإهمال بعضها الآخر باستخدام التأويل المتعسِّف، يؤدي إلى تمزيق الأمة وتفتيت

---

(١) «تفسير المنار» ١/ ٣٧٤.

(٢) انظر: «تفسير المنار»، (٥/ ١٥٤، ٢/ ٢٦٩، ١١/ ٢٠١، ٥/ ٢٩٧، ١/ ٣١).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٥ـ٢٤٧، ١/ ٧١ـ٧٢).

(٤) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٦١ـ٢٦٢، ٣/ ٨ـ١٢).

وحدتها، وبذلك تستحق هذه الأمة أن يحلَّ بها غضب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأن يذيقها ألوان العذاب والبلاء، وذهاب الاستقلال وتسلط الأعداء[1].

يقول رشيد رضا مؤكداً هذه الحقائق: «إن الوجود قد كان ولا زال مصدِّقاً لما جاء به الكتاب العزيز من إهلاك الاختلاف في الدين للأمم، وإفساده للدين نفسه»[2].

ومن أجل اجتناب هذا المآل الخطير وتحاشيه، كان رشيد رضا لا يكلُّ ولا يملُّ من دعوته المسلمين إلى سدِّ كل الذرائع الموصلة إليه، والتي يقف على رأسها التقليد الأعمىٰ، والتعصب المذهبي[3]، الذي يُوجِب على أتباع كل مذهب وفرقة اتّباع ما قاله ويقوله أئمتهم دون غيرهم، وذلك بدعوته ـ كما رأينا سابقاً ـ إلى الإعتصام بالكتاب والسُّنّة، وجعل العمل بهما مقدَّماً على العمل بأقوال أئمة المذاهب والفِرَق[4].

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[5]: «ولو سلك الخَلَف في الدّين مسلك السَّلَف باتّباع الكتاب والسنّة، والاستعانة على فهمهما بكل عالم ثقة من غير تعصُّب لعالم معين، لَمَا وقعوا في هذا الخلاف والتفرق

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٥٦ـ٢٦٠).

(٢) «تفسير المنار» (٣/ ١١١).

(٣) قد أشار رشيد رضا ـ بالإضافة إلى دور التقليد والتعصب المذهبي في تفريق الأمة وتمزقها ـ إلى دور السياسة والتنازع على السلطة، والتعصب الوطني والعِرقي، والقول في دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالآراء والأهواء الشخصية، ومكائد ودسائس الدول الاستعمارية التي لم تدَّخر جهداً من أجل تفتيت الأمة وتجزئتها. انظر: «تفسير المنار» (٨/ ٢١٧ـ٢٢٨، ١١/ ٤٤٢ـ٤٤٣).

(٤) انظر: «تفسير المنار» (٣/ ١١، ٤/ ٢٤ـ٢٥، ١٢/ ٢٤٨ـ٢٤٩).

(٥) سورة الأنعام: ١٥٩.

والبغضاء، والجهل بهما وهجرهما، وما يختلف لاختلاف الزمان من الأحكام القضائية والسياسية، يُزيله حُكم الحاكم، فلا يُوجب تفرّقاً»[1].

- مسؤولية العلماء عن الفساد الديني:

ولم ينس رشيد رضا في أثناء بحثه عن صور الفساد الديني التي تؤدي إلى هلاك الأمة، أن يصوِّب سهام نقده لمعظم علماء الدين في عصره متهماً إياهم بالتقصير في القيام بدورهم المتمثِّل بإرشادهم الحكام وأبناء الأمة على السواء لما فيه صلاحهم، وصلاح دينهم ودنياهم وفق ما جاء في الكتاب والسُّنّة، بل إنه اتهمهم بنبذهما اكتفاءً بتقليد شيوخهم وأئمة مذاهبهم الأقدمين[2]؛ أي: بتعطيل حركة الاجتهاد الفقهي التي من شأنها إغناء وتجديد حياة المسلمين، وإيجاد الحلول لمشكلاتهم، وتحقيق مصالحهم المشروعة، والركون في مقابل ذلك إلى التقليد المذهبي الضيّق والمتعصب الذي أدَّىٰ - في نظره - إلى اقتناع بعض حكّام المسلمين في عصره أنَّ الشريعة الإسلامية لم تعد قادرة في ميادين القضاء والإدارة والسياسة على تحقيق مصالح الأمة وصيانتها، «فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفاسد السياسية والاجتماعية المُضعِفَة للأمة في دينها ودنياها»[3]، وهكذا فقد حمَّل رشيد رضا علماءَ عصره المقلدين قسطاً من المسؤولية عن ترك العمل بالأحكام الشرعية، والأخذ بالقوانين الأوروبية التي لا تنسجم مع عقيدة الأمة وتصوراتها، ولا تستجيب لحاجاتها وتطلعاتها الخاصة بها[4].

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٢١٨).

(٢) انظر: «تفسير المنار»، (٨/ ٢٢٨).

(٣) «تفسير المنار» (٨/ ٢٢٧).

(٤) أجد من الضروري هنا أن أشير إلى أنه لا يجوز المبالغة في تحديد حجم مسؤولية علماء الدّين عن اقتباس القوانين الأوروبية، فالمسألة كانت أكبر من ذلك بكثير، إذ=

بالإضافة إلى كل ماسبق فقد أدان رشيد رضا أيضاً الدور السلبي الذي كان يقوم به بعض شيوخ عصره من تأييد الحكام الظَّلَمَة، وإقرارهم على ظلمهم وجهلهم واستبدادهم، وإسباغ ثوب المشروعية على أعمالهم التي تخالف نصوص الشريعة ومقاصدها من أجل الحصول ـ كما يقول ـ على فضلات الرزق ومظاهر الجاه[1].

٢ـ الظلم:

وقف رشيد رضا مطوَّلاً في تفسيره عند تحليل دور الظلم[2] في سقوط الأمم والدول والحضارات، وقد استند في تحليله لهذا الدور إلى الآيات القرآنية الكثيرة التي تربط بشكل سببي واضح بين الظلم المتفشّي في الأمم، وبين خرابها واستحقاقها لعقاب الله ـ تعالىٰ[3]ـ.

= أنها تتعلق أساساً بالظرف التاريخي السائد آنذاك، والمتمثل بضعف المسلمين في جميع مجالاتهم، وذهاب قوتهم وشوكتهم السياسية والعسكرية بذهاب الدولة العثمانية، ووقوع معظم شعوبهم تحت نير الاستعمار من جهة، ومن جهةٍ أخرىٰ فإن الغرب الأوروبي كان يشهد في مقابل ذلك مداً تاريخياً وحضارياً وتقدماً علمياً واقتصادياً، ونزوعاً واضحاً نحو الهيمنة والسيطرة، وبخاصة على الشعوب الإسلامية القريبة منه، هذا الظرف التاريخي هو الذي يفسِّر القابلية التاريخية لحكام المسلمين آنذاك للتهاون بالشريعة الإسلامية، والتهافت على القوانين الأوروبية التي كان يُظن وقتها أنها هي التي ستضمن لهم اللحاق بالغرب وتقدُّمه، وهو الأمر الذي أثبتت التجارب والسِّنون عدم صحته.

(١) انظر: «**تفسير المنار**» (٨/ ٢٢٧ـ٢٢٨، ٢/ ٢٥٦ـ٢٥٧، ٩/ ١٥٩، ٤/ ٢٨٣).

(٢) تبنّىٰ رشيد رضا في تعريفه للظلم، تعريف الراغب الأصفهاني الذي يعرّف الظلم بأنه: «وضع الشيء في غير موضعه المختص، به إما بنقصان، أو بزيادة، وإما بعدولٍ عن وقته، أو مكانه». «**تفسير المنار**» (٤/ ٥٦)، وانظر: «**مفردات ألفاظ القرآن**»، الراغب الأصفهاني (٥٣٧).

(٣) انظر: «**تفسير المنار**» (٨/ ١١٠).

من هذه الآيات الكريمة الكثيرة قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[1].

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[2].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3].

- ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[4].

من تحليل هذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها، ذهب رشيد رضا إلى أنَّ هذا العقاب على هذا الظلم إنما هو «أثرٌ لازم له لزومَ المعلول للعلة، والمسبَّب للسبب، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[5]، ومن أثره وعاقبته في الدنيا أنه مُهلِك الأمم، ومخرِّب العمران»[6].

وذهب رشيد رضا إلى أنه إذا أردنا أن نعرف لماذا أسند القرآن الكريم إلى الظلم هذا الدور التخريبي للأقوام والقرىٰ، وهي المفردات التي يعبِّر بها القرآن الكريم عن الأمم السابقة، ولماذا جعل عقاب الأمم وهلاكها أثراً طبيعياً لظلمها؟ فما علينا إلا الرجوع «إلى سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في العمران وطبائع

---

(١) سورة القصص: ٥٩.
(٢) سورة الحج: ٤٨.
(٣) سورة هود: ١٠٢.
(٤) سورة الكهف: ٥٩.
(٥) سورة الكهف: ٤٩.
(٦) «**تفسير المنار**» (١١/ ٢٧). تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ رشيد رضا ـ بالإضافة إلى اعتماده المباشر على الآيات القرآنية الكريمة في ربطه بين الظلم وبين هلاك الأمم ـ فقد استند أيضاً إلى تحليلات ابن خلدون الاجتماعية والتاريخية لدور الظلم في فساد المجتمعات والدول وسقوطها، والتي صاغها في مقولته التاريخية: «الظلم مُؤذِن بخراب العمران». انظر: «**المقدمة**»، ابن خلدون (٢/ ٧٤١ـ٧٤٨).

الاجتماع البشري التي تُثبتها وقائع التاريخ»[1]، هذه الوقائع التي تؤكد أنَّ «البلاد التي يفشو فيها الظلم تهلك زراعتها، وتتبعها ماشيتها، وتقلُّ ذريتها، وهذا هو الفساد والهلاك الصوريان، ويفشو فيها الجهل، وتفسد الأخلاق، وتسوء الأعمال حتىٰ لا يثق الأخ بأخيه، ولا يثق الابن بأبيه، فيكون بأس الأمة بينها شديداً، ولكنها تذل وتخنع للمستعبدين لها، وهذا هو الفساد المعنوي، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعِبَر ما فيه ذكر ومزدجر»[2].

وكذلك فإن وقائع التاريخ الجارية بحسب سُنن الله - تعالىٰ - في خلقه تخبرنا بأن عاقبة ظلم الملوك والحكام لمواطنيهم وشعوبهم هي «عداوتهم، والطعن عليهم، وقد تفضي إلى اغتيال أشخاصهم، أو إلى ثلِّ عروشهم، والقضاء على حكمهم، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش، أو نوعاً من الحكم بنوع آخر، وإما بإغارة دولة قوية على الدولة التي يُضعفها البغي، تسلبها استقلالها، وتستولي على بلادها»[3].

وهكذا فإن الظلم سبب اجتماعي لهلاك الأمم وذهاب سيادتها واستقلالها؛ بسبب ما يؤدي إليه انتشاره من إفسادٍ للأخلاق، وإهدارٍ للقيم، واستدبار للحق، وتقطيعٍ لروابط الاجتماع بين أفراد الأمّة وجماعاتها، ونَشْرٍ للفوضىٰ والرعب بينهم، وما قد يثيره من نيران الفتن والثورات الداخلية، الأمر الذي يحوِّل حياة الأمة المبتَلاة به إلى ساحة حرب داخلية، قد تؤدي إلى انهيار أركانها وبنيانها بأيدي أبنائها أنفسهم، أو تمهِّد - بأفعالها تلك - السبيلَ أمام أمة قوية أخرىٰ للاعتداء عليها، وسَلْبِها حريتها واستقلالها، وهذا هو الهلاك الحضاري بعينه، لذلك وفي ضوء كل تلك الآثار الوخيمة للظلم، والتي تعمُّ

---

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٣٤٤).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٤٨-٢٤٩).
(٣) «تفسير المنار» (١١/ ٣٤٤)، وانظر أيضاً: (٦/ ٦٠-٦١، ٢٧٤، ٨/ ١١٠-١١١).

الأمة بأسرها، لا مقترفي الظلم وحدهم[1]، والتي تؤدي بطبيعتها إلى هلاك الأمم، فقد صرَّح رشيد رضا بأن «جريمة الظلم أم الرذائل؛ لأنها تشمل ظلم المرء لنفسه بدناً وعقلاً وديناً ودنيا، وظلمه للناس أفراداً وجماعةً وأمةً، ولذلك جعل الله إهلاك أولئك القرون عقاباً على الظلم»[2].

ـ المقصود بالظلم المؤدي إلى هلاك الأمم:

وهنا يجب أن نشير إلى أنّ رشيد رضا قد فسَّر «الظلم» الوارد في سياق الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأمم السابقة، والتي أفضى بها هذا الظلم إلى تدمير عمرانها، وتمزيق مجتمعاتها، وسلب استقلالها عقاباً من الله ـ عزّ وجلّ ـ بأنه هو كافة أنواع الظلم بدءاً من الظلم في الدين والعقيدة المتمثل بالشرك، وتحريف العقائد وتفريغها من مضمونها التوحيدي الخالص، مروراً بظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعِفة للأبدان، والمفسِدة للأخلاق، وانتهاءً إلى الاعتداء على حقوق الأفراد والجماعات في كافة المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والقانونية[3].

وعلى هذا، فإنَّ الظلم الديني الذي يتجسَّد في أخطر أشكاله بالشرك، على الرغم من خطورته القصوىٰ على الأمة، فإنه لا يُعد لوحده سبباً كافياً في نظر القرآن الكريم لهلاك الأمم.

وقد أشار رشيد رضا إلى أنَّ هذه الحقيقة القرآنية تؤكِّدها وقائع التاريخ

---

(١) انظر تفسير رشيد رضا لقول الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصَّةً﴾ سورة الأنفال: ٢٥، في «تفسير المنار» (١٠/ ١٣٥).

(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٢٨).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (١١/ ٣١٥ـ٣١٦، ٨/ ٢٩١).

وأحداث الأمم التي تشير إلى إمكانية بقاء بعض الأمم زمناً طويلاً مع الشرك إذا كانت تلوذ وتعتصم بالحق والعدل والإنصاف في مجالات الحياة الأخرىٰ، وهكذا فإنَّ الظلم حتى يصبح سبباً اجتماعياً طبيعياً كافياً لهلاك الأمم، لا بدَّ أن يكون ظلماً عاماً فاشياً في الأمة عقيدةً وأحكاماً وأعمالاً وأخلاقاً، وعلى مستوىٰ الأفراد والجماعات معاً[1].

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[2]: «ليس من سُنته ـ تعالىٰ ـ أن يهلك القرىٰ بظلم يقع فيها، مع تفسير الظلم بالشرك[3]، وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية وأحكامهم المدنية والتأديبية، بل لا بد أن يضموا إلى الشرك الإفسادَ في الأعمال والأحكام، وهو الظلم المدمِّر للعمران، وذكر المفسرون القول المشهور المعبِّر عن تجارب الناس، وهو أن الأمم تبقىٰ مع الكفر، ولا تبقىٰ مع الظلم»[4].

ـ سنة التَّجدُّد الحضاري:

لاحظنا ـ مما سبق ـ أنَّ رشيد رضا يقول بحتمية سقوط الأمم إذا اجتمعت وتفاقمت وانتشرت فيها العوامل السابقة، وقد أخبرنا بأنَّ القرآن الكريم هو الذي أشار إلى هذه الحتمية عندما حدَّثنا عن آجال الأمم وموعد هلاكها في آيات كثيرة، منها قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[5]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٨/ ١١٠، ١/ ٤٥٦ـ٤٥٧، ١١/ ٢٧٠، ١٢/ ١٥٥).
(٢) سورة هود: ١١٧.
(٣) يشير إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ سورة لقمان: ١٣.
(٤) «تفسير المنار» (١٢/ ١٩٢ـ١٩٣).
(٥) سورة الحجر: ٤ـ٥.

دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[1]، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾[2].

إذاً فإن لكل أمة نهايةً محتومةً، وأجلاً محدَّداً لا يتقدم ولا يتأخر، غير أن الحكمة الإلهية قد شاءت أن يكون هذا الأَجَل ـ كما لاحظنا سابقاً ـ مرتبطاً بأسباب ظاهرية وموضوعية قابلة للإدراك والملاحظة، وخاضعة للإرادة والفعل الإنساني، وذلك يعني أنّ حلول الهلاك بأمة ما، ما هو إلا نتيجة ضرورية لحدوث تراكم وانتشار هذه الأسباب[3].

وهنا يمكننا أن نقول: إنه إذا كان سقوط الأمم وهلاكها معلَّلاً ومسبَّباً بأسباب وعِلل وسلوكيات محددة وواضحة، فهذا يعني بالضرورة أنه بالإمكان تأخير أو إلغاء هذا الهلاك إذا استطاعت الأمة قبل استحكام وانتشار مفاعيل هذه العوامل فيها انتشاراً عاماً وشاملاً، أن تصحح مسيرتها الحضارية، وتصوِّب أعمالها وأحوالها، وتؤوب إلى الحق والعدل، وبالفعل هذا ما ذهب إليه رشيد رضا عندما قال في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[4]: «ومفهوم الشرط أنّ الأمة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيء أجله؛ أي: قبل أن تغلبها على نفسها وعلى إرادتها أسباب الهلاك، وذلك بأن تترك الفواحش والآثام، والظلم والبغي والفساد في الأرض، والإسراف في الترف المفسِد للعقول والأعمال»[5].

---

(١) سورة النحل: ٦١.
(٢) سورة الكهف: ٥٩.
(٣) انظر: «تفسير المنار» (٩/٥٧٦، ١٢/٢٤١، ٨/٤٠٢ـ٤٠٣).
(٤) سورة الأعراف: ٣٤.
(٥) «تفسير المنار» (٤/٤٠٣).

ـ منهج التَّجَدُّد الحضاري ودور المصلحين فيه:

ولكن ما هو الطريق الذي يجب أن تسلكه الأمة حتى تجدِّد ذاتها حضارياً، وتقي نفسها مهالك السقوط والانحطاط؟ هنا يجيبنا رشيد رضا بأنَّ الطريق هو اتّباع المنهج الإلهي في التغيير المبيَّن في قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وهذا المنهج يقتضي أن تقتنع الأمة أولاً بأنّ أسباب هلاكها إنما هي في المقام الأول من عمل يديها، وأنّ الإصلاح يبدأ عندما تحزم الأمة أمرها، وتقرر أن تتحمل مسؤوليتها، وتعمل على تغيير ما أَحدَثَته، واقترفته أيدي أبنائها وجماعاتها من الكبائر والجرائم الحضارية التي تحدَّثنا عنها سابقاً، مستهديةً بدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وشرعه المبيَّن والمفصَّل في الكتاب والسُّنّة[2].

وهنا يبرز دور العلماء المصلحين الذين تقع على عاتقهم بشكل أساسي مهمة التصدي لمكافحة أسباب وجذور الفساد والانحطاط في الأمة بكل عزيمة وبصيرة وصبر، فإذا استطاع هؤلاء المصلحون، ومَنْ يسير في رِكابهم، أَنْ يكفكفوا من آثار الفساد والسقوط، ويحدُّوا من تأثيرها، فيصبح عندئذ بالإمكان تأخير ساعة هلاك الأمة، وإذا استطاعوا أكثر من ذلك؛ أي: أن يقلبوا ميزان التوجُّه العام في أمتهم من الفساد إلى الصلاح، ففي هذه الحالة يمكن للأمة أن تستعيد عناصر قوتها، ومكامن حيويتها، وبذلك تستطيع أن تستأنف السير من

---

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) انظر: «**تفسير المنار**» (٢/ ٤٩٤ـ٤٩٥، ١٠/ ١٣٨)، وانظر: «**التفسير الإسلامي للتاريخ**»، عماد الدين خليل، بيروت، دار العلم للملايين، (١٩٧٥م)، (٢٥٥ـ٢٦٤)، وانظر أيضاً: «**دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين**»، مالك بن نبي، بيروت، دار الفكر، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، (٥٦ ـ ٥٨).

جديد على طريق الحضارة والترقي، بعد أن هددتها ذنوبها الحضارية السابقة بانفراط عقدها، وذهاب أمرها[1].

يقول رشيد رضا في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]: «جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الأمم بظلمهم، وإفسادهم في الأرض؛ للإعلام بأنه لو كان فيهم جماعات وأحزاب أولو بقية من الأحلام والفضائل والقوة في الحق، ينهونهم عن ذلك، لَمَا فشا فيهم وأفسدهم، وإذن لَمَا هلكوا؛ فإنَّ الصالحين المصلحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يُطاعون فيها بحسب سُنّة الله، كما أنَّ الأطباء هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من فُشُوِّ الأمراضِ والأوبئة فيها، ما دامت الجماهير تطيعهم فيما يأمرون به من أسباب الوقاية قبل حدوث المرض، ومن وسائل العلاج والتداوي بعده، فإذا لم يمتثل الجمهور لأمرهم ونهيهم، فَعَلَ الفسادُ فعله فيهم»[3].

وهكذا نفهم بأنَّ حتمية مجيء أَجَل الأمم مشروط بوجود أسبابه المؤدية له، مع عدم وجود محاولات إصلاحية ناجحة ومؤثرة لتدارك أسباب هذه الآثار في الوقت المناسب، وقبل فوات الأوان، وهنا فقط يكون هذا الأَجَل حتمياً، وغير قابل للتخلُّف، سُنَّة الله ـ تعالى ـ التي خلت في عباده، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً.

ـ صفات المصلحين:

ولكن ما هي صفات هؤلاء الصالحين المصلحين الذين يرفع الله ـ تعالىٰ ـ بهم العذاب عن الأمم إذا انتشروا فيها، وتفاعل الناس واستجابوا لدعوتهم

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (١٢/ ٢٣٠ـ٢٣١، ٢٤٧، ٨/ ٢٩٣، ٣١٤، ٢/ ٤٥٨).

(٢) سورة هود: ١١٦.

(٣) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٤٤).

وأَمْرِهم ونَهْيِهِم قبل استحكام الأمراض والأوبئة الاجتماعية والحضارية ؟ وهنا يجيبنا رشيد رضا بالقول بأنهم هم العلماء العاملون «الجامعون بين العلم بسُنن الله في الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حب الإصلاح وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات»[١]، «وهم المتقون الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]، وإن الله لا يحفظ الأمم بذواتهم وبركة أجسادهم، ولا بعباداتهم الشخصية القاصرِ نَفْعُهَا عليهم، بل بأَمْرِهم بالمعروف، ونَهْيِهِم عن المنكر، وطاعة الأمة لهم»[٣].

وأخيراً لم يغب عن بال رشيد رضا، وهو العالم المصلِح، أن يطلق صيحات التنبيه والتحذير لأمته الإسلامية، داعياً رجال الإصلاح المخلصين فيها أن يبادروا إلى تبصير الأمة بانحرافاتها وأخطائها، ويجمعوها من جديد حول منهج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي ارتضاه للتغيير، فها هو يقول: «فلينظر القارىء أين مكان الشعوب الإسلامية من هذه العبرة، وقد ثُلَّت عروشُها، وخوتْ صروح عظمتها على عروشها، وكانت أجدر الشعوب بمعرفة سُنن الله في هلاك الأمم واتقائها، وأسباب حفظ الدول وبقائها، فقد أرشدها إليه القرآن الكريم، فمتىٰ تنتشر دعوة المصلحين أُولي الاستقلال، فتجمع الكلمة بما أُوتيت من الحكمة والاعتدال على قول الكبير المتعال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[٤]»[٥].

---

(١) «تفسير المنار» (٦/ ٣٣٨).
(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.
(٣) «تفسير المنار»، (١٢/ ٢٤٥).
(٤) سورة الرعد: ١١.
(٥) «تفسير المنار» (٨/ ٣١٤).

الخاتمة

تتوزع خاتمة هذه الدراسة على المحاور الجزئية التالية:

١ـ محاولة في تقييم مفهوم السُّنن الإلهية ومكانته عند رشيد رضا في «تفسير المنار»:

يوجد دائماً مدخل فكري يمكن النفاذ منه إلى كل نظرية أو خطاب فكري، وبمقدار ما يكون هذا المدخل دقيقاً وصحيحاً، يكون تحليل ودراسة هذه النظرية أو هذا الخطاب أكثر مصداقية وعلمية، واقتراباً من الواقع والحقيقة[١]، على ضوء هذه المقولة الفكرية، وعلى ضوء كل ما سبق دراسته وتحليله من أفكار رشيد رضا، يمكن أن نقول باطمئنان في خاتمة هذا البحث: إنّ المدخل المنطقي لعموم خطاب رشيد رضا الإصلاحي ـ كما هو معروض في تفسيره ـ هو مفهوم السُّنن الإلهية، فقد اتخذ منه قاعدةً لتحليل ومعالجة كل المسائل والقضايا التي اجتهد في سبيل تحقيق الحق فيها وبيانه في حياته كلها، من أمور العقيدة، والعلاقة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، إلى أمور وقضايا الإنسان باعتباره فرداً ومجتمعاً وأمة.

وقد لاحظ الباحث بعد استقراء ودراسة «تفسير المنار» بأكمله: أنّ الدافع

---

(١) انظر: «فلسطين والمشروع النهضوي العربي: قراءة في أفكار خالد الحسن»، نصر محمد عارف، في مجلة «الدراسات الفلسطينية»، (٤٢/ ربيع ٢٠٠٠م)، (٩٣ـ٩٤).

وراء اهتمام رشيد رضا البالغ بمفهوم السُّنن الإلهية، يعود إلى تشخيصه لأزمات الأمة الإسلامية في عصره، ومحاولته طرح الحلول المناسبة لتجاوز هذه الأزمات، وبناءً على هذا الأساس، وضمن هذه الرؤية، أَوْلى رشيد رضا اهتماماً كبيراً بالسُّنن الإلهية؛ لأن تقصير المسلمين في دراسة هذه السُّنن، أدَّى في نظره ـ بالإضافة إلى أسباب أخرىٰ ـ إلى تراجعهم الحضاري، وانكسار شوكتهم بين الأمم، وقد أشار رشيد رضا مرّات عديدة، وبأسلوب جازمٍ، إلى أنّ المسلمين لن يستأنفوا دورهم الحضاري إلا إذا أعطوا دراسة واستنباط السُّنن الإلهية في الكون والتاريخ والمجتمعات والأمم مكانها اللائق بها، جنباً إلى جنب مع بقية العلوم الشرعية الأخرى.

وهكذا يمكن أن نقول: إنّ حضور مفهوم السُّنن الإلهية عند رشيد رضا في «تفسير المنار»، حضور محوري ورئيسي، ويمكن أن نقول أيضاً: إنّ توظيف رشيد رضا لهذا المفهوم هو محاولة منه لفهم ظاهرة التقدُّم في أوربة التي اكتشفت كثيراً من هذه السُّنن في الكون والمجتمعات، وسخّرتها لمصالحها، وظاهرة التأخُّر والركود التي عمّت العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين بسبب تقاعس المسلمين عن دراسة هذه السُّنن التي هداهم القرآن الكريم إليها، ودلَّهم على نماذجها وقوانينها الرئيسة، لذلك فقد كان هدف رشيد رضا ـ من تكرار الحديث عن هذه السُّنن ـ إرشاد المسلمين إلى طريق النهضة، بعيداً عن التخبط والارتجال والتفكير السطحي والخرافي، فلا يوجد طريق للتقدم إلا الطريق الذي سَنَّه الله ـ تعالىٰ ـ للبشر من خلال أوامره التكليفية (الكتاب والسُّنّة)، وأوامره التكوينية (السُّنن الإلهية)، ومن هنا كانت دعوة رشيد رضا الإصلاحية تستند إلى العودة إلى الكتاب والسُّنّة من جهة، وإلى الأخذ بالسُّنن الإلهية العاملة في الكون والإنسان والمجتمعات والأمم من جهة أخرىٰ، وأي تقصير في أحدهما، فسوف يحول بين الأمة الإسلامية، وبين ما ترجوه لنفسها من السيادة والاستقلال والتقدّم.

وهنا نريد أن نشير إلى أنَّ رشيد رضا قد جعل معرفة سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه إحدى الوسائل الضرورية من أجل فهم واستنباط معاني القرآن الكريم، وهذا الأمر لم نعهده عند أحدٍ من قبله من المفسرين[1] ـ ما خلا أستاذه محمد عبده طبعاً ـ فهذه إذاً إضافة منهجية أضافها رشيد رضا في مجال الأدوات والمناهج العلمية المعتمدة في دراسة وتفسير القرآن الكريم، وتكتسب هذه الإضافة المنهجية قيمتها من خلال اعتمادها المباشر على نصوص الكتاب والسُّنة في تأصيل مشروعيتها العلمية، وهكذا يمكننا أن نعُدَّ رشيد رضا أحد رائديْ مدرسة التفسير السُّنني في العصر الحديث[2].

وقد لاحظنا ـ من خلال دراسة وتحليل موقف رشيد رضا لعلاقة السُّنن الإلهية بقضايا ومسائل العقيدة الإسلامية ـ تصميماً واضحاً لديه للخروج من دائرة الجدل الكلامي القديم الذي دار حول هذه المسائل، واستبدال هذا الجدل باستدعاء منهج السلف في مقاربة هذه القضايا.

ويمكننا تلخيص عناصر هذا المنهج بالعودة إلى كامل نصّ القرآن الكريم؛ أي: فهم المسائل المدروسة في ضوء جميع النصوص القرآنية المتعلقة بهذه المسألة، والاستفادة بعد ذلك بما جاء في السُّنّة النبوية الشريفة في هذه المسألة، مع ملاحظة مُقتضيات النظم البياني للقرآن الكريم، وقواعد اللسان

(١) صرّح رشيد رضا بوضوح شديد بانفراد تفسيره بين بقية التفاسير السابقة عليه، بالكلام على السُّنن الإلهية، فها هو يقول في مجلة المنار: «إننا بفضل الله قد انفردنا ـ دون سائر المفسرين ـ بالكلام على هذه السُّنن والنظام الإلهي في تفسيرنا ومجلتنا»، مقالة «**السُّنن الكونية والاجتماعية ونظام الكون**»، في مجلة المنار، (١٣٢) (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، (٣٣).

(٢) يمكننا أن نذكر من بين التفاسير الحديثة التي تبنت المنهجية السُّننية في عملها، تفسير سيّد قطب، «**في ظلال القرآن**»، وكذلك ما فعلته حنان اللحام في تفسيرها لمجموعةٍ من سور القرآن الكريم منها سورة البقرة، آل عمران، طه، لقمان، . . .

العربي، كل هذا بالإضافة إلى الحرص الواعي على إزالة أي وهم بين ما يمكن أن نفهمه من معاني القرآن الكريم، وبين مقتضيات السُّنن الإلهية، على اعتبار أن هذه السُّنن هي قرار إلهي صرف، ومشيئته إلهية خالصة، أرادها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذا الكون، فلا يمكن في أي حال من الأحوال أن تتعارض هذه المشيئة مع مشيئةٍ أخرىٰ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في نصوص كتابه الحكيم، أو على لسان نبيه الكريم ﷺ.

إذاً فمسألة عدم إمكانية تعارض المشيئة الإلهية مع بعضها هي المرتكز العقائدي الذي اعتمد عليه رشيد رضا في إزالة أي وهم بالتعارض بين السُّنن وقضايا العقيدة، وبناءً على هذا الفهم، فإنه يمكننا أنْ نستنتج أنَّ رشيد رضا قد جعل السُّنن الإلهية أحد المعايير الكبرىٰ للتأكد من صحة فهمنا لمعاني القرآن الكريم وقضايا العقيدة.

وعلى مستوىٰ آخر، فإننا لم نلحظ أي تغيير ذي بال في نظرة رشيد رضا للسُّنن الإلهية، وتحمسه لها في كل مراحل تفسيره، الأمر الذي يدل دلالةً قاطعةً على أن استيعاب رشيد رضا لمضامين السُّنن الإلهية، وإيمانه بها، كان أمراً منتهياً بالنسبة إليه قبل البدء بتفسيره من حيث المبدأ، ويمكننا أن نردَّ هذا الإيمان بسهولة إلى الأثر العميق الذي تركته فيه صحبته لأستاذه محمد عبده لمدة سبع سنوات، بل إلىٰ قبل ذلك من خلال قراءة رشيد رضا لأعداد مجلة **«العروة الوثقىٰ»** في أثناء وجوده في مدينة طرابلس، وقبل وصوله إلى مصر[1]، ولكن عمق تأثر رشيد رضا بأفكار أستاذه، لا يعني في حال من الأحوال أن

---

(١) يقول رشيد رضا: «إن مسلك جريدة «العروة الوثقىٰ» في الدعوة إلى الإصلاح الإسلامي ـ من طريق إرشاد القرآن، وبيانه لسنن الله ـ تعالىٰ ـ في الإنسان والأكوان ـ فتح لي في فهم القرآن باباً، لم يأخذ بحلقته أحد من المفسرين المتقدمين»، «**تفسير المنار**» (١٠/ ٤١).

نسلبه قيمته ومكانته العلميّة الخاصة به، ولا يعني أبداً أن نسهم في الجناية عليه كما فعل كثيرون، وادّعوا ظلماً أنه ليس أكثر من مجرّد ناقل بسيط لأفكار شيخه، بل بالغ بعضهم وادّعىٰ أنه ناقل مشوِّه لهذه الأفكار، وأنَّ ضيق الأفق والجمود قد أصابا فكره بعد وفاة عبده[1].

في الحقيقة إنَّ كل هذه الادِّعاءات لا تصمد لحظة أمام الاطّلاع على الجهد النوعي الذي بذله رشيد رضا في شتىٰ ميادين الإصلاح والفكر، وبشكل خاص في ميدان السُّنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم بها، ولعل من الأدلة الناصعة على ذلك أنني في هذه الرسالة لم أقم فعلياً إلا بتحليل أفكار رشيد رضا الخاصة به، ولم أقم بالنقل عن شيخه عبده إلا في القليل النادر[2]، وقد وقفنا ـ عبر هذا التحليل ـ على مدىٰ وضوح شخصية رضا الفكرية، وعمقها وثرائها، وهو الأمر الذي يؤكد مدى تهافت الادِّعاءات السابقة، وخصوصاً إذا علمنا بأن هذا التحليل لم يتناول إلا مجالاً واحداً من مجالات فكره الإصلاحي، فكيف يكون الأمر إذا حاولنا استيعاب المجالات الأخرىٰ التي خاض غمارها رشيد رضا، وأَبلى فيها بلاءً حسناً ومتميزاً، إنْ في مجال الصحافة الإسلامية، أم العقيدة، أم العلوم الشرعية، أم في مجال الاهتمام بمشاكل المسلمين المعاصرة على المستوىٰ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي[3]، وأكبر الظّن عندي أنَّ سبب

---

(١) للوقوف على نماذج من هذه الادعاءات انظر: **«الإنسان والقرآن: التفاسير القرآنية المعاصرة، قراءة في المنهج»** أ. حميدة النيفر، دمشق، دار الفكر، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، (٦٢ـ٦٥)، وانظر أيضاً: **«تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار»**، محمد صالح المراكشي (١٥ـ١٦، ٤٧١ـ٤٨٧).

(٢) عندما كنت أجد نفسي مضطراً لنقل بعض عبارات محمد عبده، كنتُ أشير إلى ذلك بوضوحٍ تامٍّ حرصاً مني على تمييز وإبراز الجهد الكبير الذي قام به رشيد رضا بمعزل عن جهود أستاذه.

(٣) للوقوف على مدىٰ عمق واتساع دائرة اهتمامات وإنجازات رشيد رضا العلمية، انظر: =

الهجوم الظالم على رشيد رضا ومكانته العلمية، ودوره البارز في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث، هو وضوح العاطفة والانتماء الديني عنده بشكل لافت للنظر، وبسبب دعوته المُلحَّة للتمسك بالإسلام بشكل متكامل بدءاً بالعقيدة والعبادة، وحتى قيام المجتمع الإسلامي الراشد، وأظن أن أهمَّ ماأزعج هؤلاء الدارسين، هو أنَّ رشيد رضا كان يدعو دعوة واضحة حاسمة ـ وبشكل مفصَّل ـ إلى استعادة وبناء الدولة الإسلامية، وهو الأمر الذي يرفضونه جملة وتفصيلاً[1].

٢ـ استعراض عام للمحاولات الفكرية الحديثة في دراسة السُّنن الإلهية والدعوة إليها:

وقبل أن نُنهي الحديث عن جهود رشيد رضا في دراسة السُّنن الإلهية، تجدر الإشارة إلى أنَّ جهوده الكبيرة والمخلصة في هذا المجال لم تذهب سُدىٰ بعد وفاته، بل تلقّفها علماء ومفكرون اختاروا السير على الطريق نفسه الذي سار عليه من قبلُ، طريق الإصلاح والتجديد الإسلامي الأصيل المنطلِق من ثوابت الإسلام وأصوله الراسخة، والملتزِم بقضايا الأمة وهمومها، والمنشغِل بمصيرها ومستقبلها الحضاري.

وكانت قضية السُّنن التي يعود ـ كما قلنا ـ الفضل الأكبر في بيانها وتفصيلها في العصر الحديث إلى رشيد رضا، ومن قبله شيخه محمد عبده، هي الموقد الذي اقتبسوا منه الشرارة الأولىٰ في سعيهم لتحرير العقل المسلم من الأوهام

= تمهيد الباب الثاني في هذه الرسالة.

(١) أُشير هنا بشكل محدَّد إلى كتاب رضا: «**الخلافة أو الإمامة العظمى**»؛ حيث لم يدَّخر جهداً في الدعوة إلى استعادة الخلافة الإسلامية، وبيان كل مقوّمات هذه الخلافة الشرعية ومستنداتها التاريخية، إبَّان الإعلان عن إلغاء الخلافة العثمانية في الآستانة.

والخرافات الدخيلة عليه، التي سبَّبت له العطالة والجمود[1] بسبب ظروف وملابسات تاريخية عديدة ـ لا مجال لسردها هنا ـ، وهذا الجمود هو الذي جرَّ على الأمة كلها أزمات حضارية كانت في غِنًى عنها لو لم تقع أسيرة هذه الظروف.

وهكذا فإنَّ الساحة الفكرية الإسلامية قد شهدت منذ عدة عقود، وما زالت تشهد أسماءً فكرية لامعة[2]، قدَّمت إسهامات لا غنىٰ عنها في دفع قضية السُّنن الإلهية إلى دائرة الضوء في الفكر الإسلامي المعاصر، وقد أجمع هؤلاء المفكرون على دعوة المسلمين إلى دراسة السُّنن الإلهية والأخذ بها، بل قام بعضهم بربط مصير المسلمين ونهضتهم من كبوتهم الراهنة بمدى وجِدِّيَّة اهتمامهم ودراستهم لعلم السُّنن الإلهية، ومدى التزامهم العملي بقواعد ونتائج هذا العلم[3].

وقد لاحظنا ـ في الآونة الأخيرة ـ توسع دائرة الاهتمام بالسُّنن الإلهية،

---

(١) من أجل الوقوف على مدىٰ تأثير واستفادة هؤلاء المفكرين من تراث رشيد رضا، انظر على سبيل المثال: «**سر تأخر العرب والمسلمين**» محمد الغزالي، دمشق، دار القلم، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، (١٣ـ١٤)، وانظر أيضاً: «من **فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**»، عمر عبيد حسنة، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، (٩١ـ٩٢).

(٢) أذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ من بين هذه الأسماء: محمد إقبال، مالك بن نبي، محمد باقر الصدر، جودت سعيد، محمد قطب، محمد الغزالي، عماد الدين خليل، عمر عبيد حسنة، عبد الكريم زيدان، عبد الحليم عويس. . . .

(٣) انظر: «**حتى يتحقق الشهود الحضاري**»، عمر عبيد حسنة، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، (٧٦)، وانظر أيضاً: «**تفسير التاريخ علمٌ إسلامي: نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ**»، عبد الحليم عويس القاهرة، دار الصحوة، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، (٦).

وانتقال هذا الاهتمام من حيِّز ومستوىٰ توضيح المفهوم وتأصيله الشرعي والدعوة إلى الأخذ به، إلى مستوىٰ دراسة بعض القضايا المهمة في ضوء هذا المفهوم[1].

هذا بالإضافة إلىٰ أننا قد لاحظنا أيضاً بروز ظاهرة الاهتمام الجماعي بهذا المفهوم، فقد بدأت بعض المعاهد العلمية والمؤسسات الفكرية، تعقد ـ ولو بشكل متواضع ـ بعض الندوات والحلقات الدراسية لمناقشة هذا المفهوم وإثرائه، ومحاولة ربطه بواقع المسلمين الحالي كأحد البدائل الضرورية للنهوض بهذا الواقع، وتغييره نحو الأفضل[2].

ونحن ـ في هذا المقام ـ نرجو من الله ـ تعالىٰ ـ أن يتوالى هذا الاهتمام ويتضاعف كمّاً وكيفاً من قِبَل أفراد الباحثين، ومن قِبل المؤسسات ومراكز البحث العلمي على السواء حتى يتحول هذا الاهتمام إلى ظاهرة شعبية جماهيرية تعم العالم الإسلامي كله؛ لأن الفائدة الحقيقية من دراسة هذه السُّنن لا تظهر إلا إذا أصبح مفهومها في متناول وعي جمهور الناس العاديين، وبدأت

---

(١) أذكر هنا ـ على سبيل المثال كتاب: «**أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**»، أحمد كنعان، م.س. وكتاب «**ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سُننية**»، خالص جلبي، ط٢، عمّان، دار البشير، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، وكتاب «**سُنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**»، محمد هيشور، القاهرة، المعهد العالي للفكر الإسلامي، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

(٢) أذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ المحاضرات، وحلقات النقاش الدراسية التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مكتبه في القاهرة حول سُنن الله ـ تعالى ـ في الآفاق والأنفس عام(١٩٩٠م)، وحول السُّنن الاجتماعية والتغيير الحضاري عام (١٩٩٤م)، انظر كتاب: «**قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر**»، تحرير وإشراف نصر محمد عارف، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، (١٨٣ـ٢٠١).

آثاره تتسرب إلى سلوكهم، وأسلوب حياتهم اليومية، فعامة الناس وجمهورهم العريض هم مادة التغيير والإصلاح المطلوب، وهم في الوقت نفسه المستفيدون الأكثر من انتشاره وظهور نتائجه وثمراته الفعليّة في المجتمعات الإسلامية.

٣ـ مقترحات البحث:

١ـ يقترح الباحث القيام بدراسات علميّة، وتخصيص رسائل جامعيّة؛ للتوسع في دراسة مفهوم السُنن الإلهية، سواءٌ في مصادر الإسلام: القرآن الكريم، والسُنَّة النبوية الشريفة، والسيرة المطهَّرة، أم عند مفكري الإسلام وعلمائه عبر تاريخه الطويل، وحتىٰ أيامنا الراهنة؛ لزيادة حضور هذا المفهوم المركزي في الوعي الإسلامي الحاضر، وزيادة إمكانية الأخذ به في مناحي الفكر والحياة والواقع المختلفة.

٢ـ كما يقترح إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ـ وبشكل خاص العهود الإسلامية الأولىٰ ـ على ضوء مفاهيم سُنن الله ـ تعالى ـ في الخلق، من أجل الوقوف بدقة علىٰ عوامل النهوض والسقوط الحضاري من خلال التجربة التاريخية الإسلامية[١].

٣ـ إدخال وتعميم مادة دراسية مختصة بـ (علم السُنن الإلهية) على جميع المعاهد والكليات الجامعية دون استثناء، حتى يلتئم الصدع الموجود ـ في أذهان الأساتذة والطلاب على السواء ـ بين الإسلام، وبين العلوم الكونية

---

(١) انظر نموذجاً لهذه الإعادة كتاب: «**هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس**»، ماجد عرسان الكيلاني، عمّان، دار الفرقان (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، (٣٧١ـ٤٣٥)؛ حيث استخلص المؤلف في هذه الصفحات القوانين والسُّنن التاريخية التي تمت بموجبها عملية استعادة القدس واستنقاذها من يد الصليبيين.

والإنسانية والاجتماعية، وحتى تعود إلى الوعي الإسلامي وحدته وتكامله، وتتعاون جميع الجهود العلمية على اختلافها في سبيل إغنائه وتجديده.

٤ـ إدخال دراسة التاريخ وعلوم الاجتماع والتربية والنفس والسياسة ـ ولو بشكل عام ـ إلى مناهج كليات الشريعة والدراسات الإسلامية، بعد التنبيه ولفت الأنظار إلى دور هذه العلوم وأهميتها البالغة في الكشف عن سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في الأنفس والمجتمعات المطلوبة شرعاً.

٥ـ لاحظ الباحث في أثناء دراسته لتفسير المنار وفرةَ وشمول المادة العلمية المتعلّقة بموضوع سُنن الله ـ تعالىٰ ـ في نهوض الأمم وسقوطها، لذلك فهو يقترح أن تخصص في المستقبل رسالة جامعية في هذا الموضوع حصراً، لِما له من أهمية علمية وتاريخية من جهة، ولما له من علاقة مباشرة مع واقعنا الراهن في العالم الإسلامي الذي يشهد أوضاعاً تاريخية أشبه ما تكون بتلك الأوضاع التي كتب رشيد رضا تفسيره في أجوائها.

ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





فهارس الكتاب

أولاً ـ فهرس الآيات القرآنية الكريمة
ثانيا ـ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
ثالثاً ـ فهرس الأعلام .
رابعاً ـ فهرس المصادر والمراجع
خامساً ـ فهرس الموضوعات



أولاً

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

❑ ❑ ❑

ثانياً
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

❑ ❑ ❑

ثالثاً

فهرس الأعلام

(*) لم أذكر في هذا الفهرس اسم رشيد رضا لوروده في معظم صفحات الرسالة تقريباً.

- حرف الخاء -

- حرف الدال -

- حرف الراء -

- حرف الزاي -

- حرف السين -

- حرف الشين -

- حرف الصاد -

- حرف الطاء -

- حرف العين -

- حرف الغين -

- حرف الفاء -

❑ ❑ ❑

رابعاً

فهرس المصادر والمراجع

أولاً

المؤلفات القديمة

الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)، **«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»**، نشر هلموت ريتر، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، **«الجامع الصحيح»**، ضبط وتعليق مصطفى ديب البغا، دمشق، دار القلم (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)،

الترمذي، محمد بن عيسىٰ (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، **«الجامع الصحيح»**، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، **«اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»**، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

ـ **«جامع الرسائل»**، تحقيق محمد رشاد سالم، ط٢، جدّة، مطبعة المدني، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

ـ **«مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية»**، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

الجرجاني: علي بن محمد (ت٩١٦هـ/ ١٤١٣م)، **«التعريفات»**، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

ابن حبّان: أبو حاتم محمد بن حبّان، (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، **«صحيح ابن حبّان»**، تحقيق شُعيب الأرناؤوط وحسين أسد، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، «**الرد على الكندي الفيلسوف**»، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٨٣م).

ـ «**رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل**»، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٨٧م).

ـ «**طوق الحمامة في الألفة والألاف**»، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط٢، (١٩٧٨م).

ـ «**الفِصَل في المِلل والأهواء والنِّحَل**»، بيروت، دار المعرفة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، «**مقدمة ابن خلدون**»، تحقيق علي عبد الواحد، ط٣، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.

الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، «**سُنن الدارمي**»، طُبِع بعناية محمد أحمد دهمان، دمشق، المطبعة الحديثة، (١٣٤٩هـ).

أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٩م)، «**السُّنن**»، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، حمص، دار الحديث، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م)، «**سير أعلام النبلاء**»، تحقيق شُعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، «**مفردات ألفاظ القرآن**»، تحقيق صفوان عدنان داودي، دمشق ـ بيروت، دار القلم ـ الدار الشامية، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

الزمخشري، محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، «**أساس البلاغة**»، بيروت، دار الفكر، د.ت.

ـ «**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**»، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، «**الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**»، تحقيق أحمد بن محمد الخراط، دمشق، دار القلم، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد (ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، «**العقود الدرّية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**»، تحقيق محمد حامد الفقي، الرياض، مكتبة المؤيد، د.ت.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، «**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**»، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت.

- «**القاموس المحيط**»، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

الفيّومي، أحمد بن محمد (ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م)، «**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**»، ط٦، القاهرة، المطبعة الأميرية، (١٩٢٦م).

القرطبي، محمد بن أحمد (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، «**الجامع لأحكام القرآن**»، تحقيق محمد إبراهيم الحفناوي ومحمود حامد عثمان، ط٢، القاهرة، دار الحديث، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، «**تفسير القرآن العظيم**»، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

ابن ماجه، محمد بن يزيد (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، «**السُّنن**»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

مالك، الإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، «**الموطأ**»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، «**الجامع الصحيح**»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، دار إحيار التراث العربي، (١٩٧٢م).

ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١٦هـ/ ١٣١١م)، «**لسان العرب**»، بيروت، دار صادر، د.ت.

ثانياً
المؤلفات الحديثة

إبراهيم، محمد إسماعيل، **«معجم الألفاظ والأعلام القرآنية»**، تقديم عبد الصبور شاهين، ط٣، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت.

أبو جيب، سعدي، **«القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً»**، دمشق، دار الفكر، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

أبو حمدان، سمير، **«الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل»**، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

أبو زهرة، محمد، **«ابن تيمية: حياته وعصره ـ آراؤه الفقهية»**، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، (١٩٥٨م).

ـ **«ابن حزم: حياته وعصره ـ آراؤه الفقهية»**، القاهرة، دار الفكر العربي، (١٩٩٧م).

الأبيض، أنيس، **«رشيد رضا: تاريخ وسيرة»**، طرابلس، دار جروس بروس، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

أرسلان، شكيب، **«السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة»**، دمشق، مطبعة ابن زيدون (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)،

إسماعيل، زكي محمد، **«نحو علم اجتماع إسلامي»**، ط٢، الإسكندرية، دار المطبوعات الجديدة، (١٩٨٩م).

امزيان، محمد، **«منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية»**، ط٢، الرياض، فيرجينيا، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

أمين، أحمد، **«زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث»**، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٩٧٩م).

أمين، شرف الدين عبد الحميد، **«ابن حزم الأندلسي: نقد العقل الأصولي»**، الكويت، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، (١٩٩٥م).

إيبش، يوسف، «**رحلات الإمام محمد رشيد رضا**»، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٧٩م).

بدوي، عبد الرحمن، «**مؤلفات ابن خلدون**»، ط٢، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

البراوي، راشد، «**التفسير القرآني للتاريخ**»، ط٢، القاهرة، دارالنهضة العربية، (١٩٧٦م).

البوطي، محمد سعيد رمضان، «**الإنسان مسيَّر أم مخيَّر**»، دمشق، دار الفكر، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

التفتازاني، أبو الوفا «**علم الكلام وبعض مشكلاته**»، القاهرة، دار الثقافة، (١٩٧٩م).

التومي، محمد، «**المجتمع الإنساني في ظل القرآن الكريم**»، تونس - الجزائر، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

تيمور، أحمد، «**أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث**»، القاهرة، لجنة المؤلفات التيمورية، (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

الجابري، محمد عابد، «**المشروع النهضوي العربي: مراجعة نقدية**»، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (١٩٩٦م).

جدعان، فهمي، «**أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث**»، ط٣، عمّان، دار الشروق، (١٩٨٨م).

جزماتي، حسام، «**الإصلاح في تفسير المنار**»، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف زكريا عبد الرزاق المصري، بيروت، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

جلبي، خالص، «**ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سُننية**»، ط٢، عمّان، دار البشير (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

حرفوش، بطرس «إشراف»، «**المنجد في الأعلام**»، ط١٠، بيروت، دار المشرق، د.ت.

حسنة، عمر عبيد، «**الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية**»، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

ـ «**حتىٰ يتحقق الشهود الحضاري**»، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).

ـ «**رؤية في منهجية التغيير**»، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

ـ «**الشاكلة الثقافية: مساهمة في إعادة البناء**»، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

ـ «**مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**»، ط٢، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

ـ «**من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**»، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

الحصري، ساطع، «**حول الوحدة الثقافية العربية**»، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (١٩٨٥م).

خفاجي، محمد عبد المنعم، «**موسوعة ألفاظ القرآن الكريم**»، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، (١٩٨٨م).

خليل، عماد الدين، «**ابن خلدون إسلامياً**»، ط٢، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٤١٥هـ/ ١٩٨٥م).

ـ «**التفسير الإسلامي للتاريخ**»، بيروت، دار العلم للملايين، (١٩٧٥م).

داغر، يوسف، «**مصادر الدراسة الأدبية**»، لبنان، منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، (١٩٥٦م).

درنيقة، محمد، «**السيد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية**»، بيروت، طرابلس، مؤسسة الرسالة ـ دار الإيمان، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

الذهبي، محمد حسين، «**التفسير والمفسرون**»، ط٢، القاهرة، دار الكتب الحديثة، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

رضا، محمد رشيد، «**تفسير القرآن الحكيم**»، الشهير بتفسير المنار، ط٢، بيروت، دار المعرفة، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

الركابي، إياد، «**السُّنن التاريخية في القرآن المجيد**»، بيروت، دار النهضة الإسلامية، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

الزركلي، خير الدين، «**الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**»، ط٦، بيروت، دار العلم للملايين، (١٩٨٤م).

الزعبي، أنور خالد، «**ظاهرية ابن حزم الأندلسي: نظرية المعرفة ومناهج البحث**»، عمّان، منشورات وزارة الثقافة، (١٩٩٥م).

زيادة: معن، «محرِّر»، «**الموسوعة الفلسفية العربية**»، بيروت، معهد الإنماء العربي، (١٩٨٦م).

زيدان، عبد الكريم، «**السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**»، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

الزين، محمد حسني، «**منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري**»، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

الساعاتي، حسن، «**علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج**»، ط٤، القاهرة، دار المعارف، (١٩٧٨م).

السامرّائي، حسيب، «**رشيد رضا المفسِّر**»، بغداد، دار الرسالة للطباعة، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

سعيد، جودت، «**حتىٰ يُغيّروا ما بأنفسهم**»، تقديم مالك بن نبي، ط٦، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

سلمان، سمير، «**خطاب الكلمة في القرآن**»، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

السمالوطي، نبيل، «**المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع: دراسة في علم الاجتماع الإسلامي**»، السعودية، دار الشروق، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

شحاته، عبد الله، «**منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم**»، القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية، (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م).

الشرقاوي، عفّت، «**في فلسفة الحضارة الإسلامية**»، ط٤، بيروت، دار النهضة العربية، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

الشرقاوي، محمود، «**التفسير الديني للتاريخ**»، كتاب الشعب، مطبوعات الشعب، دون معلومات نشر.

الشوابكة، أحمد فهد، «**محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية**»، عمّان، دار عمار، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

الشيباني، محمد بن إبراهيم، «**أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله**»، الكويت، مكتبة ابن تيمية، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

شيخ الأرض، تيسير، «**ابن خلدون**»، بيروت، دار الأنوار، (١٩٦٦م).

صافي، لؤي، «**إعمال العقل: من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية**»، دمشق، دار الفكر، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

الصدر، محمد باقر، «**السُّنن التاريخية في القرآن**»، أعاد صياغته محمد جعفر شمس الدين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)،

عارف، نصر محمد «محرِّر»، «**قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر**»، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

عبد الباقي، محمد فؤاد، «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**»، ط٢، بيروت، دار المعرفة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

عبد الرزاق، مصطفىٰ، «**خمسة من أعلام الفكر الإسلامي**»، بيروت، دار الكاتب العربي، د.ت.

عبده، محمد، «**الإسلام دين العلم والمدنيّة**»، تحقيق عاطف العراقي، القاهرة، دار قباء، (١٩٩٨م).

ـ «**دروس من القرآن الكريم**»، القاهرة»، كتاب الهلال، عدد (٩٦)، (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).

عثمان، محمد فتحي، «**المدخل إلى التاريخ الإسلامي**»، بيروت، دار النفائس، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

العدوي، إبراهيم أحمد، «**رشيد رضا الإمام المجاهد**»، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب رقم (٣٣)، (١٩٦٤م).

عرجون: محمد الصادق، «**سُنن الله في المجتمع من خلال القرآن**»، جدّة، منشورات العصر الحديث، (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).

ـ «**محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج بحث ورسالة: بحث وتحقيق**»، ط٢، دمشق، دار القلم، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

عمارة، محمد، «**الإمام محمد عبده مجدّد الإسلام**»، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٨١م).

ـ «**المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية**»، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (١٩٧٢م).

عويس، عبد الحليم، «**ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري**»، ط٢، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).

ـ «**تفسير التاريخ علمٌ إسلامي: نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ**»، القاهرة، دار الصحوة، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

ـ «**الشيخ محمد الغزالي: تاريخه وجهوده وآراؤه**»، دمشق، دار القلم، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

الغزالي، محمد، «**سر تأخر العرب والمسلمين**»، دمشق، دار القلم، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

ـ «**علل وأدوية**»، ط٢، دمشق، دار القلم، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

ـ «**كيف نتعامل مع القرآن**»، في مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة، ط٤، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

فرّوخ، عمر، «**ابن حزم الكبير**»، بيروت، دار لبنان، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

القاسمي، ظافر، «**جمال الدين القاسمي وعصره**»، دمشق، مكتبة أطلس، (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

القرضاوي، يوسف، «**العقل والعلم في القرآن الكريم**»، القاهرة، مكتبة وهبه، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

كحالة، عمر رضا، «**معجم مصنفي الكتب العربية في التاريخ والتراجم والجغرافية والرحلات**»، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

كرد علي، محمد، «**المعاصرون**»، علّق عليه محمد المصري، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م).

الكردي، محمود السعيد، «**ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي**»، طرابلس ـ ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (١٩٨٤م).

كنعان، أحمد، «**أزمتنا الحضارية في ضوء سُنة الله في الخلق**»، بيروت، دار النفائس، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

كوثراني، وجيه، «**مختارات سياسية من مجلة المنار**»، بيروت، دار الطليعة، (١٩٨٠م).

الكيلاني، ماجد عرسان، «**هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**»، عمّان، دار الفرقان، (١٣١٩هـ/ ١٩٩٨م).

مجمع اللغة العربية، «**معجم ألفاظ القرآن الكريم**»، ط٢، القاهرة، مجمع اللغة العربية، د.ت.

المراكشي، محمد صالح، «**تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار ١٨٩٨ـ١٩٣٥**»، تونس، الدار التونسية للنشر، (١٩٨٥م).

المصري، زكريا عبد الرزاق، «**أهمية التوحيد وخطر الشرك**»، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

مصطفىٰ، إبراهيم، وآخرون، «**المعجم الوسيط**»، ط٣، دمشق، تصوير مكتبة النوري، د.ت.

المطهري، مرتضىٰ، «**المجتمع والتاريخ**»، بيروت، دار المرتضىٰ، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

المطيري، منصور، «**الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع: الدواعي والإمكانيات**»، تقديم عمر عبيد حسنة، الدوحة ـ قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، من سلسلة كتاب الأمة رقم (٣٣)، (١٤١٣هـ).

المغربي، علي عبد الفتاح، «**إمام أهل السُّنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية**»، القاهرة، مكتبة وهبة، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

موسىٰ، محمد يوسف، «**القرآن والفلسفة**»، ط٤، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

ابن نبي، مالك، «**دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين**»، بيروت، دار الفكر، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

ـ «**شروط النهضة**»، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

نصّار: ناصيف، «**مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ: دراسة في مدلول الأمة في التراث الإسلامي**»، ط٣، بيروت، دار الطليعة، (١٩٨٣م).

نويهض، عادل، «**معجم المفسِّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**»، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

النيفر، احميده، «**الإنسان والقرآن: التفاسير القرآنية المعاصرة، قراءة في المنهج**»، دمشق، دار الفكر، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

هيشور، محمد، «**سُنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**»، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

اليزدي، محمد تقي مصباح، «**النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ**»، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، بيروت، دار الروضة، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

ثالثاً
الدوريات

رضا، محمد رشيد، «ربّنا أطعنا سادتنا وكبراءنا، في مجلة المنار»، القاهرة، ١(٣٢/١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م)، (٦٠٩ـ٦١٠).

ـ «السُّنن الكونية والاجتماعية ونظام الكون، في مجلة المنار»، القاهرة، ٣٢(١/ ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، (٣٣ـ٤٨).

عارف، نصر محمد، «فلسطين والمشروع النهضوي العربي: قراءة في أفكار خالد الحسن»، في مجلة «الدراسات الفلسطينية»، بيروت، (٤٢/ ربيع ٢٠٠٠م)، (٩٠ـ١١٨).

العطية: خالد، «مدخل إلى رحاب الصّدر»، في «مجلة المنهاج»، بيروت، ٥(١٧ـ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، (٦ـ١٢).

فرحات، أحمد حسن، «سُنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول»، في «مجلة كلية الدراسات الإسلامية»، دبي، (٨/ ١٤١٥هـ)، (١٠٩/ ١٥٢).

رابعاً
المؤلفات باللغة الفرنسية

Jomier, jacques,le Commentaire coranique du Manar , paris, ed Maionneuve et larode, 1954.

Merad, Ali,L'lsLam contemporain, ed 2. paris, quis, que sais-je,
N. 2185. 1987.



خامساً

فهرس الموضوعات

الباب الأول

مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي عموماً

الخاتمة

فهارس الكتاب

* * *



تأليف

العلامة محمد بن علي بن سلوم النجدي الزبيري
المتوفى سنة / ١٢٤٦ هـ

دراسة وتحقيق
عصام بن محمد أنور رجب

دار النوادر

بُغية الملتمس

في سُباعيات حديث الإمام مالك بن أنس

تأليف

الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلدي

العلائي الدمشقي الشافعي

المولود سنة / ٦٩٤ هـ والمتوفى سنة / ٧٦١ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق

حمدي عبد المجيد السلفي



الإمام

يوسف بن عبد الهادي

الدمشقي الحنبلي

وآثاره الفقهية

وبيان أثر حنابلة فلسطين في دمشق

مع تحقيق علمي لكتابه

سير الحاث إلى علم الطلاق الثلاث

إعداد ودراسة

الدكتور صفوت عادل عبد الهادي

سليل أسرة آل عبد الهادي الحنابلة

دار النوادر



الرحلة الحجازية

المسماة

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف

بقلم

أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

قدم لها وعلق عليها

السيد محمد رشيد رضا

صححها وعلق عليها

حسن السماحي سويدان

دار النوادر